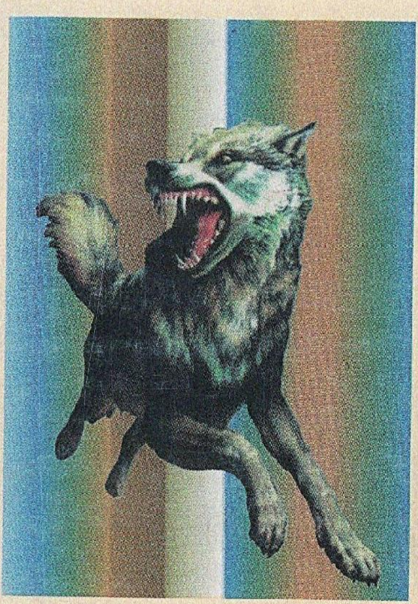
جاك لندن

الناب الأبيض



ترجمة

عدنان حسن

روايات عالمية « ٦٦ »

جَاك لَنـدَن

الناب الأبيض

رِوَايـــة

تـرجَـمَة
عَدنَان حَسَن

منشــورات وزارة الثقــافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٨

العنوان الأصلي للكتاب :

WHITE FANG

JACK LONDON

النـاب الأبيض = white fang / جاك لنـدن ؛ ترجمة عدنان حسن . ـ
دمشـق : وزارة الثقـافـة ، ١٩٩٨ . ـ ٣٣٤ ص ؛ ٢٤ سـم . ـ
(روايـات عالميـة ؛ ٦٦) .

١ ـ ٨٢٣ أ م ل ن د ن   ٢ ـ العنـوان   ٣ ـ العنـوان المـوازي
٤ ـ لنـدن   ٥ ـ حسـن
مكتبـة الأسـد

الايـداع القـانوني : ع ـ ٢٠٦٨/١٢/١٩٩٨

روايـات عـالميـة

«٦٦»

حياة جاك لندن

يكتفي بعض المؤلفين بكتابة مغامرة أما جاك لندن فقد عاش مغامرة. إن لندن الذي ولد في سان فرانسيسكو عام ١٨٧٦ لم يعرف بشكل مؤكد من هو والده. كانت أمه، فلورا ولمان، امرأة ذكية لكنها غير مستقرة. جاء اسمه من زوج أمه، جون غريفيث لندن. كانت الأسرة فقيرة. وقد اتصف التعليم المبكر لجاك بكونه «متقطعاً». فلكي يعيل الأسرة مارس كل أنواع الأعمال، من توزيع الصحف إلى العمل في مصنع للمعلبات.

كان أول راتب حقيقي يتقاضاه عندما اشترى قارباً بأموال مقترضة، وأصبح يعرف باسم قرصان المحار؛ فقد كان يسرق المحار من أحواض مستملكة في خليج سان فرانسيسكو. كان ذلك في عام ١٨٩١. كان في الخامسة عشرة من عمره آنذاك.

مضى عليه عام ١٨٩٢ وهو يخدم بصفة وكيل [في خفر أسماك الولاية] يطارد صيادي القريدس والسلمون اللاشرعيين.

بعد ذلك تعاقد على العمل على متن مركب شراعي متعدد الصواري (سكونة) لصيد الفقمة وأمضى خمسة أشهر كبحار في المحيط الهادي.

نال الجائزة الأولى في مسابقة صحفية على المقال الذي كتبه حول إعصار في عرض الساحل الياباني . في عام ١٨٩٤ شهد مزيداً من الأوقات العصيبة . فقد زحف العاطلون عن العمل على واشنطن فيما كان يعرف أنذاك باسم جيش كيلي الصناعي . انضم لندن إلى الزاحفين لفترة وجيزة ، ثم تحول إلى متشرد متجول ابتغاء التسول والسرقة .

انتهى به هذا الفصل من حياته بأن قضى حكماً بالسجن بسبب التشرد في سجن مقاطعة آري . لكن هذا ساعد في إقناعه بمدى أهمية التعليم . فدخل المدرسة الثانوية وهو في سن التاسعة عشرة ، وصار يكتب لجريدة المدرسة ، ثم انخرط في المجتمع المتصارع .

في العام التالي اجتاز امتحانات الدخول إلى جامعة كاليفورنيا . بيد أنه بعد أن أمضى فصلاً دراسياً كطالب جامعي كان عليه أن ينقطع عن الدراسة لكي يعيل أسرته .

مع ذلك ، فقد ظل مواظباً على القراءة ، فقرأ كماً كبيراً . كان يقرأ كل شيء ، كل شيء ، خصوصاً الاقتصاد والسياسة وعلم الاجتماع . واستمر في الكتابة حتى بالرغم من أن كتاباته لم تلق رواجاً .

في آذار ١٨٩٧ كانت فورة ذهب الكلوندايك . انضم لندن إلى السباق المتجه شمالاً معتمداً على النقود التي استدانها .

مع أنه قد عاد مصاباً بالاسقربوط بدلاً من الذهب ، فان المادة التي جمعها قد استوفت دينه بالقصص التي كتبها على مدى السنوات التالية .

ففي عام ١٨٩٩ كانت أعماله تلقى قبولاً في كل المجلات ثم أصدرها على شكل كتاب ، وصارت الأموال تتدفق عليه .

كانت المشكلة الوحيدة هي أنه لم يتعلم كيف يتدبر المال . فبغض النظر عن روعة كتاباته أو عن مدى رواج أعماله (في مرحلة من المراحل زُعم أنه الكاتب الأعلى أجراً في العالم) بقي معظم الأحيان مديوناً . إن الكتش (نوع من السفن الشراعية ذات الصاريين) البالغ طوله خمساً وأربعين قدما الذي بناه قد انقلب إلى كارثة مالية . أما بيت الذئاب ، المنزل الشبيه بالقلعة الذي صرف عليه ثروته فقد احترق حتى أساسه حتى قبل أن يتمكن من شغله . كان ثمة عدد لاحصر من الطفيليين الذين كانوا يستجدونه ويقترضون منه ويسرقون منه . كانت حياته كارثة من عدة جوانب . فقد تزوج مرتين دون أن يحقق السعادة التامة . أما والدته المتقدمة في السن فقد سببت له مشاكل لانهاية لها . وأنهكه المرض والإدمان على الكحول .

مع ذلك ، فقد بقي مستمراً في اسلوبه المثير المتمرد . كان مغامراً، جريئاً ، ومتحدياً على الدوام . ولما كان رومانسياً في الصميم ، فقد أبدع عالمه الأدبي الخاص به ، عالم الواقعية الوحشية . تتالت مؤلفاته : **ذئب البحار** ، **ناس الهاوية** ، **الناب الأبيض** ، **العقب الحديدية** ، **الطريق** ، **مارتن إدن** ، **قرصان النجوم** ، **وادي القمر** ،ودزينة من المجلدات — مسرحيات،مقالات ، كتب الأسفار ، سيرة ذاتية ، بالإضافة إلى الروايات .

كان ثمة مغامرة أخرى ، أيضاً : فقد قام برحلات بحرية الى بلاد غريبة وعمل مراسلاً حربياً في جنوب أفريقيا وكوريا والمكسيك واشتغل بالعمل السياسي ، وقام بتجارب في الزراعة العلمية .

توفي عام ١٩١٦ في الثاني والعشرين من تشرين الثاني عن عمر يناهز الأربعين عاماً ، متأثراً بتسمم بولي في مزرعة المواشي العزيزة عليه قرب سونوما ، كاليفورنيا ، تاركاً إرثاً من النثر المثير .

مقدّمة

بقلم : دوايت ف . سوين

إن قصة / الناب الأبيض / هي إحدى أعظم حكايات المغامرات في عصرنا ، فهي تجعلنا نعيش قصة مخلوق ثلاثة أرباعه ذئب وربعه كلب اسكيمو : نجاته من الموت وتجارب الحياة القاسية التي تكوّن تربيته . إنها ملحمة / الناب الأبيض / المسرعة للنبض، المثيرة ، والتي تستحوذ على الفكر ، التقطتها كلمات جاك لندن الكاتب المعلّم المعترف به عالمياً من أجل حكاياته المثيرة .

تقع أحداث الرواية على خلفية مكانية هي نهر يوكون في كندا وبلاد الشمال وزمانية هي أيام فورة ذهب الكلوندايك في أواخر تسعينات القرن التاسع عشر . إنها تحملنا الى ما وصفه لندن بقوله « برية بلاد الشمال الموحشة المتجمدة القلب » . وتدعنا نعيش مع الذئب — الكلب وايتغانغ وهو يصارع الطبيعة المتجهمة والبشر القساة .

إن العالم الذي يصوره جاك لندن لم يشاهده سوى القليلون منا نحن الباقين على قيد الحياة اليوم ، لكن لندن كان يعرفه جيداً . فقد سافر إلى هناك عندما كان شاباً في عام ١٨٩٧ ضمن أربعين ألف رجل —

وحفنة من النساء الجريئات ــ الذين خاطروا بأرواحهم من أجل أحلام بثروات لا تعد ولا تحصى وجاذبية الحدود الجديدة ــ إنهم مغامرون سقيمون مصممون على مغامرات جسيمة » .

إن المصاعب التي واجهها هؤلاء الناس الشجعان تفوق التصور فقد ارتحلوا من مرافىء الولايات المتحدة الغربية ونزل معظمهم في آلاسكا في أماكن مثل سكاجواي وشاطىء ديا ، الذي كان يتميز بمده وجزره البالغ ثلاثين قدماً وبانعدام الأرصفة عليه ، ثم شقوا طريقهم مسافة خمسة عشر ميلاً عبر الوادي الضيق لنهر ديا واجتازوا البر وصولاً إلى ممر تشيكوت البالغ ٣٦٠٠ قدماً في كندا ، وأخيراً ، في نهاية المطاف ، ليصلوا ، كما كانوا يأملون بشكل مستميت ، إلى حقول ذهب الكاوندايك . إن الكلمة المنطقية الوحيدة لوصف الخوض في نهر ديا هي « مستحيل » : لكن عابري النهر الآنف الذكر الذين أعمتهم حمى الذهب رفضوا الاعتراف بتلك الحقيقة واندفعوا بشكل متهور ــ مدفوعين بكلمات شعار الجيش القديم « الصعب ننجزه حالاً ، المستحيل يستغرق وقتاً أطول » .

كان النقل هو المشكلة . فقد كان على القافلة الذاهبة إلى ممر تشيكوت أن تتسلق ١٢٥٠ قدماً في الميل الأخير وكان درباً منحدراً وعراً وفي أماكن يستحيل عبورها تقريباً . لم تكن فقط الأرض وحدها القاتلة ، بل إن مرعى الخيول ــ إن كان لديك خيول ، كان في الواقع غير موجود ، فإذا كان على الحصان أن يحمل القش ، لا يمكنه أن يحمل سوى القليل من الأشياء الأخرى . وبالتالي فقد نفقت الأحصنة بأعداد

كبيرة بحيث أن رائحة جثثها المتفسخة في بعض الأماكن لم تكن تطاق . كذلك ، ربما كانت المجاعة خطراً متربصاً مستديماً حيث كانت جماعة من المنقبين الأوائل المدعيين الأغرار مهددين بها ، وفي أعلى الممر كانت الشرطة الجبلية لشمال غرب كندا المكلفة بحراسة الحدود تعيد كل من يحاول الدخول بأقل من مؤونة عام كامل من الطعام .

كان الرحالة ذوو القوة الكافية والقدرة على الاحتمال يتولون بشكل متجهم حمل مؤوناتهم صاعدين الطريق المنحدر . أو ،إذا كانوا يملكون المال ، يمكنهم أن يستأجروا حمالين من هنود التشيلكات الذين كانوا يتقاضون أجراً قدره أربعون سنتاً عن كل رطل يحملونه على ظهورهم . وكان بإمكان التشيلكات الذكر أن يحمل بشكل عادي ما بين مئه إلى مئة وخمسين رطلاً في الرحلة الواحدة وبإمكان زوجته أن تحمل خمسة وسبعين رطلاً ويحمل أولاده من خمس وعشرين الى ستين رطلاً . كان لندن شاباً قوياً في الحادية والعشرين من عمره . ولأنه كان يجد متعة في التحدي الذي كانت تثيره وحشية البرية اللامدجنة ، فهو لم يكن يحمل أمتعته فحسب بل كان يحمل أمتعة الآخرين أيضاً .

« أذكر أنني ، في نهاية العتالة لمسافة ثمانية وعشرين ميلاً عبر تشيلكوت من شاطىء ديا الى بحيرة لندرمان ، كنت أحزم الأمتعة مع الهنود وكنت أتفوق في الحمل كثيراً على الهندي » هكذا كتب لاحقاً .

« آخر عتلة إلى لندرمان كانت ثلاثة أميال . وكنت أعيد قطع هذه المسافة ثلاث مرات في اليوم ، وفي كل رحلة ذهاب كنت أحمل مائة وخمسين رطلاً . هذا يعني أنني في أسوأ الدروب الوعرة كنت أجتاز

في اليوم أربعاً وعشرين ميلاً ، إثنا عشر منها تحت حمل قدره مائة وخمسون رطلاً » .

بعد ممر تشيلكوت كانت تقع أخطار أخرى : أنهار وبحيرات ومنحدرات نهرية تستدعي استخدام القوارب – التي يتعين بناؤها في معظم الحالات – أو عتالة لا نهاية لها . كانت الشلالات والغرق مصادر خطر ثابتة . في الصيف كان يظهر البعوض في المستنقعات . كانت الملاريا شائعة الحدوث . لكن المنقبين تابعوا مسيرهم وجمع لندن، وهو بحار ، مبلغاً جيداً من المال من قيادته لمراكبهم عبر المنحدرات النهرية .

أخيراً ، وصل الباحثون عن الذهب الذين نجوا بأرواحهم من الأهوال التي لا نهاية لها إلى دوسون سيتي ، وهي بلدة حدودية قطبية متداعية للسقوط مقفرة تقع على سهل اسفنجي حيث يتصل نهر الكلوندايك بنهر يوكون ، وكانت « تضم أربعة آلاف رجل كسول أو مخبول » على حد تعبير مفتش الشرطة الجبلية الشمالية الغربية .

انطلاقاً من دوسون ومراكز الاستزراع المماثلة (كان يُطلق على مدينة كلوندايك المجاورة عموماً اسم لاوستان أي «مدينة القمل ») كان القادمون الجدد يأتون فيستوطنون فيها. كان قوام وجباتهم لحم الخنزير المقدّد والفول والدقيق . كان الدقيق يُحوّل عادةً إلى الفلابجاك (*) خبز الخميرة المتخمرة (وهو أيضاً خبز المنقبين عن الذهب في آلاسكا)

* ـ الفلا بجاك : كعكة تصنع من مخفوق البيض واللبن والدقيق . (المترجم) .

غالباً ، لأنه عندما كان دقيق الخبز ينفذ ، كانوا يستعيضون عنه بالخميرة المتخمرة ، وهي عبارة عن دقيق ممزوج بالماء يحفظ دافئاً إلى أن يتخمر .

في الواقع ، إن المتمرسين المقيمين في الشمال كانوا يتباهون ببقائهم في وجه قساوة المناطق القطبية ، حتى أنهم كانوا يطلقون على أنفسهم اسم « الخمائر المتخمرة » Sour doughs لكي يميزوا أنفسهم عن القادمين الجدد الذين كانوا يسمونهم « تشيتشاكوس » ، أي الأغرار بلغة تشينوك الهندية .

والآن بدأ البحث عن الذهب .

بالنسبة لفئة قليلة نسبياً فان المغامرة قد درت عليهم ربحاً يتجاوز أكثر أحلامهم جموحاً . وبالنسبة لمعظمهم ، لم تكن كذلك . في قول دارج في ذاك الزمن « هناك دولاران يدخلان إلى الأرض مقابل كل دولار يخرج منها » . إن الجميع قد تعبوا وعانوا ، وهم يصارعون البرد والجوع والمرض ، مات الآلاف منهم على الطريق .

كان جاك لندن واحداً من اولئك الذين لم يغتنوا . فبالإضافة إلى المشاق التي رافقت الحياة القطبية الشمالية الشظفة ، أصيب بالاسقربوط ، وهو مرض يسبب الضعف ونقص الوزن وألم المفاصل وتخلخل الأسنان وزوال لون الجلد وتفتت اللحم . وهو ينجم عن نقص الفيتامين (ث) في الطعام . تشفي منه الفواكه الطازجة أو الخضار الطازجة . أما في العالم القاحل المتضور جوعاً لحقول ذهب الكلونديك في الشتاء ، فإن هذه الفواكه والخضار لم تكن متوفرة ، وهكذا فقد شارف لندن على الموت . مع ذلك ، وبينما كان يعاني ، كرس وقته لشيء مفيد وهو يراقب

ويصغي ويتشبع بكافة الإدراكات الحسية التي تشكّل الخبرة . تلك الخبرة ، وبعد وقت طويل من مغادرته للكلوندايك ، أمدته باللون والمادة الخام اللذين سوف يساعدانه في إطلاق شهرة كتاباته . لقد أعطته قصصاً لا نهاية لها عن المنطقة القطبية الشمالية وعن الباحثين عن الذهب ، قصصاً من السحر والفتنة بحيث أن الملايين من الناس في كل أنحاء العالم قد قرأوها بشغف .

وجاء الربيع . وكان لندن قد حاز على ما يكفي . فعاد إلى موطنه في كاليفورنيا . تمر فورة الذهب بدون ذكر تقريباً في / الناب الأبيض / مع ذلك . فالمنطقة القطبية الشمالية ذاتها هي بؤرة الكتاب والطبيعة البكر هي العدو . هنا نرى الشتاء بارداً بشدة لدرجة أن البصاق كان يستخدم كمقياس حرارة تجريبي حاسم . فاذا بصقت وانفجر البصاق بصوت مفرقع قبل أن يضرب الأرض فستعرف أن درجة الحرارة هي أعلى من ٥٠ درجة مئوية تحت الصفر . كانت مقاييس الحرارة الأخرى عملية بالقدر نفسه . فالزئبق في مقياس الحرارة كان يتجمد في الدرجة ناقص ٤٠ والكيروسين في الدرجة ناقص ٣٥ ، ويعتبر خليج هدسون خطراً في الدرجة ناقص ٨٠ . مع ذلك ، وبالرغم من الشدائد فقد كانت لا تزال أرض حياة . فالأرانب كانت موجودة وكذلك الوشق والسناجب والسلمون والشيهم والترمجان . وعلاوة على كل ذلك ، كانت هناك الذئاب الرمادية الكبيرة الجائعة والضارية التي تجوب البرية ، فرادى وعلى شكل قطعان . لقد كان هذا العالم عالمها . وكان الانسان هو الدخيل ، فكان يتعرض للمطاردة والصيد باعتباره لحماً إذا ما عض الجوع عضته. إن الذئاب والكلاب الذئبية قد سحرت لندن . لذا ، وعلى خلفية أرض

الشمال ، جعل لندن الكلب الذئبي الشخصية المركزية للكتاب ، جعله سيرة حياة ، في الواقع : إنها قصة حياة من الولادة الى الشيخوخة للكلب الذئبي الذي أطلق عليه اسم وايت فانغ (الناب الأبيض).

إن هذا الاختيار للموضوع شيء مفهوم . فالكلاب الهندية ، الكلاب نصف المدجنة ، والكلاب المستجلبة من الولايات المتحدة كانت موجودة في كل مكان من الكلوندايك ، وربما أن لندن قد رآها لأول مرة في المخيمات حول سللكيرك حيث يتصل نهر بيلي بنهر يوكون .

هذه الحيوانات كانت ذات أهمية في أرض بالغة القسوة على الخيول وفي الحاجة الماسة إلى وسيلة للنقل . فالكلب القوي الجيد مثل كلب الاسكيمو الآلاسكي كان بمقدوره أن يجر مزلجة أو يحمل طرداً، وينجو من البرد ويعيش على جراية مؤلفة من بضع سمكات مجففات في اليوم . نتيجة لذلك ، أصبحت الكلاب هي دابة الحمولة المفضلة لأرض الشمال . ولكن الحيوانات لم تكن وحدها التي تعيش في هذه القفار الشمالية .فالهنود كانوا يتجولون هنالك أيضاً — هنود السيواش كما كان يسميهم الباحثون عن الذهب ، مع أنهم ، في الواقع ، كانوا مكونين من دزينة أو أكثر من القبائل . بالفعل ، إنهم هم الذين أعطوا نهر الكلوندايك اسمه ، لأنهم كانوا يطلقون عليه اسم ال « ثرون — ديوك » thron-diuk أي الماء — الطارق فقام الباحثون عن الذهب بتحريف لفظه ليصبح « كلوندايك » .

إن هنود عصابات نهر ماكنزي هم جزء من سيرة / الناب الأبيض /. ليس الهمجيون النبلاء ، وليس هنود الحكاية الاسطورية الرومانسية .

بل الهنود المقيمون في منطقة شمال غرب كندا ، هم الذين يجتذبونه ويطردونه ـ فقد علموه أساليب البشر وعلموه كيف يعيش بينهم . وقد صورهم لندن أيضاً ، كلاعبين في كتابه ، ثم أضاف اليهم البيض . الرجال البيض الوحشيين ، كلهم في الغالب ، لأن منطقة الشمال الغربي كانت أرضاً متوحشة .

في النهاية ، أضاف وجهة نظر ، رسالة ساخرة تمثل فلسفته الشخصية التي جرى تقديمها في السياق الدرامي للقصة . وبتواشجها مع بعضها بفعل عبقرية جاك لندن الأدبية ، كونت كتاباً يستحق الذكر حقاً .

دوايت ف . سوين

الفصل الأول

درب اللحـــم

تجهّمت غابة البيسية الداكنة على جانبي المجرى المائي المتجمد . كانت الأشجار قد تجردت من غطائها الصقيعي الأبيض بفعل ريح حديثة وبدت مائلة بعضها إلى بعض ، سوداء ومنذرة بسوء في الضوء الخافت . خيّم على الأرض صمت هائل . كانت الأرض ذاتها قفراً، لاحياة فيها ولاحركة ، شديدة العزلة والبرودة الى درجة أن روحها لم تكن روح الحزن حتى . كان فيها أثر من الضحك ، لكنه أثر من الضحك أكثر رهبة من أي حزن ــ ضحك عديم المرح كابتسامة أبي الهول ، ضحك بارد كالصقيع ينضح بضراوة العصمة . لقد كان من حكمة الأبدية البارعة والمتعذرة على الإبلاغ أن تضحك على عبثية الحياة وجهد الحياة . إنها البرية ، برية أرض الشمال المتوحشة المتجمدة القلب .

ولكن كان ثمة حياة ، متحدية ، تمتد في كل اتجاه في الأرض . في أسفل المجرى المائي المتجمد كانت تكدح قافلة من الكلاب الذئبية. كان فراؤها الهلبي مكسواً بالصقيع . كان نَفَسُها يتجمدفي الهواء حالما يخرج من أفواهها ، ينطلق إلى الأمام على شكل رغوات من بخار الماء تستقر على شعر أجسامها وتتحول إلى بلورات من الصقيع . كانت العدة

الجلدية مسروجة على الكلاب وكانت السيور الجلدية للكلاب مربوطة إلى مزلجة تتجرجر خلفهم. كانت المزلجة بدون صفيحتين سفليتين. كانت مصنوعة من لحاء البتولا المتين، وكان سطحها يستند بكامله على الثلج. أما النهاية الأمامية للمزلجة فكانت مفتولة إلى الأعلى، مثل رأس الكمنجة المعقوف. لكي تدخل أسفل وتحت حفرة الثلج الطري الذي كان يمور أمامها مثل موجة. على المزلجة، المحكمة الربط بأمان، كان ثمة صندوق مستطيل ضيق وطويل. وكان ثمة أشياء على المزلجة — بطانيات، فأس، ركوة قهوة ومقلاة. لكن أبرز هذه الأشياء وأكثرها إشغالاً للفراغ هو الصندوق الطويل والضيق.

في مقدمة الكلاب، وعلى القبقاب الثلجي (*)، كان يكدح رجل، وفي مؤخرة المزلجة كان يكدح رجل آخر. على المزلجة، في الصندوق، كان يستلقي رجل ثالث كان كدحه قد انتهى — رجل قهرته البرية وأردته حتى لم يعد يتحرك أو يكافح مرة أخرى. ليس من عادة البرية أن تحب الحركة. الحياة إثم بالنسبة لها، لأن الحياة حركة، والبرية تهدف دائماً إلى تدمير الحركة. إنها تجمد الماء لتمنعه من الجريان إلى البحر، تسحب النسغ من الأشجار حتى تتجمد قلوبها الجبارة، والأكثر ضراوة وفظاعة من كل ذلك هو أن البرية تسوق الإنسان بالقوة وتسحق الإنسان الأكثر تململاً من الحياة، في تمرده ضد الرأي الحاسم القائل بأن كل الحركة يجب في النهاية أن تؤدي إلى توقف الحركة.

(*) القبقاب الثلجي . شــبه قبقاب بيضوي الشكل ينتعل لتمكين المرء من السـير على الثلج اللين دون أن يغوص فيه (المترجم) .

أما في المقدمة وفي المؤخرة فكان يكادح رجلان غير مروّعين ولا يُقهران ، لم يكونا قد ماتا بعد . كان جسداهما مكسوين بالفرو والجلد المدبوغ بشكل ناعم . الرموش والوجنات والشفاه كانت مغطاة بالبلورات من زفيرهما المتجمد بحيث أن فميهما لم يكونا قابلين للتمييز . وهذا ما منحهما مظهر المتنكرين الشبحيين ، مظهر متعهدي الدفن في عالم طيفي في جنازة شبح ما . ولكن تحت ذلك كله كانا رجلين يجتازان أرض القفر والزيف والصمت ، مغامرين سقيمين منهمكين في مغامرة كبيرة ، يحثان أنفسهما في مواجهة جبروت عالم قصي غريب وعديم النبض مثل هاويات الفراغ .

كانوا يرحلون بصمت ، يدخرون أنفاسهم من أجل عمل أجسامهم. على كل جانب كان الصمت يضغط عليهم بحضوره الملموس . فكان يؤثر على أذهانهم مثلما تؤثر الضغوط الجوية الكثيرة للماء العميق على جسم الغواص . كان يسحقهم بثقل الاتساع اللامنتهي والقرار الذي لا يتبدّل . كان يسحقهم حتى أقصى تجاويف أدمغتهم ، يستعصر منهم ، كما العصير من العنب ، كل الحماسة الكاذبة والنشاط المفرط والقيم الذاتية المفرطة للروح الإنسانية إلى أن أدركوا أنفسهم أنهم محدودون وصغار ، ذرات وهباءات ، يتحركون بحيلة ضعيفة وحكمة قليلة وسط اللعب وتفاعل العناصر والقوى الكبيرة العمياء .

انقضت ساعة ، ثم ساعة ثانية . كان النور الباهت للنهار القصير عديم الشمس قد بدأ يخفت ، عندما ارتفعت صرخة بعيدة ضعيفة في الهواء الساكن ، وحلّقت باندفاعة سريعة حتى وصلت إلى أعلى طبقة، حيث استمرت خافقة ومتوترة ، ثم تلاشت ببطء . كان من الممكن

أن تكون عويلاً لفقدان روح لو لم تستمر بضراوة حزينة محددة وتوق جائع. فتل الرجل الأمامي رأسه إلى أن التقت عيناه بعيني الرجل الذي في الخلف ، ثم ، عبر الصندوق المستطيل الضيق أومأ كل واحد برأسه للآخر .

انطلقت صرخة ثانية مخترقة الصمت بحدة إبرية . حدد الرجلان موقع الصوت . كان إلى الوراء ، في مكان ما من اتساع الثلج الذي كانا قد انطلقا منه لتوهما . وانطلقت صرخة ثالثة مجيبة، أيضاً من الوراء وعلى يسار الصرخة الثانية .

« إنهم في أثرنا ، يابيل » قال الرجل في المقدمة .

بدأ صوته أجشاً وغير طبيعي ، وكان قد تكلم بجهد ظاهر .

« اللحم نادر » أجاب رفيقه .

« لم أر أثراً لأرنب منذ عدة أيام » .

بعد ذلك لم يتكلما ، مع أن آذانهما كانت شديدة التوق إلى صرخات الصيد التي استمرت في الصعود خلفهما .

بعد حلول الظلام ربطا الكلاب إلى مجموعة من أشجار البيسية على حافة المجرى المائي ونصبا مخيماً . إن التابوت الموجود على جهة النار قد أفادهما كمقعد وكطاولة . كانت الكلاب الذئبية ، المربوطة على الجانب البعيد من النار ، تزمجر وتتعارك فيما بينها لكنها لم تبد أي ميل للشرود في الظلام .

— « يبدو لي ، ياهنري ، أنهم يقيمون في مكان قريب بشكل ملحوظ من المخيم » علق بيل . أومأ هنري برأسه وهو يقرفص فوق النار

ويسند ركوة القهوة بقطعة من الجليد . ولم يتكلم إلى أن اتخذ مقعده على التابوت وبدأ يأكل .

« إنهم يعرفون أين تكون مخابئهم آمنة » قال . « إنهم يأكلون الطعام قبل أن يصبحوا هم طعاماً . إنهم حكماء بكل معنى الكلمة ، كلابهم » .

هز بيل رأسه . « أوه ، لا أدري » .

نظر إليه رفيقه بفضول . « إنها المرة الأولى التي أسمعك فيها تقول شيئاً عن عدم كونهم « حكماء » » .

« هنري » ، قال الآخر وهو يمضغ بصوت طاحن وبشكل متعمد حبات الفول التي كان يأكلها ، « هل صدف أن لاحظت الطريقة التي كانت ترفس بها الكلاب عندما كنت أطعمها ؟ »

أقر هنري « لقد اهتاجت أكثر من المعتاد »

« كم كلباً لدينا ياهنري ؟ »

« ستة » .

« حسناً ، ياهنري . » توقف بيل للحظة بحيث يمكن لكلماته أن تكتسب أهمية أكبر .

« كما كنت أقول ، ياهنري ، لدينا ستة كلاب . أخرجتُ ست سمكات من الحقيبة . أعطيت سمكة لكل كلب ، فكان لدي نقص سمكة واحدة »

« أنت عددت خطأ »

« لدينا ستة كلاب » كرر الآخر بهدوء « وحيد الأذن لم يحصل على سمكة . عدت إلى الحقيبة بعدئذ وجلبت له سمكة » .

تابع بيل بقوله « هنري ، لن أقول أنهم كانوا كلهم كلاباً ، ولكن كان ثمة سبعة منهم حصلوا على السمك » .

توقف عن الأكل ، ألقى نظرة عبر النار وأحصى الكلاب

قال : « يوجد ستة فقط ، الآن »

« رأيت الآخر يجري عبر الثلج » أعلن بيل بنبرة قاطعة باردة .

« لقد رأيت سبعة » .

نظر رفيقه إليه مؤاسياً وقال ، « سأكون سعيداً تماماً عندما تنتهي هذه الرحلة » .

« ماذا تقصد بذلك ؟ » سأل بيل .

« قصدت أن هذا الحمل من « ourn يضغط على أعصابك ، وقد بدأتَ ترى أشياء » .

« ظننت ذلك » أجاب بيل بوقار . « ولذلك ، عندما رأيته يجري عبر الثلج ، نظرت إلى الثلج ورأيت آثاره ثم أحصيت الكلاب وكانت لا تزال ستة . الآثار موجودة في الثلج الآن . هل تريد أن تنظر إليها؟ سأُريك إياها » .

لم يرد هنري ، بل استمر يجرش الطعام بصمت إلى أن انتهى اللحم ، ثم ختمه بفنجان أخير من القهوة . مسح فمه بقفا يده وقال :

« إنك تظن عندما كان . . . »

قاطعته صرخة عويل طويلة ، حزينة بشكل ضارٍ ، من مكان ما في

الظلام . توقف ليصغي إليها ، ثم أنهى جملته بتلويحة من يده باتجاه صوت الصرخة « أحدهم ؟ »

هز بيل رأسه . «إنني أمتلك بصراً لعيناً أعتقد أنه أفضل من أي شيء أخر لدي . لقد لاحظت بنفسك العراك الذي قامت به الكلاب » .

وصرخة تلو الصرخة، ثم صرخات مجيبة حولت الصمت إلى هرج ومرج . من كل جانب كانت تعلو الصرخات،والكلاب تخلت عن خوفها بأن انضمت إلى بعضها بعضاً واقتربت من النار بحيث أن شعرها قد انسفع بالحرارة . فرمى بيل بمزيد من الحطب قبل أن يشعل غليونه .

قال هنري : « أعتقد أنك كئيب قليلاً » .

– « هنري . . . » عض شفتيه، مص غليونه متأملاً لبعض الوقت قبل أن يتابع بقوله « هنري ، كنت أفكر كم كان محظوظاً أكثر مني » .

أشار إلى الشخص الثالث بدفعة من إبهامه على الصندوق الذي كانا يجلسان عليه .

– « أنت وأنا ، ياهنري ، عندما نموت سنكون محظوظين إذا حظينا من الحجارة فوق جثتينا بما يكفي لإبعاد الكلاب عنا » .

– « لكننا لا نمتلك أهلاً ونقوداً وكل الباقي ،مثله » أجاب هنري :

– « فالجنازات الطويلة المسافة لا يمكننا أن نتحمل كلفتها تماماً أنت وأنا » .

– « إن ما يزعجني ، ياهنري ، هو أن شاباً كهذا، كان لورداً أو شيئاً من هذا القبيل في بلاده ، ولم يكن عليه أن يقلق بشأن الطعام

أو البطانيات لماذا يأتي منبطحاً إلى أطراف الدنيا التي هجرها الله ــ هذا بالضبط مالا يمكنني فهمه » .

ــ « كان من الممكن أن يعيش إلى شيخوخة ناضجة لو أنه بقي في البيت »

فتح بيل فمه ليتكلم ، لكنه غير رأيه . بدلاً من ذلك ، أشار نحو جدار الظلمة الذي يضغط حولهما من كل جانب. لم يكن ثمة أي أثر لأي شكل في السواد المطلق ،إذ لم يكن بالإمكان رؤية سوى زوج من العيون تلمعان مثل جمرتين مشتعلتين . أشار هنري برأسه إلى زوج ثانٍ فثالث . كانت قد ارتسمت دائرة من العيون الملتمعة حول مخيمهما . ومن حين لآخر ، كان زوج من العيون يتحركان أو يختفيان ليظهرا مرة أخرى بعد لحظة . كان اضطراب الكلاب يزداد ، ففرت مذعورة متفرقة ، في فورة من الذعر المفاجىء ،إلى قرب النار ، وهي تنكمش خوفاً وتزحف حول سيقان الرجلين. في أثناء التدافع كان أحد الكلاب قد انقلب على طرف النار وصرخ من الألم والخوف عندما ملأت رائحة فروته المسفوعة الهواء . إن الاهتياج قد جعل دائرة العيون تنزاح بشكل مضطرب للحظة وتنسحب قليلاً ، لكنها استقرت مرة أخرى عندما هدأت الكلاب .

ــ « هنري، إنه لمن سوء الحظ اللعين أن نكون خالين من الذخيرة » .

كان بيل قد أنهى غليونه ، وصار يساعد رفيقه في نشر فراش الفرو والبطانية على أغصان البيسية واللذين كان قد وضعهما فوق الثلج قبل العشاء . نخر هنري ، وبدأ يحل الموكاسين (*) .

(*) الموكاسين أو المقسين: حذاء لا كعب له مصنوع من جلد ناعم ومرفوع النعل عند جوانب القدم وفوق أصابعها . (المترجم)

– « كم خرطوشة قلت لي أنه بقي لديك ؟ » سأل .

– « ثلاث » جاء الجواب ، « واتمنى لو كانت ثلاثمائة . عندئذ كنت سأريهم ، اللعنة عليهم ! » .

– « هز قبضته بغضب للعيون اللامعة ، وبدأ يدعم حذاء الموكاسين أمام النار .

« وأتمنى أن تتوقف هذه الموجة من البرد » تابع قائلاً « فهي لاتزال خمسين تحت الصفر منذ أسبوعين وحتى الآن . وكم كنت أتمنى لو أنني لم أبدأ هذه الرحلة ، ياهنري . أنا لا أحب مظاهرها . أنا لا أشعر أنني بخير ، على كلٍ . وطالما أنني أتمنى ، فانني أتمنى لو ننتهي من هذه الرحلة وأجلس وإياك حول النار في قلعة ماك غوري الآن ونلعب الكريبج(*)– هذا ماكنت أتمناه » . نخر هنري وزحف إلى الفراش. وبينما كان يغالب النعاس أيقظه صوت رفيقه .

– « قل لي ، ياهنري ، ذاك الآخر الذي دخل وأخذ سمكة – لماذا لم تهاجمه الكلاب ؟ هذا مايزعجني » .

« أنت تنزعج أكثر من اللزوم ، يابيل » ، جاء الرد النعسان .

« أنت لم تكن هكذا من قبل . اخرس الآن واخلد إلى النوم ، وستكون كللك على أحسن مايرام في الصباح . لابد أن معدتك محمضة ، وهو مايزعجك » .

نام الرجلان ، وصارا يتنفسان بعمق ، جنباً إلى جنب تحت غطاء واحد .خمدت النار ، والعيون المتوهجة قرّبت الدائرة التي رسمتها حول

(*) الكريبج : لعبة من ألعاب الورق أو الشدة . (المترجم)

المخيم . انكمشت الكلاب إلى بعضها البعض في خوف، ومن حين لآخر كانت تزمجر مهددة كلما اقترب زوج من العيون منها . في إحدى المرات ارتفع صوت زئيرها بحيث أن بيل استيقظ.ثم خرج من الفراش بحذر لكي لايشوش نوم رفيقه ، ورمى مزيداً من الحطب على النار . وعندما بدأت تضطرم ويعلو لهيبها تراجعت دائرة العيون بعيداً . ألقى نظرة بالصدفة على الكلاب الجاثمة . فرك عينيه ونظر إليها بحدة أكثر . ثم زحف عائداً إلى داخل البطانيات .

– « هنري » قال « اوه ، هنري » .

أنّ هنري عندما انتقل من النوم إلى اليقظة وسأل :

« ما المشكلة الآن ؟ »

– « لاشيء » جاء الرد . « سوى أنه يوجد سبعة منهم مرة أخرى . لقد أحصيتهم لتوي » .

اعترف هنري باستلام المعلومة بنخرة تحولت إلى شخرة عندما عاد إلى النوم .

في الصباح كان هنري هو الذي استيقظ أولاً ثم أخرج رفيقه من الفراش . كان ضوء النهار على بعد ثلاث ساعات من الآن ، مع أن الساعة قد بلغت السادسة تماماً ، وفي الظلام صار هنري يجول وهو يعد طعام الإفطار ، في حين قام بيل بلف البطانيات وتجهيز المزلجة للانطلاق بسرعة .

سأل فجأة : « هنري ، قل لي كم كلباً قلت لدينا ؟ »

ـــ « ستة » .

ـــ « خطأ » هتف بيل منتصراً .

ـــ « سبعة ، مرة أخرى ؟ » تساءل هنري .

ـــ « لا ، خمسة ، ذهب واحد » .

ـــ « إلى الجحيم ! » صاح هنري بغضب ، تاركاً الطابخ ، وجاء ليحصي الكلاب .

ـــ « أنت على حق يابيل » وختم بقوله « لقد ذهب فاتي » .

ـــ « وذهب كالبرق الزلق عندما بدأ الهروب حتى أنه لم يكن من الممكن رؤيته من الدخان » .

ختم هنري « لا أمل له إطلاقاً » « فقد ابتلعوه حياً » .

أراهن أنه يعوي وهو ينزل في بلعومهم ، اللعنة عليهم ! »

قال بيل « كان على الدوام كلباً غبياً » .

ـــ « ولكن لايوجد كلب غبي ينبغي أن يكون أحمقاً بما يكفي لأن يخرج وينتحر بهذه الطريقة » . أطل بنظرة على بقية الفريق بعين متأملة جمعت بشكل سريع الميزات الملحوظة لكل حيوان .

« أراهن أن أحداً من الآخرين لن يفعلها » .

« ألا يمكنك أن تبعدهم عن النار بالعصا » وافق بيل .

« كنت أعتقد دائماً أن هناك خطب ما مع فاتي ، على أي حال »

وكانت هذه هي نعوة الكلب الميت على درب أرض الشمال . وكانت هذه النعوة أقل بخلاً من نعوة كلاب كثيرة أخرى ـــ أقل بخلاً من نعوة أناس كثر .

الفصل الثاني

الذئبة

تناولا طعام الفطور وربطا عدة المخيم الضئيلة إلى المزلجة ، وأدار الرجلان ظهرهما للنار المتراقصة وانطلقا في الظلام . وبدأت في الحال ترتفع صرخات حزينة بضراوة — صرخات تنادي وتجيب بعضها بعضاً عبر الظلام والبرد . انقطع الحديث ، طلع ضوء النهار في الساعة التاسعة . في منتصف النهار صار لون السماء إلى الجنوب بلون الورد وكانت ترتسم حدودها عند بروز الأرض الفاصل بين شمس الظهيرة والعالم الشمالي . لكن اللون الوردي سرعان ما تلاشى . إن الضوء الرمادي للنهار المتبقي قد دام حتى الساعة الثالثة عندما تلاشى أيضاً وهبط الحجاب القاتم لليل القطبي الشمالي على الأرض المقفرة الصامتة .

عم الظلام ، صارت صرخات الصيد إلى اليمين واليسار والخلف أكثر قرباً . بحيث أنها أرسلت أكثر من مرة رعشات الخوف عبر الكلاب الكادحة ، قاذفة بهم في نوبات قصيرة الأمد من الذعر .

في ختام واحدة من هذه النوبات ، عندما كان هو وهنري قد أعادا ربط الكلاب بالسيور قال بيل :

«أتمنى لو يضربون عن المسير في مكان ما ويذهبون ويتركوننا لوحدنا»

« إنهم يواظبون بأعصاب رهيبة » قال هنري متعاطفاً .

لم يتكلما أكثر من ذلك إلى أن تم نصب المخيم .

كان هنري منكباً على شد الحبال وإضافة الجليد إلى قدر الفول عندما أجفله صوت ضربة وصياح من بيل وصرخة ألم مزمجرة حادة من الكلاب . فانتصب واقفاً في الحال ليرى شكلاً مبهماً يختفي عبر الثلج تحت جنح الظلام . ثم رأى بيل يقف وسط الكلاب ، نصف منتصر ، نصف مهزوم ، وفي يده عصا متينة ، وفي اليد الأخرى ذيل وجزء من جسم سمكة سلمون مقددة .

ــ « لقد أخذ نصفها » أعلن « ولكنني سددت له ضربة كبيرة مفاجئة في الوقت المناسب . ألا تسمعه وهو يزعق ! »

ــ « كيف كان شكله ؟ » سأل هنري .

ــ « لم أستطع أن أتبينه . لكنه له أربعة أرجل وفم وشعر ويبدو مثل كلبي » .

ــ « يجب أن يكون ذئباً أليفاً ، كما أظن » .

ــ « إنه أليف لعين ، مهما يكن نوعه ، فهو يأتي إلى هنا في وقت الإطعام ويأخذ حصته من السمك » .

في تلك الليلة عندما انتهى العشاء وجلسا على الصندوق المستطيل وسحبا غليونيهما ، ارتسمت دائرة العيون البراقة بشكل أقرب من ذي قبل .

ـ « أتمنى لو تظهر مجموعة من الموظات(*) أو أي شيء آخر، ويذهبون ويتركوننا لوحدنا » قال بيل .

نخر هنري بترنيمة ليست كلها تعاطفاً ، وجلسا بصمت لمدة ربع ساعة ، وهنري يحدق في النار ، وبيل يحدق في دائرة العيون التي كانت تتوهج في الظلمة خلف ضوء النار تماماً .

« كنت أتمنى لو ننسحب الآن إلى ماك غوري في هذا الوقت بالضبط »

بدأ الكلام مرة ثانية .

« اقفل تمنياتك ونقيقك » انفجر هنري غاضباً .

إن معدتك تفرك ، وهذا هو مايؤلمك . ابتلع ملعقة من الصودي وسوف تتحسن بشكل رائع وتصبح رفيقاً ألطف .

في الصباح ، استيقظ هنري على تجديف شديد كان يصدر عن فم بيل . أسند هنري نفسه على مرفقه ونظر ليرى رفيقه واقفاً بين الكلاب قرب النار المضرمة من جديد ، وارتفع ذراعاه بالتوبيخ وتشوه وجهه بالغضب الشديد .

صاح هنري « مرحباً ! ماذا حصل هناك الآن ؟ »

ـ « لقد ذهب فروغ » جاء الرد :

ـ « لا »

ـ « أقول لك نعم »

(*) الموظ: حيوان ضخم من حيوانات أميركا الشمالية من فصيلة الوعول . (المترجم)

وثب هنري من تحت البطانيات ومضى إلى الكلاب . وقام بعدّها بعناية ثم انضم إلى شريكه في شتم قوى البرية التي سرقت منهما كلباً آخر .

ــ « كان فروغ أقوى كلب في المجموعة » أعلن بيل أخيراً .

ــ « ولم يكن كلباً غبياً أيضاً » أضاف هنري .

وهكذا كتبت النعوة الثانية في خلال يومين .

تناولا فطوراً كئيباً وربطا الكلاب الأربعة المتبقية إلى المزلجة . كان اليوم تكراراً للأيام التي سبقته . كدح الرجلان بدون كلام فوق وجه العالم المتجمد . لم يخرق الصمت سوى صيحات مطارديهما ، الذين كانوا يتشبثون بشكل غير مرئي بمؤخرتيهما . مع قدوم الليل في منتصف ما بعد الظهر ، كانت الصيحات تقترب أكثر بينما كان المطاردون يتقدمون باضطراد جرياً على عادتهم والكلاب تزداد إثارة وخوفاً وكانت تصاب بنوبات ذعر تؤدي إلى تعقّد الحبال وتزيد من كآبة الرجلين .

« هاكم ، سوف انتقم منكم أيها المخلوقات الغبية » قال بيل برضا ، تلك الليلة ، وهو يقف منتصباً لإكمال مهمته .

ترك هنري الطبخ وجاء ليرى. لم يكن شريكه قد قيد الكلاب فحسب، بعد أن كان قد ربطها بالأعواد على الطريقة الهندية. بل شد سيراً جلدياً حول عنق كل كلب . وإلى هذا السير وقريباً من العنق بحيث لا يمكن للكلب أن يطاله بأسنانه ربط عصا متينة بطول أربعة أو خمسة أقدام . أما الطرف الآخر من العصا بدوره ، فقد جُعل مثبتاً إلى وتد في الأرض

بواسطة سير جلدي . كان الكلب عاجزاً عن قرض الجلد في طرف العصا الواقع على جهته . فالعصا تمنعه من الوصول إلى الجلد الذي يثبت الطرف الآخر .

هز هنري رأسه باستحسان .

– « إنها الوسيلة الوحيدة التي ستكبح وحيد الأذن » قال هنري .

– « يمكنه أن يقطع الجلد بأسنانه كما تفعل السكين وبنصف سرعتها تقريباً .سيكونون جميعاً هنا في الصباح على أحسن مايرام » .

أكد بيل « تراهن أنهم سيفعلون ذلك » ، « إذا تبين أن أحدهم مفقود ، فسوف أمضي دون أن أتناول قهوتي . »

« إنهم يعرفون تماماً أننا لا نحمل سلاحاً ملقماً لكي نقتل به »

علق هنري في وقت النوم مشيراً إلى الدائرة المتوهجة التي كانت تطوقهما .

– « لو كان بمقدورنا أن نضع زوجاً من الطلقات فيهم لكانوا أكثر احتراماً . إنهم يقتربون أكثر فأكثر كل ليلة . أخرج ضوء النار من عينيك وانظر بامعان هناك – هل رأيت ذاك ؟ »

قام الرجلان بتلهية نفسيهما لبعض الوقت بمراقبة حركة الأشكال المبهمة على حافة ضوء النهار . بالنظر عن قرب وبشكل ثابت حيث كان زوج من العيون يشتعلان في الظلام ، بدأت تتشكل ببطء هيئة حيوان. حتى أنهما أستطاعا رؤية هذه الأشكال تتحرك من حين لآخر .

لفت انتباه الرجلين صوت قادم من بين الكلاب . فقد كان وحيد الأذن يطلق عواءات سريعة وملهوفة وهو يندفع بطول عصاه نحو

الظلام متوقفاً من حين لآخر ليقوم بهجمات مسعورة بأسنانه على العصا .

« انظر إلى هذا يابيل » همس هنري .

في ضوء النار ، وبحركة مختلسة جانبية انسل حيوان يشبه الكلب . كان يتحرك بمزيج من الارتياب والجرأة ، وهو يراقب الرجلين بحذر ، وانتباهه مثبت على الكلاب . قام وحيد الأذن بالشد بالطول الكامل العصا باتجاه الدخيل وصار يعوي بلهفة .

« ذاك وحيد الأذن الغبي لايبدو أنه خائف كثيراً » قال بيل بصوت منخفض .

« إنها ذئبة » همس له هنري ، « وهي التي تسببت في اختفاء فاتي وفروغ . إنها طعم للقطيع . فهي تستدرج الكلب ثم يتبعه الباقون فتبدأ بافتراسهم »

كانت النار تفرقع . تطايرت جمرة بصوت مدمدم عالٍ . عند صدور هذا الصوت قفز الحيوان الغريب متراجعاً إلى الظلام .

أعلن بيل « هنري ، أنا أفكر »

« تفكر بماذا ؟ »

« أفكر بذاك الوحش الذي ضربته بالعصا »

« أنا أقل الناس ارتياباً في العالم » كان رد هنري

« وهنا بالضبط أريد أن أعلق » تابع بيل « إن إلفة الحيوان مع نيران المخيمات تثير الريبة وشيء لا أخلاقي » .

« إنه يعرف بالتأكيد أكثر مما ينبغي على ذئب محترم أن يعرفه »

وافق هنري « فالذئب الذي يعرف ما يكفي للدخول مع الكلاب في وقت الإطعام يكون قد امتلك خبرات » .

« كان لدى فيلان العجوز ذات مرة كلب هرب مع الذئاب » .

قال بيل بصوت عالٍ « يجب أن أعرف . لقد اصطدته من بين قطيع في مرعى للموظات على نهر ليتل ستيك . وبكى فيلان العجوز مثل الطفل إذ لم يكن قد رآه منذ ثلاث سنوات ، كما قال . وكان قد عاش مع الذئاب طوال ذاك الوقت » .

« أظن أنك قد أصبت ، يابيل . ذاك الذئب هو كلب ، وقد أكل كثيراً من السمك في ذاك الوقت من يد إنسان »

« وإذا صادفته ، ذاك الذئب الذي هو كلب ، سأجعل منه وجبة لحم »

أعلن بيل « فنحن لا يمكن أن نتحمل فقدان المزيد من الحيوانات »
« ولكنك لا تملك سوى ثلاث خرطوشات » اعترض هنري .

« سأنتظر إلى أن تكون الإصابة محققة وقاتلة » كان الرد .

في الصباح جدد هنري النار وطبخ طعام الإفطار على صوت شخير زميله .

« لقد كنت تغط في نوم عميق مطمئناً على كل شيء » أخبره هنري ، عندما أيقظه من أجل الإفطار « لم يطاوعني قلبي لأوقظك » .

بدأ بيل يأكل متثائباً . لاحظ أن فنجانه فارغ وبدأ يحاول الوصول إلى ركوة القهوة . لكن الركوة كانت أبعد من طول ذراعه وقريبة من هنري .

« قل لي ، ياهنري » صار يوبخه بلطف « ألم تنس شيئاً ؟ »

نظر هنري حواليه باهتمام كبير وهز رأسه . رفع بيل الفنجان الفارغ .

« إنك لا تتناول القهوة » أعلن هنري .

« وهل نفذت ؟ » سأل بيل بقلق

« أبداً »

« ألا تعتقد أنها تؤذي هضمي ؟ »

« أبداً »

اجتاحت وجه بيل فورة من الغضب :

قال : « إذاً ، إنه يغضبني ويثير قلقي أن اسمعك تشرح نفسك » أجاب هنري « لقد ذهب سبانكر »

دون تسرع وبمظهر من استسلم لسوء الطالع أدار بيل رأسه ، ومن حيث كان جالساً قام بعد الكلاب .

« كيف حدث ذلك ؟ » سأل بفتور .

هز هنري كتفيه استهجاناً « لا أعرف . إلا إذا كان وحيد الأذن قد فك قيده . إذ لا يمكن أن يكون قد فعل ذلك بنفسه ، هذا أكيد » . « حيوان لعين » تكلم بيل بوقار وببطء دون أن يظهر عليه أي أثر للغضب الذي كان يعتمل في داخله . « نعم ، لأنه لم يكن بمقدوره أن يفك نفسه ، فإنه قد فك وثاق سبانكر »

« حسناً ، إن مشكلة سبانكر قد انتهت على كل حال ، أظن أنه

يلتهم الآن وأنه يثب فرحاً فوق الأرض في بطون عشرين ذئباً مختلفاً» هذه كانت نعوة هنري لهذا الكلب المفقود الأخير .

« تناول بعض القهوة ، يابيل »

لكن بيل هز رأسه :

ـــ « هلم » ناشده هنري وهو يرفع الركوة .

نحّى بيل فنجانه جانباً « سأكون مخبولاً إن فعلت ذلك . قلت أنني لن أشرب قهوتي إذا تبين فقدان أي كلب ، وأنا لن أفعل » .

ـــ « إنها قهوة طيبة لعينة » قال هنري بشكل مغرٍ .

لكن بيل كان عنيداً ، فتناول إفطاراً ناشفاً ، غسل يديه مع شتائم مغمغمة على وحيد الأذن للحيلة التي قام بها .

ـــ « سأربطهم بعيداً عن متناول بعضهم البعض هذه الليلة » قال بيل عندما استقلا المزلجة .

كانا قد قطعا أكثر من مئة ياردة بقليل عندما انحنى هنري ، الذي كان في المقدمة ، والتقط شيئاً ما كان قد ارتطم به حذاؤه الثلجي .

كان ظلاماً فلم يستطع رؤيته ، لكنه تعرّف عليه باللمس .

قذف به إلى الوراء فاصطدم بالمزلجة وارتد متدحرجاً إلى أن وقف على الحذاء الثلجي لبيل .

« ربما ستحتاج إلى هذا في عملك » قال هنري .

هتف بيل ـــ لقد كان ذلك هو كل ما بقي من سبانكر ـــ العصا التي كان مربوطاً بها .

« لقد أكلوه كله » أعلن بيل ، « فالعصا نظيفة مثل الناي . لقد أكلوا الجلد من الطرفين . إنهم جائعون ملاعين ، ياهنري ، وسوف يضعوننا ، أنا وأنت ، في حسبانهم قبل أن تنتهي هذه الرحلة » .

ضحك هنري متحدياً . « لم يسبق لي أن تعقبتني الذئاب بهذه الطريقة ، ولكنني مررت بالكثير مما هو أسوأ من ذلك وحافظت على صحتي وعافيتي . يحتاج الأمر أكثر من حفنة من هذه المخلوقات المزعجة لتؤثر عليك حقاً يابيل ، يابني » .

« لا أعرف ، لا أعرف » تمتم بيل بشكل مشؤوم .

« حسناً ، ستعرف ذلك تماماً عندما نصل إلى ماك غوري .

« أنا لا أشعر بحماس خاص » تابع بيل .

« أنت منحرف الصحة ، هذه مشكلتك » جزم هنري « إن ما تحتاجه هو الكينا ، وسوف أسقيك جرعة قوية من الدواء عندما نصل إلى ماك غوري » . نخر بيل معلناً عدم موافقته على التشخيص ،وغرق في الصمت .

كان ذاك اليوم مثل كل الأيام . طلع الضوء في الساعة التاسعة . في الساعة الثانية عشرة تسخّن الأفق الجنوبي بالشمس اللامرئية . ثم بدأ اللون الرمادي البارد لفترة ما بعد الظهر الذي سوف يندمج بالايل بعد ثلاث ساعات .

كان ذلك تحديداً بعد محاولة الشمس عبثاً للظهور عندما استل بيل البارودة من تحت قشاطات المزلجة وقال :

« أنت ابق هنا متيقظاً ، ياهنري ، وأنا سأذهب لأرى ما يمكن رؤيته »

« من الأفضل لك أن تلازم المزلجة » احتج شريكه « فأنت لا تملك سوى ثلاث خرطوشات ، ولا تعرف ما يمكن أن يحدث »

« من يتق الآن ؟ سأل بيل منتصراً .

لم يرد هنري ، وتابع المشي بتثاقل لوحده مع أنه غالباً ما كان يرمي بنظرات قلقة خلفه على القفر الرمادي الذي اختفى فيه شريكه .

بعد ساعة من ذلك وصل بيل ، مستفيداً من الطرق المختصرة التي كان على المزلجة أن تلتف عليها .

قال : « إنهم مبعثرون ومتباعدون » ، « إنهم يسيرون بمحاذاتنا وفي الوقت نفسه يبحثون عن الطرائد . أنت ترى ، إنهم متأكدون منا ، إلا أنهم يعرفون أن عليهم الانتظار لينالوا منا . في هذه الأثناء يرغبون في التقاط أي شيء يؤكل يقع بين براثنهم » .

« أنت تقصد أنهم يظنون أنهم متأكدون منا » اعترض هنري بشكل واضح . لكن بيل تجاهله . « لقد رأيت البعض منهم . إنهم نحيفون بشكل جميل ، فهم لا يأكلون لقمة واحدة على مدى أسابيع ، أظن ، عدا فاتي وفروغ وسبانكر ، وثمة الكثير منهم ممن لم يذهبوا بعيداً . إنهم ضامرون بشكل ملحوظ ، فأضلاعهم مثل ألواح الغسيل ، ومعداتهم ملتصقة بعظام ظهورهم . إنهم مستميتون تماماً ، يمكنني أن أقول لك. سوف يصابون بالجنون مع ذلك ، ومن ثم سيأخذون حذرهم .

بعد ذلك بدقائق قليلة ، كان هنري الذي كان يسير الآن خلف المزاجة يطلق صفرة تحذيرية منخفضة . التفت بيل ونظر ثم أوقف الكلاب بهدوء . إلى الوراء ، حول المنعطف الأخير وعلى مستوى النظر ، وعلى الممر نفسه الذي كانوا قد عبروه لتوهم ، كان يخب شكلٌ مكسو بالفرو ينسل خلسة .

كان أنفه على الدرب وكان يخب بمشية هينة انسلالية مميزة .

عندما توقفا توقف رافعاً رأسه ناظراً إليهم بثبات بخيشومين يرتعشان كما لو كان يلتقط ويتشمم ويتفحص رائحتهم .

« إنها الذئبة » همس بيل .

كانت الكلاب قد اضطجعت متربصة في الثلج ومرهو بقربهم لينضم إلى شريكه عند المزاجة . كانا يراقبان معاً الحيوان الغريب الذي كان قد طاردهما لأيام والذي كان قد أتم لتوه تدمير نصف فريقهم الكلبي . بعد تفحص تفتيشي خب الحيوان إلى الأمام بضع خطوات . وقد تكرر ذلك عدة مرات إلى أن أصبح على بعد أقل من مئة ياردة . توقف ، ورأسه إلى الأعلى ، قريباً من أجمة من أشجار البيسية ، ودرس بالبصر والشم فريق الرجال المراقبين . نظر إليهم بطريقة تواقة بشكل غريب على طريقة الكلاب لكنه في توقه هذا لم يكن ثمة أي شيء من تعلق الكلاب . كان توقاً وليد الجوع ،وحشياً قاسياً مثل أنيابه ، عديم الرحمة مثل الصقيع نفسه . كان كبيراً بالنسبة للذئب، فهيكله الهزيل، الذي يكشف عن معالم حيوان، هو من أضخم الحيوانات من نوعه .

علق هنري قائلاً : « يبلغ ارتفاعه قريباً من قدمين ونصف عند الكتفين وسأراهن أنه لايبعد أكثر من مسافة خمسة أقدام »

« إن لونه غريب بالنسبة للذئب » كان نقد بيل « لم يسبق لي أن رأيت ذئباً أحمر من قبل . يبدو لي أنه ذو لون شبه كموّني »

لم يكن الحيوان بالتأكيد بلون الكمون . فقد كان فراؤه فراء ذئب حقيقي .

كان اللون السائد هو الرمادي ، ومع أنه كان تدرجاً لونياً مائلاً إلى الحمرة باهتاً مضافاً إليه تدرجات لونية غير متداخلة ، كانت تظهر وتختفي ، كانت أكثر شبهاً بخيال الرؤية ، رمادية حيناً ، ورمادية بشكل واضح ، وأحياناً أخرى تعطي إلماعات وومضات لاحمرار غامض في اللون لا يمكن تصنيفه بلغة الخبرة العادية .

« يبدو لكل العالم مثل كلب مزلجة اسكيمي كبير » قال بيل « ماكنت لأتفاجأ لرؤيته يهز ذيله » .

صاح « مرحباً أيها الكلب الأسكيمي ! تعال إلى هنا ، أنت مهما يكن اسمك » .

ضحك هنري « إنه خائف منك قليلاً »

لوّح بيل بيده له مهدداً وصاح بصوت عالٍ ، لكن الحيوان لم يبدِ أي خوف .التغير الوحيد فيه هو أنهما استطاعا أن يلاحظا ازدياد الحذر. كان لايزال يتفحصهما بتوق الجوع الذي لا يرحم . فهما لحم وهو جائع ويتمنى أن يمضي ويأكلهما لو تجرأ على ذلك .

— « انظر هنا ، ياهنري » قال بيل مخفضاً صوته بلا وعي إلى حدود الهمس بسبب ما كان يخطر بباله « لدينا ثلاث خرطوشات . ولكنها

طلقة ميتة . إذ يمكن أن نخطئه . لقد فتك بثلاثة من كلابنا ويجب أن نضع حداً له ، ما قو لك ؟ »

هز هنري رأسه موافقاً . استل بيل البندقية بحذر من تحت أربطة المزلجة . كانت البندقية في طريقها إلى كتفه ، لكنها لم تصل إلى هناك .

ففي تلك اللحظة وثبت الذئبة جانباً من الدرب إلى أجمة البيسية، واختفت. نظر الرجلان كل الى الآخر. صفر هنري صفرة طويلة ومفهومة.

- « ربما أنني قد عرفته » وبخ بيل نفسه بصوت عالٍ ، بينما كان يعيد البندقية إلى مكانها . « بالطبع ، إن الذئب الذي يعرف ما يكفي للدخول مع الكلاب في وقت الإطعام ، يعرف كل شيء عن أسلحة الصيد . أخبرك الحقيقة تماماً الآن ، ياهنري ، إن هذا المخلوق هو سبب كل متاعبنا . لولاه لكان لدينا ستة كلاب حالياً ، بدلاً من ثلاثة . وأخبرك الحقيقة الآن ، ياهنري ، إنني سأنال منه . إنه أذكى من أن يقتل بخرطوشة في العراء . لكنني سأكمن له . سألاحقه في الغابات مثلما أنا متأكد من أن اسمي هو بيل » .

« لا داعي لأن تتوه بعيداً أكثر مما ينبغي لكي تفعل ذلك » نصحه شريكه « إذا بدأ ذاك القطيع بالانقضاض عليك ، فإن هذه الخرطوشات الثلاثة ستكون في الجحيم في أقل من ثلاث شهقات . فهذه الحيوانات جائعة جداً، وما أن تبدأ حتى تنال منك بشكل مؤكد، يابيل»

خيّما باكراً في تلك الليلة . فثلاثة كلاب ليس بمقدورها أن تجر بسرعة كبيرة ولساعات طويلة مثلما يمكن لستة كلاب، وكانت تبدي مؤشرات لاتخطىء على الإصابة بالإرهاق . ومضى الرجلان إلى

الفراش باكراً . حيث كان من رأي بيل أولاً أن تربط الكلاب بعيداً عن متناول بعضها بعضاً . لكن الذئاب كانت تزداد جرأة، واستيقظ الرجلان من نومهما أكثر من مرة . دنت الذئاب كثيراً بحيث أصبحت الكلاب مسعورة من الخوف وكان من الضروري إذكاء النار من وقت لآخر لإبقاء السلابيين المغامرين على مسافة أكثر أماناً .

« لقد سمعت بحارة يتحدثون عن أسماك القرش تلاحق سفينة » .

علق بيل بينما كان يندس تحت البطانيات بعد قيامه بإحدى عمليات إذكاء النار .

« حسناً ، فالذئاب هي قروش اليابسة . إنها تعرف شغلها أفضل منا ، وهي تلازم دربنا بهذه الطريقة لأجل صحتها . إنها ستنال منا . إنها واثقة من أنها ستنال منا ، ياهنري » .

«لقد جعلتك نصف متأهب وثرثاراً بهذا الشكل»أجاب هنري بحدة .

« الانسان يكون نصف مهزوم عندما يقول أنه مهزوم وأنت نصف مأكول من الطريقة التي تستمر بها في الكلام حولها » .

« لقد فتكت برجال أفضل منك ومني » أجاب بيل .

« أوه ، اسكت نقيقك ، إنك تجعلني متعباً وغاضباً ، كلي »

انقلب هنري على جنبه غاضباً ، لكنه فوجىء بأن بيل لم يبدِ مزاجاً مماثلاً . لم تكن هذه هي طريقة بيل لأنه كان من السهل إغضابه بكلمات حادة وعندما تهدّل جفناه وتثاءب كانت الفكرة التي وردت إلى ذهنه هي

« لاخطأ في ذلك ، إن مزاج بيل مزاج كئيب كلياً . سيكون عليّ أن أفرحه وأفرّج عنه غدا » .

الفصل الثالث

الصرخة الجائعة

بدأ اليوم بشكل مبشر بالنجاح . فلم يفقدا أي كلب خلال الليل ، وصارا يتنقلان على الدرب بصمت في الظلام والبرد بمعنويات مبتهجة إلى حد ما . كان يبدو أن بيل قد نسي هواجسه المتوجسة شراً في الليلة المنصرمة ، حتى أنه أصبح مزوحاً مع الكلاب عندما انقلبت المزلجة ، في وقت الظهيرة ، على جزء رديء من الطريق .

حدث تشوش خطير . فقد انقلبت المزلجة رأساً على عقب وانحصرت بين جذع شجرة وصخرة هائلة فوجدا نفسيهما مجبرين على فك أحزمة الكلاب لكي يخرجا من الورطة . كان الرجلان منكبين على المزلجة يحاولان تجليسها عندما لاحظ هنري وحيد الأذن ينسل مبتعداً .

« إلى هنا ، أنت ، وحيد الأذن » صاح ، وكان يقف ملتفتاً حواليه إلى الكلب . لكن وحيد الأذن انطلق يعدو عبر الثلج وسيوره تنجر وراءه . وهناك ، في الثلج على الدرب الخلفي ، كانت الذئبة بانتظاره . عندما اقترب منها أصبح حذرا بشكل مفاجىء . أبطأ إلى أن

صار يمشي متيقظاً متبخترا ثم توقف . نظر إليها بحذر وارتياب وإن يكن برغبة . بدأ أنها تبتسم له ، مظهرة أسنانها بطريقة متملقة أكثر مما هي متوعدة .

تحركت نحوه خطوات قليلة بشكل لعوب ثم توقفت . اقترب وحيد الأذن منها وهو لا يزال متيقظاً ومحترساً ، وذيله وأذناه في الهواء ورأسه مرفوع عالياً .

حاول أن يتبادل معها شمشمة الأنوف لكنها تراجعت بشكل لعوب وبحياء . فكل تقدم من جانبه كان يترافق بتراجع مقابل له من جانبها . خطوة خطوة صارت تغريه بالابتعاد عن أمان رفاقه الأدميين . ذات مرة كما لو أن الإنذار بوسائل غامضة قد عبر من خلال عقله ، فتل رأسه وتطلع خلفه إلى المزلجة المقلوبة ، إلى رفاقه وإلى الرجلين الذين كانا يناديان له .

ولكن مهماكانت الفكرة التي كانت تتشكل في ذهنه فقد كانت تبددها الذئبة التي تقدمت إليه ثم تشممته للحظة مماثلة واستأنفت تراجعها الخجول أمام تقدماته المتجددة .

في هذه الأثناء ، كان بيل قد تذكر بارودته . لكنها كانت محشورة تحت المزلجة المقلوبة ومع مرور الوقت كان هنري قد ساعده على تجليس الحمل . كان وحيد الأذن والذئبة قريبين جداً من بعضهما وكانت المسافة كبيرة جدا بحيث لا يمكن المخاطرة باطلاق النار .

كان الوقت متأخراً جداً ، وأدرك وحيد الأذن خطأه . قبل أن يشاهدا السبب رآه الرجلان يستدير ويركض عائدا نحوهما . ثم ، مع اقترابه،

شاهدا دزينة من الذئاب الضامرة الرمادية اللون تثب فوق الثلج مقتربة بمسارات عمودية على الدرب وقاطعة عليه طريق الرجعة .

في اللحظة ، سرعان ما اختفى حياء وغنج الذئبة فقفزت على وحيد الأذن مزمجرة . فصدها عنه بكتفه وبدّل مساره وقد قطعت عليه الذئاب طريق العودة وهو لايزال مصراً على العودة إلى المزلجة وذلك في محاولة للالتفاف إليها . في كل لحظة كان يظهر ذئب جديد وينضم إلى المطاردة . كانت الذئبة على بعد قفزة واحدة خلف وحيد الأذن وهي تواصل تقدمها . سأل هنري فجأة وهو يضع يده على ذراع شريكه « إلى أين أنت ذاهب ؟ »

أبعدها بيل عنه .

قال « لن استسلم لذلك » « لن يأخذوا واحدا آخر من كلابنا إذا استطعت أن أمنع ذلك »

فاندفع والبندقية في يده إلى الشجيرات النامية التي كانت تبطن جانب الدرب . كان قصده ظاهراً بما فيه الكفاية . مع اعتبار المزلجة بمثابة مركز للدائرة التي كانت وحيد الأذن يرسمها ، خطط بيل ليصل تلك الدائرة في نقطة استباقاً للمطاردة . ربما كان من الممكن بالنسبة له أن يخيف الذئاب وينقذ الكلب ببارودته في وضح النهار .

صاح هنري في أعقابه « أقول لك ، يابيل ، احترس ! لا تضيع الفرصة ! » جلس هنري على المزلجة وصار يراقب . لم يكن هناك أي شيء بالنسبة له ليفعله . كان بيل قد غاب تماماً عن النظر ، لكنه من حين لآخر ، كان بامكانه أن يرى وحيد الأذن وهو يظهر ويختفي بين

الشجيرات وأجمات البيسية المبعثرة . لقد حكم هنري على حالته بأنها ميؤوس منها . فالكلب كان لا يزال يحيا على حافة الخطر ، لكنه كان يركض على الدائرة الخارجية في حين كان قطيع الذئاب يركض على الدائرة الداخلية وبدائرة أقصر . لقد كان من العبث اعتبار وحيد الأذن الذي كان يسبق مطارديه كثيرا قادراً على قطع دائرتهم قبلهم وأن يعود إلى مكان المزلجة .

كانت الخطوط المختلفة تقترب بسرعة من نقطة الهدف . في مكان ما ، في الخارج ، على الثلج ، عرف هنري الذي كان محجوباً عن النظر بالأشجار والدغل أن قطيع الذئاب ووحيد الأذن وبيل كلهم قادمون معاً . لقد حدث ذلك كله بشكل سريع للغاية ، بأسرع مما كان يتوقع. سمع صوت طلقة ، ثم طلقتين بتلاحق سريع ، وعرف أن ذخيرة بيل قد نفذت . ثم سمع صيحة عالية وكبيرة من الزمجرات والعواءات. فميز من بينها صرخة لوحيد الأذن تنم عن الألم والرعب وسمع صرخة ذئب تنم عن حيوان أصيب بطلقة . وكان هذا كل شيء . توقفت الزمجرات . تلاشى العواء . وخيم الصمت على الأرض المقفرة .

جلس على المزلجة برهة طويلة . لم يكن ثمة حاجة بالنسبة له لأن يذهب ويرى ماحدث . كان يعرفه كما لو أنه يحدث أمام عينيه . ذات مرة ، نهض مجفلاً والتقط بسرعة فأساً من تحت أربطة المزلجة . ولكنه عاد وجلس فترة أطول وأطال التفكير ، فقد كان الكلبان الباقيان يتململان ويرتجفان عند قدميه . أخيراً نهض بطريقة متعبة وتقدم ليربط الكلبين إلى المزلجة . مرر حبلاً فوق كتفه ، سيراً بشرياً ، ولحق

بالكلب . لم يبتعد كثيراً . عند أول علائم الظلام سارع إلى نصب المخيم ورأى أن يكون لديه مخزون وفير من الحطب . أطعم الكلبين وطبخ وتناول عشاءه وجعل فراشه قريباً من النار .

بيد أنه لم يُقدّر له أن يستمتع بذاك الفراش . فقبل أن يغمض عينيه كانت الذئاب قد اقتربت منه بشكل مهدد . لم يعد الأمر يتطلب إجهاد البصر لرؤيتهم . كانوا جميعاً حوله وحول النار في دائرة ضيقة واستطاع أن يراهم بوضوح في ضوء النهاروهم يتمددون ، يقرفصون يزحفون على بطونهم أو ينسلون إلى الوراء والأمام .حتى أنهم ناموا . ومن هنا وهناك كان بمقدوره أن يرى ذئباً متكوراً في الثلج مثل الكلب يغط في النوم الذي كان هو نفسه محروماً منه الآن .

أبقى النار متقدة بشكل ساطع لأنه كان يعرف أنها هي وحدها التي تفصل بين لحم جسمه وبين أنيابها الجائعة . مكث كلباه لصيقين به يبكيان وينشجان ، وفي بعض الأحيان يزمجران باستماتة عندما يقترب ذئب قليلاً أكثر من المعتاد . في هذه اللحظات ، عندما كانت تزمجر كلابه كانت الدائرة بكاملها تتهيج وتقف الذئاب على أقدامها وتندفع نحو الأمام بتردد فتنطلق حوله جوقة من الزمجرات والعواءات المتلهفة. ثم تهدأ الدائرة مرة أخرى ، ومن هنا وهناك ، يستأنف ذئب نومه المقطوع .

لكن هذه الدائرة كانت تمتلك نزوعا مستمراً إلى التضييق عليه . شيئاً فشيئاً بمقدار إنش واحد في كل مرة ، مع ذئب يزحف على بطنه إلى الأمام هنا ، وذئب يزحف هناك ، كانت الدائرة تضيق إلى أن تصبح

الوحوش على وشك أن تكون ضمن مدى الانقضاض. فيقوم هو بالتقاط المياسم من النار ويرميها على القطيع. يؤدي إلى تراجع سريع مترافق بعواءات غاضبة وزمجرات خائفة عندما يصيب ميسم مصوّب جيداً ويسفع حيواناً متجاسراً أكثر مما ينبغي.

طلع الصباح على الرجل فألفاه منهكاً ومتعباً، جاحظ العينين من فرط النعاس. طبخ طعام الإفطار في الظلام، وفي الساعة التاسعة مع قدوم ضوء النهار، عندما انسحب قطيع الذئاب، بدأ المهمة التي كان قد خطط لها خلال ساعات الليل الطوال. فقام بتقطيع شجيرات فتية وصنع منها قضباناً مستعرضة لسقالة يربطها إلى الأعلى إلى جذوع الأشجار الواقفة. وباستخدام سيور المزلجة من أجل الرفع، وبمساعدة الكلاب، قام برفع التابوت إلى أعلى السقالة.

« لقد نالوا من بيل وقد ينالون مني، لكنهم بالتأكيد لن ينالوا منك أيها الشاب » قال مخاطبا الجثمان الموجود في الضريح الشجري. ثم سلك الدرب والمزلجة المتخففة من وزنها تنط خلف الكلاب الراغبة في الجري لأنها، هي أيضا، كانت تعرف أن السلامة تكمن فقط في الوصول إلى قلعة ماك غوري. كانت الذئاب الآن أكثر حرية في مطاردتها وهي تخب برزانة خلفهم ومسايرة لهم على الجنبين، وألسنتها الحمراء مندلقة خارج أفواهها. وخصورها الضامرة تكشف عن الأضلاع المتماوجة مع كل حركة. كانت ضامرة جداً، مجرد أكياس جلدية مشدودة فوق هياكل عظمية وذات خيوط هي بمثابة العضلات — ضامرة لدرجة أن هنري كان يتعجب كيف تظل واقفة على أقدامها ولا تنهار فوراً على الثلج.

لم يجرؤ على الترحال بعد حلول الظلام . في منتصف النهار ، لم تكن الشمس تسخن الأفق الجنوبي فحسب ، بل كانت تدفع بحافتها العليا الباهتة والذهبية ، فوق خط السماء . فكان يتلقاها كإشارة . كانت النهارات تزداد طولاً . كانت الشمس ترجّع الضوء ، ولكن كان من النادر أن يحيد ابتهاج نورها أكثر من ذلك عندما يدخل المخيم . كانت لا تزال هناك بضع ساعات من ضوء النهار الرمادي والشفق الداكن ، فكان يستغلها في تقطيع مؤونة كبيرة من الحطب .

مع الليل يأتي الرعب . فلم تكن الذئاب المتضورة تزداد جرأة فحسب ، بل إن انعدام النوم كان شديد الأثر وبادياً على هنري . كان يغفو رغماً عن نفسه ، رابضاً قرب النار ، والبطانيات حول كتفيه والفأس بين ركبتيه وعلى كل جانب كلب ملتصق به . استيقظ مرة ورأى أمامه ، على بعد لا يتجاوز اثني عشر قدماً ، ذئباً رمادياً كبيراً ، واحداً من أضخم أفراد القطيع . وحتى عندما تطلع إليه تمطمط الوحش بشكل متعمد على طريقة الكلب الكسول متثائباً ملء فمه وناظراً إليه بعين تملكية كما لو كان ، في الحقيقة ، مجرد وجبة مؤجلة ستؤكل في الحال . إن هذا اليقين قد كشف عنه القطيع بكامله . فقد استطاع الرجل أن يحصي عشرين ذئباً بالتمام والكمال كانوا إما يحدقون إليه بجوع أو ينامون بهدوء على الثلج . لقد ذكروه بأولاد مجتمعين حول مائدة ممدودة ينتظرون الإذن ببدء الطعام . وكان هو الطعام الذي سيأكلونه ! تساءل كيف ومتى ستبدأ الوجبة .

بينما كان يكوّم الحطب على النار اكتشف في نفسه تقديراً لجسمه لم يكن قد شعر به من قبل . كان يراقب عضلاته المتحركة وكان مهتماً

بالآلية البارعة لأصابعه . على ضوء النار صار يطقطق أصابعه ببطء وبشكل متكرر ، تارة يطقطق اصبعاً واحدة وتارة أخرى يطقطق كل أصابعه معاً ، فارداً إياها أو يقوم بحركات قابضة سريعة . كان يتأمل تشكل الأظافر وينخس الأنامل ، تارة بحدة ، وتارة أخرى بلطف ، فيقيس في أثناء ذلك الاحساسات العصبية الناجمة . لقد سحره ذلك ، وأصبح بشكل مفاجىء مولعاً بهذا اللحم الماهر الذي يعمل بهذا الجمال والسلاسة والرهافة . ثم يلقي نظرة خوف إلى دائرة الذئاب المرسومة حوله بشكل مترقب ، ومثل الكلمة سوف يصدمه تحققه من أن هذا الجسم الرائع ، جسمه ، هذا اللحم الحي لم يكن أكثر من قطعة لحم كبيرة للغاية ، إنه الضالة المنشودة لحيوانات ضارية ، سوف تقوم بتمزيقه وشرطه بأنيابها الجائعة ، وسيكون طعاماً لهم مثلما كان الموظ والأرنب في الغالب طعاماً له .

استفاق من غفوة كانت نصف كابوس ليرى الذئبة ذات التدرجات اللونية الحمراء أمامه . لم تكن تبعد أكثر من نصف دزينة من الأقدام ، مقعية على الثلج وهي تتأمله بتوق كئيب . كان الكلبان يئنان ويزمجران عند قدميه لكنه لم يكن يأبه لهما . كانت تنظر إلى الرجل لفترة من الزمن فكان يرد عليها النظر . لم يكن هناك أي شيء يهدد بالخطر حولها . كانت تنظر إليه بتوق كبير فحسب ، لكنه كان يعرف أنه توق جوعٍ كبير بالقدر نفسه . كان هو الطعام .وكان منظره يثير فيهاالأحاسيس التوقية . فانفتح فمها وسال لعابهاوصارت تلحس خديها بلذة التوقع .

اعترته نوبة من الخوف . فالتقط على عجل عوداً مشتعلاً ليقذفها به . ولكن حتى عندما طاله ، وقبل أن تكون أصابعه قد أطبقت على القذيفة وثبت متراجعة بأمان، فعرف أنها معتادة على أن تُقذف بالأشياء. فقد زمجرت وهي تثب مبتعدة، مكشرة عن أنيابها البيضاء حتى جذورها ، وتلاشى كل توقها الكئيب، مستعيضة عنه بحقد لواحمي جعله يرتعد .

نظر إلى اليد التي أمسكت بالعود المشتعل ملاحظاً الرهافة البارعة للأصابع التي قبضت عليه ، كيف أنها قد كيفت نفسها مع كل تضاريس السطح ، وهي تلتف فوق وتحت وحول الخشبة الخشنة ، وكيف أن الأصبع الصغرى ، وكانت قريبة جداً من القسم المحترق من العود، تتلوى بشكل حساس وتلقائي متراجعة عن الحرارة المؤلمة نحو مقبض أبرد ، وفي اللحظة ذاتها بدا أنه يتصور رؤية لنفسها تلك الأصابع الحساسة والمرهفة وهي تُسحق وتُمزق من قبل الأنياب البيضاء للذئبة . لم يسبق له أبداً أن كان مولعاً هكذا بجسده كما كان الآن عندما كانت سيطرته عليه محفوفة بالمخاطر بهذا الشكل .

أمضى الليل بطوله يبعد عن نفسه القطيع الجائع بالمياسم المشتعلة .

عندما كان يغفو رغماً عنه كان يوقظه أنين وزمجرة الكلابين . جاء الصباح ، ولكنه لأول مرة يفشل ضوء النهار في تفريق الذئاب ، فانتظر عبثاً أن تمضي . لقد بقيت متحلقة في دائرة حوله وحول ناره ، كاشفة عن غطرسة تملّك هزت شجاعته المستمدة من ضوء الصباح .

قام بمحاولة يائسة للانسحاب على الدرب . ولكن في اللحظة التي تخلى فيها عن حماية النار ، انقض عليه الذئب الأشرس ، لكن الوثبة

كانت قاصرة . لقد أنقذ نفسه بالوثوب عائداً إلى مكانه ، وأطبق فكا الذئب على بعضهما على بعد ستة إنشات من فخذه . أما بقية أفراد القطيع فكانوا هائجين الآن وصاروا يندفعون إليه ، وصار رمي المياسم ذات اليمين وذات الشمال ضرورياً لدفعهم للتراجع عنه إلى مسافة مقبولة . حتى في ضوء النهار لم يجرؤ على ترك النار لكي يقطع حطباً طازجاً . فعلى بعد عشرين قدماً كانت تتكوم شجرة بيسية كبيرة يابسة . أمضى نصف النهار وهو يمد نار موقده إلى الشجرة . في كل لحظة كان في متناول يده نصف دزينة من الحزم المشتعلة ليقذف بها أعداءه .

ذات مرة كان عند الشجرة يتأمل الغابة المحيطة به لكي يقطع الشجرة في اتجاه معظم الحطب .

كانت الليلة تكراراً لسابقتها سوى أن الحاجة إلى النوم أصبحت طاغية لاتقاوم . كانت زمجرة كلابه تفقد فاعليتها . وعلاوة على ذلك ، فقد كانت تزمجر طوال الوقت ولم تعد حواسه المخدرة والناعسة تلحظ حدوث أي تغير في النبرة والشدة . استيقظ مجفلاً . كانت الذئبة على بعد أقل من ياردة منه . وبشكل آلي ، وعلى مدى قصير دون أن يدعها تذهب ، أقحم ميسماً بكامله في فمها المفتوح والمزمجر . فانتفضت مبتعدة وهي تعوي من الألم وفي حين أنه أحس بالسرور الشديد لرائحة اللحم والشعر المحترقين ، فقد راقبها وهي تهز رأسها وتدمدم غاضبة على بعد عشرين قدماً .

بيد أنه هذه المرة ، وقبل أن يغفو مرة أخرى ، ربط عجرة صنوبر مشتعلة إلى يده اليمنى . كانت عيناه مغلقتين ولكن لدقائق قليلة فقط وذلك

إلى أن أوقظه لسع اللهب على لحمه .. وقد استمر على هذا المنوال لعدة ساعات . في كل مرة كان يوقظ فيها بهذا الشكل كان يرد الذئاب على أعقابها بالمياسم الطيارة ، ويذكي النار ويعيد ترتيب عجرة الصنوبر على يده . كل شيء كان يسير بشكل حسن ، ولكن حدث في إحدى المرات أن ثبت عقدة الصنوبر بشكل غير مأمون . فوقعت عن يده عندما أغمض عينيه . رأى حلماً. تراءى له أنه في قلعة ماك غوري . كان الجو دافئاً ومريحاً وأنه كان يلعب الكريبج مع الوكيل . كذلك فقد ظهر له ، في الحلم ، أن القاعة محاصرة بالذئاب . كانت تعوي على كل البوابات وفي بعض الأحيان يتوقف هو والوكيل عن اللعب ليصغيا ويضحكا على محاولات الذئاب العبثية للدخول . ثم ، كان الحلم غريباً للغاية ، كان صوت حطام . اقد خُلع الباب . فرأى الذئاب تتدفق إلى داخل غرفة المعيشة الكبيرة في القلعة . كانوا يثبون عليه وعلى الوكيل مباشرة . مع انخلاع الباب كان ضجيج عوائهم قد ازداد بشكل هائل . هذا العواء أزعجه الآن . فصار حلمه يتحول إلى شيء آخر — لم يعرف ماهو ، ولكن من خلال ذلك كله وبعده ، استمر العواء .

ثم استيقظ ليجد العواء حقيقة . كان ثمة زمجرة ونباح كبيرين . كانت الذئاب تهجم عليه . كانت كلها حواليه وفوقه . انطبقت أسنان أحدهم على ذراعه . فقفز بشكل غريزي إلى النار . وبينما كان يقفز ، شعر بالجرح الحاد للأسنان التي اخترقت لحم ساقه . ثم بدأت معركة نارية . إن قفازاته المتينة قد حمت يديه مؤقتاً وغرف بعض الجمرات المشتعلة ورماها في الهواء في كل الاتجاهات إلى أن اتخذت نار المخيم شكلاً بركانياً .

وبينما كان يقذف المياسم المشتعلة على أقرب أعدائه أقحم الرجل قفازاته المدخنة في الثلج وصار يدوس بقوة لكي يبرد قدميه . كان كلباه مفقودين وعرف جيداً أنهما قد خدما كلون من الطعام في سلسلة الوجبات المؤجلة التي كانت قد بدأت قبل أيام مع فاتي والتي ربما سيكون هو نفسه الطبق الأخير منها في الأيام المقبلة .

صاح « لم تنالوا مني بعد ! » وهو يهز قبضته بقوة في وجه الوحوش الجائعة ، فاهتاجت دائرة الذئاب بأكملها استجابة لهدير صوته ، فكان هناك زئير عام وانسلت الذئبة قريبة منه عبر الثلج وصارت تراقبه بتوق جائع .

بدأ العمل لتحقيق فكرة جديدة كانت قد وردت إلى ذهنه . وسّع النار إلى دائرة كبيرة . ضمن هذه الدائرة ربض ، ووضع عدة المنامة تحته لوقايته من الثلج الذائب . وعندما اختفى بهذا الشكل داخل ملجأ اللهب ، جاء القطيع بكامله إلى طرف النار ليرى ماحل به . ومن هنا كانوا محرومين من الوصول إلى النار فاستقروا الآن في دائرة متراصة ، مثل كلاب كثيرة العدد ، يفتحون عيونهم ويغمضونها ويتثابون ويمطون أجسامهم النحيلة في الدفء اللامعتاد . ثم أقعت الذئبة وصوّبت أنفها إلى نجم وبدأت تعوي وانضم إليها الذئاب الواحد تلو الآخر إلى أن أصبح أفراد القطيع كلهم واقفين على أقفيتهم وأنوفهم مصوبة إلى السماء يطلقون صرختهم الجائعة .

جاء الفجر وطلع ضوء النهار . كانت النار تضطرم ببطء . كان الوقود قد نفذ ، وكان ثمة حاجة للحصول على المزيد . حاول الرجل أن

يخطو خارج دائرة اللهب ، لكن الذئاب استنفرت للقائه . جعلتهم المياسم المشتعلة يقفزون جانباً ، لكنهم لم يعودوا يرتدون إلى الوراء . جاهد عبثاً لدفعهم عنه . وعندما استسلم وزلت قدمه في داخل دائرته، وثب عليه ذئب فأخطأه ونزل بأقدامه الأربعة في الجمر . صرخ مذعوراً ومزمجراًفي الوقت نفسه،واندفع مجفلاً متراجعاً ليبرد مخالبه في الثلج.

جلس الرجل على بطانياته في وضعية الجثو . انحنى جسمه إلى الأمام من الوركين . أما كتفاه فكانا مسترخيين ومتهدلين ، ورأسه على ركبتيه معلناً أنه قد تخلى عن القتال . ومن حين لآخر كان يرفع رأسه ليلاحظ تخامد النار .

كانت دائرة اللهب والجمر تتحطم متحولة إلى قطاعات ذات فتحات فيما بينها . كانت الفتحات تكبر في الحجم والقطاعات تتضاءل .

« أظن أن بإمكانك أن تأتي وتناني في أي وقت » همهم .

« على كل » ، أنا ذاهب إلى النوم » .

ذات مرة استيقظ ، ومن خلال ثغرة في الدائرة ، شاهد أمامه الذئبة تحملق فيه . استيقظ مرة أخرى ، بعدئذ بقليل ، مع أن هذا الوقت القليل بدا و كأنه ساعات . كان قد حدث تغير غريب – غريب لدرجة أنه استيقظ وقد أصيب بصدمة . إن شيئاً ما قد حدث . لم يستطع أن يستوعب الأمر في البداية . ثم اكتشفه . فالذئاب قد ولّت . ولم يبق سوى الثلج المسحوق بالأقدام يكشف كم كانت الذئاب قريبة منه في حصارها له . كان النعاس يفور ويستولي عليه مرة أخرى . كان رأسه يغوص على ركبتيه ، عندما استفاق بإجفال مفاجىء .

كان ثمة دائرة من الرجال . وتمخض المزلجات ، وصرير العدة، والنشيج المتلهف للكلاب المتوترة .

كانت أربع مزلجات تخرج من سرير النهر إلى المخيم من بين الأشجار . كان نصف دزينة من الرجال يحيطون بالرجل الذي كان جاثماً وسط النار الخامدة . فصاروا يهزونه ويعيدونه إلى الوعي . نظر إليهم مثل رجل سكران وبدأ يهذي بكلام ناعس غريب .

« ذئبة حمراء . . . تدخل مع الكلاب في وقت الإطعام ... أولاً أكلت طعام الكلاب ... ثم أكلت الكلاب... وبعد ذلك أكلت بيل ...»
« أين اللورد ألفرد ؟ » صاح أحد الرجال في أذنه وهو يهزه بخشونة . هز رأسه ببطء « لا ، إنها لم تأكله... إنه يبيت في شجرة في المخيم الأخير » .

« ميت ؟ » صاح الرجل .

« وهو في صندوق » أجاب هنري . كان ينخع بكتفه بشكل مشاكس مبعداً إياه عن قبضة مستجوبة .

« قل ، أنت Lemme لوحدك ، أنا مرهق تماماً ... تصبحون على خير جميعاً » .

رفرفت عيناه وأغمضتا . سقطت ذقنه إلى الأمام على صدره . وحتى عندما مدّدوه على البطانيات كانت شخراته ترتفع في الهواء الصقيعي.
ولكن كان ثمة صوت آخر . كان بعيداً وواهناً ، في البعيد القصي، كانت صرخة قطيع من الذئاب الجائعة كما لو أنها قد اتخذت درب لحم أخرى بدلاً من الإنسان الذي أضاعته .

الفصل الرابع

معركة الأنياب

كانت الذئبة هي أول من التقط أصوات الرجاين وعواء كلاب المزلجة ، وكانت أول من وثب مبتعداً عن الرجل المحصور في دائرة لهبه المتخامد . كان القطيع قد اشمئز من إضاعة فرصة الإمساك بالطريدة التي كان قد حاصرها ، وتريث بضع دقائق ، متأكدا من الأصوات ، ثم وثب أيضاً مبتعداً على الدرب الذي رسمته الذئبة .

كان يركض في مقدمة القطيع ذئب رمادي ضخم – هو أحد قادة القطيع العديدين . فكان هو الذي يوجه مسار القطيع في أعقاب الذئبة . كان هو الذي يزمجر منذراً أفراد القطيع الأصغر سناً أو يكشر لهم عن أنيابه عندما يحاولون بشكل طموح أن يتجاوزوه .وكان هو الذي يزيد الخطو عندما يلمح الذئبة تخب ببطء عبر الثلج . فصارت هي تتمشى بمحاذاته كما لو كان هذا هو موقعها المحدد ، واتخذت ايقاع خطوات القطيع . لم يزمجر بها ، ولا كشر عن أنيابه عندما كانت أية وثبة منها تخاطر بوضعها أمامه . بالمقابل ، فقد بدأ ميالاً إليها بشكل لطيف – بشكل ألطف من أن يليق بها ، لأنه كان نزّاعاً إلى الجري قريباً منها ، وعندما جرى قريباً جداً فإنها هي التي زمجرت وكشرت عن أسنانها.

ولم تتوانى عن شق كتفه بشكل حاد أحياناً .في مثل هذه الحالات لم يكن يبدر عنه أي غضب . فقد كان يكتفي بالقفز جانباً أوالجري بشكل ثابت عدة خطوات بشكل أخرق ، في مشية وسلوك يشبهان مشية وسلوك عاشق ريفي خجول .

كانت هذه هي مشكلته الوحيدة في إدارة القطيع ، ولكنها هي كانت لها مشاكل أخرى . فعلى جانبها الآخر كان يجري ذئب عجوز هزيل، أشيب ومعلّم بندوب المعارك الكثيرة . كان يجري دائماً على جانبها الأيمن .

إن حقيقة أنه لا يمتلك سوى عين واحدة ، وهي العين اليسرى ، هي التي تفسر ذلك . وكان هو ، أيضاً ، مدمناً على دفعها وحرفها عن اتجاهها إلى أن يلامس خطمه المتندّب المتقرح جسمها أو كتفها أو عنقها . أما رفيقة الجري السائرة على يساره ، فقد كانت ترد على هذه التحرشات بأسنانها ، ولكن عندما كان الإثنان يقومان بتحرشاتهما في وقت واحد فقد كانت هي تشق طريقها بخشونة لكونها مجبرة وذلك بعضات سريعة على الجنبين ، لإبعاد العاشقين وفي الوقت نفسه لإبقاء وثبتها إلى الأمام على الإيقاع ولرؤية طريق أقدامها أمامها . في مثل هذه الحالات ، كان رفيقاها الراكضان يكشران عن أنيابهما ، يدمدمان مهددين كلٌّ الأخر . كان من الممكن أن يتعاركا ، ولكن حتى التودد والمنافسة يجب أن يلبيا حاجة الجوع الأكثر إلحاحاً لدى القطيع .

بعد كل صد ، وعندما كان الذئب العجوز ينحرف بغتة بعيداً عن موضوع رغبته ، الذئبة ذات الأسنان الحادة ، فقد كان يصطدم بكتفه

بذئب فتي عمره ثلاث سنوات كان يجري على جهته اليمنى العمياء. هذا الذئب الفتي كان قد بلغ حجمه الكامل ، ونظرا الحالة الضعيفة والجائعة للقطيع ، فقد كان يمتلك ماهو أكثر من القوة وروح الإقدام العاديين . لا داعي للقول أنه كان يجري ورأسه مع كتف رفيقه الأعور الأكبر منه سناً . عندما كان يغامر بالجري جنباً إلى جنب مع الذئب الأعمر منه (وهذا ما كان يحدث نادرا) ، فقد كان يرد بزمجرة وعضة بالكتف مرة أخرى . مع ذلك ، في بعض الأحيان ، كان يتسقّط إلى الوراء بحذر وببطء ويتخذ مكاناً له بين القائد العجوز والذئبة .

كان هذا مثار امتعاض مزدوج ، لا بل حتى مثلث الأطراف . فعندما كانت تزمجر معبرة عن استيائها الخفيف كان القائد العجوز يلتف على الذئب ذي السنوات الثلاثة . في بعض الأحيان كانت تلتف هي معه . وفي أحيان أخرى ، كان القائد الفتي على اليسار يلتف أيضاً .

في مثل هذه الأوقات ، كان الذئب الفتي يتوقف بتهور وقد وجه بثلاث مجموعات من الأنياب الوحشية ، قاذفاً بنفسه إلى الوراء على كفليه ، وساقاه الأماميتان متصلبتان ، وفمه مهدد متوعد وعرفه منتصب الشعر . هذه الفوضى في مقدمة القطيع كانت دائماً تسبب الفوضى في المؤخرة . فقد كانت الذئاب التي في المؤخرة تصطدم بالذئب الفتي وتعبر عن استيائها بعضات حادة على ساقيه الخلفيتين وخاصرتيه . كان يسبب المشاكل لنفسه ، لأن نقص الطعام والغضب السريع كانا يجتمعان معاً ، ولكنه بثقة الشباب التي لا حدود لها كان يواظب على تكرار المناورة في كل لحظة ، مع أن ذلك لم ينجح أبداً في إكسابه أي شيء سوى الخيبة .

لو كان هناك طعام ، لكان الغزل والقتال قد سارا بسرعة ولا نفرط تشكيل القطيع . لكن وضع القطيع كان يائساً . لقد كان ضامراً من الجوع المستديم . كان يسير بأقل من سرعته العادية . في المؤخرة كان يعرج الأفراد الضعفاء والصغار جداً والعجائز . أما في المقدمة فكان الأفراد الأكثر قوة . مع ذلك ، فقد كانوا جميعاً أكثر شبهاً بالهياكل العظمية من الذئاب المكتملة الأجسام . لا داعي للقول أنه باستثناء الذئاب التي تعرج ، فإن حركات الحيوانات كان بدون جهد وبدون تعب . كانت عضلاتهم النحيلة المفتولة تبدو ينابيع للطاقة لا تنضب . فوراء كل تقلص شبه فولاذي لعضلة كان يحدث تقلص فولاذي آخر وآخر بدون نهاية ظاهرياً .

في ذاك اليوم قطعوا أميالاً كثيرة . ساروا أثناء الليل . وطلع عليهم النهار التالي وهم لا يزالون يجرون . كانوا يجرون فوق سطح عالم متجمد وميت . لم يكن يبدو أي أثر للحياة . فكانوا ينتقلون لوحدهم خلال الجمود الهائل . كانوا وحدهم الأحياء ، وكانوا يبحثون عن أشياء حية لكي يلتهموها ويستمروا في العيش .

عبروا مقاطعات منخفضة ومروا بمحاذاة دزينة من السواقي الصغيرة في بلد يقع تحت سطح البحر قبل أن يجدوا ضالتهم المنشودة . عندها وقعوا على موظ . كان ثوراً كبيراً كما وجدوه أولاً . هنا كان اللحم وكانت الحياة . فلم يكن محروساً لا بنيران سحرية ولا بقذائف متطايرة من اللهب . فالحوافر المفلطحة والقرون المتشعبة المنفرجة مثل أصابع اليد كانوا يعرفونها ، وقد تخلوا عن صبرهم وحيطتهم المعتادين

للريح . كان صراعاً وجيزاً وضارياً . هوجم الثور الكبير من كل جانب . فكان يشقهم أو يشق جماجمهم برفسات موجهة بعنف من حوافره الكبيرة . سحقهم وكسرهم بقرونه الضخمة . أغرقهم بأرجله في الثلج تحته في خضم الصراع المتخبط . لكنه كان مقدراً له أن ينهزم فسقط مع الذئبة التي اقتلعت حنجرته بضراوة وأسنان الذئاب الأخرى مغروزة في كل مكان منه ، تلتهمه حياً حتى قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة أو حتى قبل أن يتلقى آخر ضربة قاضية .

كان ثمة طعام وفير فقد كان الثور يزن أكثر من ثمانمائة باونداً أي عشرين باونداً من اللحم لكل فم للأربعين ذئباً ونيف من القطيع . ولكن إذاً كانوا قد استطاعوا أن يصوموا بشكل استثنائي فقد استطاعوا أن يتغذوا بشكل استثنائي ، وسرعان ما كانت بعض العظام القليلة المبعثرة هي كل ما تبقى من البهيمة الحية الفخمة التي واجهت القطيع قبل ذلك بساعات . .

وكان الآن ثمة الكثير من الراحة والنوم . فمع امتلاء البطون بدأ التشاحن والشجار بين الذكور الصغار واستمر ذلك خلال الأيام القليلة التي مرت قبيل انفراط القطيع . لقد انتهت المجاعة . كانت الذئاب الآن في بلد اللعب ، ومع أنهم كانوا لا يزالون يصطادون على شكل قطيع فقد كانوا يصطادون بمزيد من الحيطة ، فيقومون بعزل البقرات الثقيلة البطيئة أو الثيران الهرمة المقصرة عن قطعان الموظ الصغيرة التي يمرون بها.

جاء يوم ، في بلاد الوفرة هذه ، عندما انقسم قطيع الذئاب إلى نصفين ومضى في اتجاهين مختلفين . فقامت الذئبة مع القائد الفتي على

ميمنتها والذئب الأعور الأكبر سناً على ميسرتها بقيادة نصف القطيع إلى نهر ماكنزي عابرين إلى بلاد البحيرات إلى الشرق . في كل يوم كانت هذه البقية الباقية من القطيع تتضاءل . فقد كانت الذئاب تهجر القطيع مثنى مثنى . ذكراً وأنثى . ومن حين لآخر كان يُطرد ذكر منفرد بالأسنان الحادة لمنافسيه . في النهاية لم يبق من القطيع سوى أربعة : الذئبة والقائد الفتي والذئب الأعور والذئب الطموح ذي السنوات الثلاثة من العمر . كانت الذئبة في هذا الوقت قد أظهرت مزاجاً ضارياً . فقد كان طالبوا ودها الثلاثة كلهم يحملون علامات أسنانها . مع أنهم لم يردوا بلطف فانهم لم يدافعوا عن أنفسهم ضدها . كانوا يديرون أكتافهم لضرباتها الأكثر وحشية وبأذيال مهتزة وخطوات متبخترة كانوا يجاهدون لاسترضائها . ولكن لو كانوا في منتهى اللطف تجاهها فقد كانوا في قمة الشراسة إزاء بعضهم البعض . إن الذئب الصغير ذا الثلاث سنوات قد صار طموحاً أكثر مما ينبغي في شراسته . فأمسك الذئب الأعور من جهته العمياء ومزق أذنه مزقاً طولانية . بالرغم من أن زميله العجوز المنقط باللون الرمادي لم يكن بمقدوره أن يرى إلا على جانب واحد فإنه ، أمام شباب وعنفوان الذئب الآخر ، قد استحضر إلى اللعب حكمة سنوات طويلة من الخبرة . إن عينه المفقودة وخطمه المتندب المتقرح كانا يحملان الدليل على طبيعة خبرته . لقد سبق له أن نجا من معارك كثيرة بحيث أنه لم يكن هناك أمامه مجال للشك للحظة واحدة حول ما يجب عليه فعله .

بدأت المعركة باعتدال لكنها لم تنته باعتدال . لم يكن من الممكن توقع النتيجة لأن الذئب الثالث انضم إلى الذئب الأكبر وقاما كلاهما ،

أي القائد العجوز والقائد الفتي بمهاجمة الذئب الطموح ذا الثلاث سنوات وبادروا إلى تحطيمه . فحوصر من الجانبين بالأنياب عديمة الرحمة لمن كانا رفيقيه منذ برهة . لقد نُسيت الأيام التي اصطادوا فيها معاً والطرائد التي قهروها والمجاعة التي عانوا منها . هذا الشأن كان شيئاً من الماضي . أما شأن الحب فكان في المتناول – كان شأناً أكثر قسوة وصرامة من الحصول على الطعام .

وفي هذه الأثناء ، جلست الذئبة ، سبب ذلك كله ، بشكل قانع على كفلها وصارت تراقب . حتى أنها كانت مسرورة . كان يومها – وهو غالباً مالا يأتي – عندما تنتصب الأعراف ويلتقي الناب بالناب أو يشق ويمزق اللحم اللدن المطواع ، وكل ذلك من أجل امتلاكها .

لقد تخلى ذو السنوات الثلاثة عن حياته في شأن الحب وهو الذي قام بمغامرته الأولى فيه . على كل جانب من جسده كان يقف غريماه كانا يحدقان في الذئبة التي كانت جالسة تبتسم على الثلج . لكن القائد الأكبر كان حكيماً ، حكيماً جداً ، في الحب كما في القتال .

أدار القائد الأصغر رأسه ليلعق جرحاً في كتفه . كان انحناء عنقه مفتولاً باتجاه منافسه . فانتهز القائد الأكبر الفرصة بعينه الوحيدة وانقض عليه من الأسفل وأطبق أنيابه عليه. فسدّد له ضربة جارحة طويلة وعميقة أيضاً . فمزقت أسنانه في مسارها جدار الوريد الكبير للحنجرة . ثم قفز بعيداً .

زمجر القائد الأصغر بشكل رهيب ، لكن زمجرته تلاشت لتتحول إلى سعال ينم عن شعور بالألم . وبينما كان ينزف ويسعل وكان مضرّجاً

تماماً وثب على الذئب الأكبر وصارعه فيما كانت الحياة تتلاشى منه ، وساقاه تضعفان تحته ، ونور النهار يكمد في عينيه ، فتصير ضرباته ووثباته أقصر فأقصر .

في أثناء ذلك كله كانت الذئبة تجلس على كفلها وتبتسم . لقد سُعدت بطرق غامضة بالمعركة ، لأن ذلك هو غزل البرية ، وتراجيديا الجنس للعالم الطبيعي لم تكن تراجيديا إلا للذين يموتون . أما بالنسبة لأولئك الذين ينجون فإنها ليست تراجيديا بل تحققاً وإنجازاً .

عندما استلقى القائد الأصغر ولم يأتِ بحركة مشى الأعور بتشامخ نحو الذئبة . وكان هاجسه هو خليط من النصر والحيطة والحذر مجتمعين . كان من الواضح أنه يتوقع الصد منها ، ولكنه فوجيء تماماً عندما لم تفتر أسنانها عن تكشيرة غضب . للمرة الأولى تقابله بطريقة ودية . فتبادلت وإياه شمشمة الأنوف ، لابل أنها حتى تنازلت إلى القفز حواليه والرقص مرحاً واللعب معه باسلوب جروي تام . أما هو ، فقد تنازل عن سنواته الرمادية وخبرته الحكيمة وتصرف بأسلوب جروي تماماً وحتى أكثر حماقة من ذلك بقليل .

لقد نُسي تماماً الغرماء المهزومون وأعيدت كتابة قصة الحب على الثلج . تم نسيان ذلك ، باستثناء مرة واحدة ، عندما توقف الأعور العجوز للحظة ليلعق جراحه المتيبسة . عندها حدث أن كانت شفتاه قد التويتا نصف التواءة متحولة إلى زمجرة ، وانتصب شعر عنقه وكتفيه بشكل لا إرادي في حين أنه أقعى نصف إقعاءة استعداداً للوثوب . فيما كانت مخالبه تنشب بشكل تشنجي في سطح الثلج من أجل موطىء

قدم أكثر ثباتاً . لكن ذلك كله نسي في اللحظة التالية عندما قفز في أثر الذئبة التي كانت تقوده بخفر في مطاردة خلال الغابة .

بعد ذلك جريا جنب إلى جنب ، مثل صديقين حميمين متفاهمين . مرت الأيام ، وبقيا معاً ، يصطادان طرائدهما ويقتلانها ويأكلانها بشكل مشترك . بعد فترة من الزمن بدأت الذئبة تصبح قلقة، فقد بدا أنها تبحث عن شيء ما لا تستطيع ايجاده . فالتجاويف تحت الأشجار الساقطة بدا أنها تجتذبها ، وكانت تمضي كثيراً من الوقت بين الشقوق الكبيرة المترعة بالثلج في الصخور وفي الكهوف ذات الحواف المتدلية. لم يكن الأعور العجوز مهتماً إطلاقاً ، لكنه كان يتبعها بشكل بهيج في التماسها للطرائد ، وعندما كانت استقصاءاتها في أماكن خاصة يطول أمدها بشكل غير عادي كان يستلقي وينتظر إلى أن تكون جاهزة للمتابعة .

لم يمكثا في مكان واحد ، بل كانا يرتحلان عبر البلاد إلى أن وصلا نهر ماكنزي الذي نزلا إليه ببطء ، فكانا يتركانه في أغلب الأحيان لاصطياد طريدة على امتداد السواقي الصغيرة التي كانت ترفده ، ولكنهما غالباً ما كانا يعودان إليه مرة ثانية .في بعض الأحيان كانا يصادفان ذئاباً أخرى ، على شكل أزواج عادة ، ولكن دون أن تظهر حرارة التواصل لدى الطرفين ، ولا السعادة باللقاء ، ولا الرغبة في العودة إلى التشكيل القطيعي . التقيا عدة مرات بذئاب وحيدة تائهة . وكان هؤلاء دائماً من الذكور ، وكانوا يلحون بشكل ضاغط على الانضمام إلى الأعور ورفيقته . وهذا ما كان يثير إستياءه ، وعندما

كانت تقف هي معه كتفاً إلى كتف منتصبة العرف مكشرة عن أنيابها فقد كان الذئاب المنفردون الطامعون يتراجعون يجرون أذيال الخيبة ويتابعون طريقهم الوحداني المقفر .

ذات ليلة مقمرة كانا يجريان خلال الغابة الهادئة فتوقف الأعور فجأة . شمخ خطمه وتيبّس ذيله واتسع منخراه بينما كان يتشمم الهواء . ورفع أيضاً قدماً واحدة على طريقة الكلاب . لم يكتف بذلك ، فاستمر يشم الهواء جاهداً لفهم الرسالة المحمولة إليه عبره. كانت نشقة واحدة لامبالية قد أرضتْ رفيقته فصارت تخب لكي تطمئنه، ومع أنه قد تبعها ، إلا أنه كان لايزال مرتاباً ولكنه لم يكن بمقدوره أن يمتنع عن التوقف من حين لآخر لكي يدرس الأنذار بعناية أكبر . زحفت باحتراس على طرف فراغ مفتوح كبير وسط الأشجار . لبعض الوقت كانت تقف لوحدها . ثم انضم إليها الأعور وهو يزحف ويدب وكل حواسه في حالة تيقظ وكل شعرة منه تشع بارتياب لاحدود له . وقفا جنباً إلى جنب يراقبان ويصغيان ويشمان .

وردت إلى مسامعهما أصوات كلاب تتعارك وتتشاحن وصيحات رجال بلعومية وأصوات أكثر حدة لنساء سليطات اللسان ، وسمعا لمرة واحدة صرخة عالية النبرة حزينة صادرة عن طفل . باستثناء الكتل الضخمة من الأكواخ الجلدية فقد كان ثمة القليل مما يمكن رؤيته باستثناء ألسنة النار التي تقطعها حركات الأجسام المتداخلة والدخان المتصاعد ببطء في الهواء الساكن . بيد أنه تناهى إلى مناخيرهما عدد من الروائح الصادرة عن مخيم هندي تحمل قصة مستعصية على الفهم إلى حد كبير بالنسبة للأعور ، ولكن الذئبة كانت تعرف كل تفاصيلها .

كانت مهتاجة بشكل غريب ، فصارت تتنشق وتشمشم بفرح متزايد . لكن الأعور العجوز كان شكوكاً . فقد كشف عن خوفه من شيء مرتقب وبدأ يسير متردداً . فاستدارت ولامست عنقه بخطمها بطريقة مطمئنة وعاينت المخيم مرة أخرى . كان في وجهها توق كئيب جديد ، لكنه لم يكن توق الجوع . كانت ترتعش لرغبة كانت تستحثها على التقدم وعلى الاقتراب من تلك النار والتنازع مع الكلاب وتفادي ومراوغة أقدام البشر الساحقة .

كان الأعور يتحرك بجانبها فاقد الصبر ، فارتد قلقها عليه ، وعرفت مرة أخرى حاجتها الملحة إلى ايجاد الشيء الذي كانت تبحث عنه . استدارت وصارت تخب عائدة إلى الغابة، إلى الملاذ الكبير للأعور الذي خب قليلاً إلى المقدمة إلى أن أصبحا تحت حماية الأشجار تماماً .

بينما كانا ينسلان بدون ضجيج كالأشباح في ضوء القمر وقعا على مسلك للحيوانات . فانحنى الأنفان إلى الأرض يتشممان آثار الأقدام في الثلج . كانت هذه الآثار القدمية طرية جداً . فانطلق الأعور بحذر وانطلقت رفيقته في أثره . كانت ابدات أقدامهما العريضة متباعدة وكانت مثل المخمل في تماسها مع الثلج . أبصر الأعور حركة مبهمة لشيء أبيض وسط البياض . كانت مشيته المنسلة سريعة بشكل مضلل ، لكنها لم تكن شيئاً بالمقارنة مع السرعة التي كان يجري بها الآن . فأمامه كانت تثب بقعة البياض الباهتة التي اكتشفها .

كانا يجريان على امتداد مجاز ضيق محاط من الجانبين بنمو من البيسية الفتية . ومن خلال الأشجار كان من الممكن رؤية مدخل المجاز

الذي ينفتح على فرجة مضاءة بضوء القمر . كان الأعور العجوز يطارد بسرعة ذاك الشكل الهارب ذي اللون الأبيض . فكان يزداد قرباً منه الوثبة تلو الوثبة . وهاهو الآن قد أدركه . وثبة أخرى وتكون أسنانه منغرزة فيه . لكن تلك الوثبة لم تتم . ففي الأعلى ، في الجو ، وعلى استقامة واحدة كان يحلق شكل أبيض ، إنه الآن أرنب يصطدم بالقبقاب الثلجي . كان يقفز وينط ، يقوم برقصة غريبة فوقه في الجو ولم يعد مرة واحدة إلى الأرض .

قفز الأعور راجعاً بشخرة من الخوف المفاجئ . ثم انكمش نزولاً إلى الثلج وأقعى مزمجراً بتهديد لهذا الشيء المخيف الذي لم يفهمه. لكن الذئبة مرت بقربه ببرود . احتفظت برباطة جأشها للحظة ثم وثبت على الأرنب الراقص . فحلقت هي ، أيضاً ،في الجو،ولكن ليس بنفس ارتفاع الطريدة وانطبقت أنيابها على بعضها بطقطقة معدنية . ثم قامت بقفزة أخرى فأخرى .

كان رفيقها قد استرخى ببطء من جثومه وصار يراقبها . وقد أظهر الآن امتعاضه من إخفاقاتها المتكررة فقام هو نفسه بقفزة هائلة نحو الأعلى . أطبقت أنيابه على الأرنب وحملها معه إلى الأرض . ولكن في الوقت نفسه كان ثمة حركة طقطقة مثيرة للريبة بقربه ، فشاهدت عيناه المذهولتان شجيرة بيسية فتية تميل فوقه لتضربه . أفلت فكاه قبضتهما وقفز متراجعاً لينجو من هذا الخطر الغريب ، وشفتاه تفتران عن أنيابه ، وحلقه يزمجر وكل شعرة منه تنتصب من الغضب والخوف. وفي تلك اللحظة شبت الشجيرة منتصبة بطولها النحيل وحلق الأرنب وهو يرقص في الهواء مرة أخرى .

كانت الذئبة غاضبة . غرزت أنيابها في كتف رفيقها تأنيباً له فتراجع غاضباً مذعوراً وغير مدرك ما الذي برر هذا الانقضاض الجديد وهو ينهش جانباً من خطم الذئبة . أما هي فلم تكن تتوقع منه بالقدر نفسه أن يغتاظ من هذا التأنيب . فوثبت عليه بسخط مزمجر . ثم اكتشف خطأه وحاول استرضاءها لكنها سارعت إلى معاقبته بقسوة، إلى أن كف عن كل محاولات الاسترضاء . وفتل في دائرة ، مبعداً رأسه عنها ، وكتفاه يتلقيان عقوبة أنيابها .

في هذه الأثناء كان الأرنب يرقص فوقهما في الجو . جلست الذئبة على الثلج ، أما الأعور العجوز ، وقد صار خوفه الآن من رفيقته أكثر من خوفه من الشجيرة الغامضة ، فقد انقض مرة أخرى على الأرنب . وبينما كان يهبط بها بأسنانه مرة أخرى ، أبقى نظره على الشجيرة . وكما حدث من قبل ، تبعته الشجيرة عائدة إلى الأرض . فجثم تحت الضربة الوشيكة ، وشعره منتصب ، وأسنانه لاتزال قابضة على الأرنب. لكن الضربة لم تقع . فقد بقيت الشجيرة ماثلة فوقه . عندما تحرك تحركت ودمدم لها من خلال فكيه المطبقين ، وعندما ظل ساكناً ظلت ساكنة فاستنتج أن الأكثر أماناً هو أن يستمر في البقاء ساكناً .

مع ذلك ،فقد كان الدم الحار للأرنب يعطي طعماً لذيذاً في فمه .

إن رفيقته هي التي خلصته من المأزق الذي وجد نفسه فيه.أخذت منه الأرنب.وبينما كانت الشجيرة تترنح وتتمايل بشكل مهدّد فوقها قامت بقضم رأس الأرنب بهدوء . وفي الحال ، انطرحت الشجيرة بقوة ، وبعد ذلك لم تسبب أية مشكلة ، مع بقائها في الوضعية اللائقة والعمودية

التي قصدت الطبيعة أن تجعلها تنمو بها . ثم ، ثم تقاسمت الذئبة والأعور التهام الطريدة التي كانت الشجيرة الغريبة قد أمسكتها من أجلهما . كان ثمة مسارب وممرات حيث كانت الأرانب معلقة في الهواء ، وقد طرقها زوج الذئاب كلها ، حيث كانت الذئبة هي المرشدة ، تستكشف الطريق فيما كان الأعور العجوز يتابع ويراقب ، يتعلم طرق نهب الفخاخ – وهي المعرفة التي كان مقدراً لها أن تقدم له فائدة كبيرة في الأيام المقبلة .

الفصل الخامس

العريـــــن

لمدة يومين ظل الأعور العجوز والذئبة يتسكعان حول المخيم الهندي. كان قلقاً ومتوجساً مع أن المخيم كان مغرياً لرفيقته وكانت هي تعاف الفراق . ولكن ، ذات صباح ، عندما مزق الهواءَ دوي بارودة قريب جداً ، وهشمت رصاصةٌ جذع شجرة على بعد بضعة إنشات من رأس الأعور لم يترددا لحظة واحدة، بل انطلقا بقفزة طويلة وضعتهما على بعد أميال من الخطر .

لم يذهبا بعيداً — رحلة يومين . إن حاجة الذئبة لايجاد الشيء الذي كانت تبحث عنه قد أصبحت الآن حاجة ملحة . أصبحت ثقيلة الحركة ، فلم يعد بمقدورها أن تجري إلا ببطء . وذات مرة ، وكانت تطارد أرنباً ، كانت على وشك أن تمسك به بسهولة عادية إلا أنها تخلت عنه واستلقت واستراحت . جاء إليها الأعور ، ولكن عندما لامس عنقها بلطف بخطمه انقضت عليه بشراسة مباغتة بحيث أنه تشقلب متراجعاً ورسم شكلاً مضحكاً في محاولته للهرب من أسنانها . كان مزاجها الآن أكثر فظاظة مما كان في أي وقت مضى ، ولكنه كان قد أصبح أكثر صبراً وأكثر جزعاً من ذي قبل . ثم وجدت الشيء الذي كانت تبحث

عنه . فعلى بعد أميال قليلة كان ثمة ساقية صغيرة تصب في أوقات الصيف في نهر ماكنزي ، ولكنها بعدئذ تتجمد من الأعلى إلى الأسفل حتى قاعها الصخري – فتصبح ساقية ميتة من البياض الصلب ، من المنبع إلى المصب . كانت الذئبة تخب على امتدادها متعبة وكان رفيقها يتقدمها تماماً عندما صادفت الضفة الصلصالية المتدلية . تنحّت جانباً وخبّت صاعدة إليها . كان حتّ وبلى العواصف الربيعية والثلوج الذائبة قد جرفا الضفة وفي مكان واحد أحدثا كهفاً صغيراً ذا فرجة ضيقة . توقفت عند مدخل الكهف وأطلّت من فوق الجدار بحذر . ثم ، صارت تجري من طرف إلى آخر على طول قاعدة الجدار إلى حيث برزت كتلة شديدة الانحدار من المشهد ذي الخطوط الأكثر تدرجاً في الارتفاع .

عند العودة إلى الكهف ولجت مدخله الضيق . كانت مجبرة على الجثو لمسافة قصيرة لاتتجاوز ستة أقدام ، ثم اتسعت الجدران وصارت تزداد ارتفاعاً في حيزّ مستدير صغير يبلغ قطره حوالي ستة أقدام . كاد السقف أن يمسح رأسها . كان جافاً ومريحاً . تفحصته باهتمام مجتهد ، في حين أن الأعور ، الذي كان قد عاد . وقف في المدخل وصار يراقبها. أخفضت رأسها وأنفها متجهةً إلى الأرض نحو نقطة قرب أقدامها المضمومة بشكل ملتصق ، وحول هذه النقطة دارت عدة مرات ثم ، وباشارة متعبة كانت تشبه النخرة ، كورت جسمها وأرْختْ أرجلها وانخفضت ورأسها متجه نحو المدخل .

أما الأعور فقد ضحك عليها بأذنين مشرئبتين منتبهتين ، وفي الخلف في إطار الكهف مقابل الضوء الأبيض ، استطاعت أن ترى فرشاة ذيله تلوح بابتهاج . إن أذنيها قد اتجها بطرفيهما الحادين نحو الوراء والأسفل

مقابل الرأس للحظة ، في حين انفتح فمها وصار لسانها يتدلى إلى الخارج بشكل مسالم وبهذه الطريقة كانت تعبر عن سرورها ورضاها .

كان الأعور جائعاً . مع أنه استلقى في المدخل ونام فقد كان نومه متقطعاً . لقد بقي مستيقظاً رافعاً أذنيه لعالم الساطع في الخارج ، حيث كانت شمس نيسان تلمع عبر الثلج . وعندما كان يغفو كان يسترق بأذنيه الهمسات الخافتة للقرقرات الخفية للماء الجاري ، ثم يستيقظ ويصغي بتركيز . كانت الشمس قد عادت ، وكانت كل بلاد الشمال المستيقظة تناديه . كانت الحياة تمور . كان الشعور بالربيع في الهواء والشعور بالحياة المتنامية تحت الثلج والشعور بصعود النسغ في الأشجار وبالبراعم تفجر أغلال الصقيع .

ألقى على رفيقته نظرات قلقة ، لكنها لم تبدِ أية رغبة في النهوض. نظر إلى الخارج . فكانت نصف دزينة من عصافير الثلج ترفرف عبر مجال الرؤية . بدأ بالنهوض ، ثم تطلع إلى الوراء ، إلى رفيقته مرة أخرى واستلقى وغفا . تناهى إلى سمعه صوت غناء حاد ودقيق . مرة، صار يحك أنفه بمخلبه بتناعس . ثم استفاق . فقد كان ثمة بعوضة وحيدة تئز في الهواء عند رأس أنفه . كانت بعوضة مكتملة النمو قد قبعت متجمدة في زند قرمة يابسة طيلة الشتاء وقد ذابت الآن بفعل الشمس. لم يعد بمقدوره أن يقاوم نداء العالم أكثر من ذلك . هذا بالإضافة إلى كونه جائعاً .

دب نحو رفيقته وحاول إقناعها بالنهوض . لكنها اكتفت بالزمجرة فسار نحو الخارج لوحده ، إلى ضوء الشمس الساطع ليجد سطح الثلج

ليناً تحت قدمه وليجد الترحال صعباً . صعد إلى السرير المتجمد للساقية، حيث الثلج تظلله الأشجار ولا يزال قاسياً وبلورياً . أمضى ثمان ساعات، فعاد تحت جنح الظلام أكثر جوعاً مما كان عندما بدأ المسير . كان قد وجد طريدة لكنه لم يمسك بها . لقد شق طريقه خلال قشرة الثلج الذائبة وتعثر ، في حين كان الأرنب ذو الخف الثلجي قد مر بخفة وبسرعة على رؤوس أقدامه كما كان من قبل.توقف عند مدخل الكهف بصدمة مفاجئة من الارتياب . كانت تأتي من الداخل أصوات غريبة خافتة . كانت أصواتاً ليست من نتاج رفيقته مع أنها كانت مألوفة إلى حد بعيد . انبطح على بطنه بحذر في الداخل فقوبل بزمجرة محذرة من الذئبة . استقبل ذلك بدون قلق مع أنه امتثل له بالبقاء على مسافة ، لكنه ظل مهتماً بالأصوات الأخرى – النشجات والنشمات الخافتة والمكتومة .

أنذرته رفيقته بأن يبقى بعيداً . فتكوّر بشكل نزق ونام في المدخل . عندما جاء الصباح وساد العرين نور باهت ، عاود السعي نحو مصدر الأصوات المألوفة عن بعد . كان ثمة نغمة جديدة في زمجرة رفيقته المحذرة . كانت نغمة غيورة وكان هو حريصاً جداً على البقاء ضمن مسافة مقبولة . لا داعي للقول أنه قد اكتشف خمس باقات صغيرة غريبة من الحياة تلتجيء بين أرجلها وعلى امتداد جسدها ، ضعيفة جداً، عديمة الحيلة جداً، تصدر أصوات أنين ضعيفة جداً ذات عيون لاتنفتح للضوء . فوجىء. لم تكن هذه هي المرة الأولى في حياته الطويلة والناجحة التي يحدث فيها هذا الشيء . لقد حدث مرات عديدة ،مع أنه في كل مرة كان مفاجأة جديدة بالنسبة له كما كان من قبل .

نظرت رفيقته إليه بقلق . في كل لحظة كانت تطلق دمدمة خفيضة، وفي بعض الأحيان عندما كان يبدو لها أنه اقترب أكثر مما ينبغي كانت تتصاعد الدمدمة في حلقها متحولة إلى زمجرة حادة . فحسب خبرتها الخاصة لم تكن لديها ذاكرة للشيء الذي يحدث ، ولكنها في غريزتها التي هي خبرة كل أمهات الذئاب كانت تكمن ذاكرة الآباء اللذين أكلوا أولادهم المولودين حديثاً وذريتهم العاجزة . وقد عبرت هذه الذاكرة عن نفسها على شكل خوف قوي في داخلها،وهو ماجعلها تمنع الأعور من معاينة الجراء الذين ، كان هو أبوهم ، عن كثب. لكن لم يكن ثمة خطر ، فقد كان الأعور العجوز يشعر بدافع النزوة، الذي كان بدوره غريزة انحدرت إليه من كل أباء الذئاب . هو لم يسأل عنه ، ولا فكرّ فيه عميقاً . فقد كان موجوداً في ليف كينونته ، وكان الشيء الأكثر طبيعية في العالم الذي كان عليه الأمتثال له بأن يدير ظهره لذريته المولودة حديثاً وأن يخب خارجاً وبعيداً على درب اللحم الذي كان يعتاش عليه . على بعد خمسة أو ستة أميال من العرين كانت تتفرع الساقية فتجري فروعها بين الجبال براوية قائمة . هنا ، وقد اتخذ الفرع الأيسر ، وقع على آثار أقدام طرية . تشممه فوجده طرياً جداً . أقعى بسرعة ونظر في الاتجاه الذي تلاشى فيه .

ثم استدار بشكل متعمد واتخذ الفرع الأيمن . كان أثر القدم أكبر بكثير من الأثر الذي تصنعه أقدامه وعرف أنه في أعقاب هذا الدرب ثمة قليل من اللحم من أجله .

عند أن قطع نصف ميل في الفرع الأيمن ، التقطت أذناه المرهفتان

صوت أسنان قارضة . فتابع خلسة مصدر الصوت فوجد شيهماً * يقف منتصباً أمام شجرة ويجرب اسنانه في اللحاء . اقترب الأعور بحذر ولكن بيأس . كان يعرف هذا الصنف مع أنه لم يلتق به في الشمال من قبل حتى حينه ، ولا حدث له في حياته الطويلة أن كان الشيهم وجبة له . لكنه تعلم منذ زمن طويل أن هناك شيء ما مثل الحظ أو الفرصة ، واستمر في الإقتراب . لم يكن هناك مايوحي له بما يمكن أن يحدث ، فمع الأشياء الحية تقع الأحداث دائماً بشكل مختلف إلى حد ما .

التف الشيهم على نفسه متحولاً إلى كرة مطلقاً إبراً طويلة حادة في كل الاتجاهات يتحدى بها الهجوم . كان الأعور ، ذات مرة ، قد تشمم من مسافة قريبة جداً كرة من الأشواك القنفذية عاطلة عن الحركة ظاهرياً ، فتلقى بشكل مفاجىء نفضة ذيلية في وجهه . وعلقت إحدى الأشواك في خطمه حيث بقيت هناك لمدة أسبوعين مثل لهب مشتعل إلى أن خرجت أخيراً . لذا فقد استلقى في وضعية إقعاء مريحة وأنفه على بعد قدم بالكمال والتمام خارج خط الذيل . وهكذا انتظر ، محتفظاً بهدوء تام . لم يكن ثمة ما ينذر بشيء . من الممكن أن يحدث شيء . قد يحل الشيهم تكوّره . قد تكون هناك فرصة من أجل ضربة مخلب رشيقة وجارحة إلى داخل البطن اللين وغير المحمي .

ولكنه بعد ساعة ونصف نهض ودمدم غاضباً من الكرة التي لا حراك بها .

ثم تابع طريقه وهو يخب . كان في أغلب الأحيان ، في الماضي، ينتظر الشياهم عبثاً لكي تحل تكوّرها ، لذلك لم يكن مستعداً لإضاعة

* الشيهم أو النيص (حيوان شائك من القوارض) . (المترجم)

المزيد من الوقت . تابع طريقه صعوداً في الفرع الأيمن من الساقية . أمضى النهار بطوله ولم يجن شيئاً من تطوافه .

كان دافع غريزة الأبوة المستيقظ لديه قوياً عليه . ويجب عليه أن يجد لحماً . في فترة ما بعد الظهر عثر بالمصادفة على ترمجان* . خرج من دغلة فوجد نفسه وجهاً لوجه أمام الطير الغبي . كان جالساً على قرمة لايبعد أكثر من قدم واحدة عن طرف أنفه . رأى كل منهما الآخر. قام الطير بقفزة مجفلة ، لكنه أمسك به بمخلبه وطرحه أرضاً ، ثم انقض عليه ، وأمسكه بأسنانه بينما كان يتخبط عبر الثلج محاولاً الصعود في الهواء مرة أخرى . وبينما كانت أسنانه تنغرز في اللحم الطري والعظام الهشة بدأ يأكل بشكل طبيعي .

ثم تذكر ، وهو يلتفت ليعود من حيث أتى ، فاتجه نحو البيت يحمل الترمجان في فمه . على بعد ميل من التفرعات وكان يجري بخفة كعادته ، ظلاً مارقاً يستطلع بحذر كل مشهد جديد من مشاهد الدرب وقع بالصدفة على آثار مميزة لخطوات كبيرة كان قد اكتشفها في الصباح الباكر . ولما كان مسار الأقدام يمضي في هذا الاتجاه ، فقد تبعه وهو مستعد للقاء صاحبه عند كل منعطف من الساقية .

انسل مطلاً برأسه حول زاوية صخرة حيث كانت بداية انعطاف كبير بشكل غير عادي في الساقية وقد اكتشفت عيناه الحادتان شيئاً ماجعله يسارع إلى الإقعاء. كان هو صاحب أثر الأقدام ، كانت وشقة* كبيرة .

---

* الترمجان: طائر من رتبة الدجاج يعيش في الأصقاع الشمالية . (المترجم)
* الوشق : حيوان من فصيلة السنوريات أصغر من النمر . (المترجم)

كانت مقعية مثلما أقعى هو ذات مرة في ذاك اليوم وأمامها كرة الأشواك المحكمة الالتفاف . فاذا كان قبل ذلك ظلاً منسلاً فقد أصبح الآن شبحاً لهذا الظل ، عندما زحف والتف ، وصل تماماً إلى الجهة المحمية من الريح من ذاك الزوج الصامت الساكن .

استلقى على الثلج واضعاً الترمجان بقربه ، وبعينين تحدقان عبر الأوراق الإبرية لشجرة بيسية قليلة الارتفاع كان يراقب مسرحية الحياة — أمامه — الوشق المنتظر والشيهم المنتظر ، كل واحد منهما مصمم على الحياة ، ذاك كان الجانب المثير للفضول من اللعبة : إن اسلوب حياة الواحد يكمن في أن يأكل الآخر ، واسلوب حياة الآخر يكمن في أن لا يؤكل . في هذه الأثناء كان الذئب الأعور العجوز رابضاً في الخفاء يقوم بلورد أيضاً في اللعبة بانتظار فلتة حظ غريبة قد تساعده على درب اللحم الذي كان أسلوب حياته .

انقضت نصف ساعة ، فساعة . ولم يحدث شيء . إن كرة الأشواك ربما كانت حجراً لا يتحرك وربما تجمد الوشق فصار رخاماً ومات الأعور العجوز

مع ذلك فقد كانت جميع الحيوانات الثلاثة مقرونة على توتر العيش شبه المؤلم ونادراً ما حصل لهم أن كانوا أكثر نبضاً بالحياة مما كانوا في تحجرهم الظاهر .

تحرك الأعور قليلاً وحدق إلى الأمام بتوق زائد . كان شيء مايحدث . فقد قرر الشيهم أخيراً أن عدوه قد ولى . فصار يحل كرة درعه المنيعة

ببطء وبحذر . لقد شجعه عدم وجود أي رعشة خوف من حدوث شيء متوقع .

إن الأعور ، الذي كان يراقب ، شعر بنداوة مفاجئة في فمه وبسيلان اللعاب اللا إرادي المستثار بفعل اللحم الحي الذي كان ينفرش أمامه مثل الوليمة .

لم يكن الشيهم قد حل نفسه بشكل كامل عندما اكتشف عدوه . في تلك اللحظة ضرب الوشق ضربته . كانت الضربة مثل ومضة النور . فالكف ذو البراثن القاسية المقوسة مثل المخالب قد أصاب تحت البطن اللين وعاد بحركة مازقة سريعة . فلو كان الشيهم منحلاً بشكل كامل أو لو لم يكتشف عدوه قبل الضربة بجزء من الثانية لكان الكف قد هرب سالماً دون أذى . لكن الضربة الجانبية للذيل غرزت فيه أشواكاً حادة بينما كان ينسحب .

حدث كل شيء دفعة واحدة — الضربة ، الضربة المعاكسة ، صرخة الألم الحادة الطويلة من الشيهم ، صرخة الألم المفاجئة وذهول المفاجأة من القط الكبير . نهض الأعور نصف نهضة في خضم إثارته وأذناه مشرئبتان وذيله مستقيم نحو الخارج يرتعش وراءه . إن المزاج السيء للوشقة قد نال منها . قفزت بوحشية على الشيء الذي كان قد آلمها .

لكن الشيهم ، الذي كان يصرخ بحدة وينخر ، وهو يحاول بشكل واهن وببنيته التشريحية الممزقة أن يتكور حماية لنفسه ، فصار يضرب بذيله مرة أخرى ومرة أخرى زعق القط من الوجع والمفاجأة . فتراجعت

مبتعدة وهي تعطس وأنفها مليء بالأشواك المنتصبة مثل وسادة وثيرة كبيرة . صارت تفرك أنفها بمخلبها محاولة نزع السهام النارية ثم تقحمه في الثلج وتفركه بالغصينات والأفرع وهي تنط طوال الوقت إلى الأمام، على الجنبين . وإلى الأعلى والأسفل في نوبة مسعورة من الألم والذعر .

كانت تعطس بشكل متواصل وأرومة ذيلها تبذل قصارى جهدها لإصدار نخعات سريعة عنيفة . تخلت عن حركاتها الغريبة وهدأت لبرهة طويلة .

كان الأعور يراقب . وحتى أنه لم يكن بمقدوره أن يكبت الإجفال والانتصاب اللاإرادي للشعر على امتداد ظهره عندما وثبت فجأة وبدون إنذار منتصبة في الهواء ، وهي تصدر في الوقت نفسه صرخة طويلة هي الأكثر رعباً . ثم قفزت مبتعدة سالكة الدرب وهي تزعق مع كل وثبة كانت تقوم بها .

لم يغامر الأعور بالتقدم إلى أن تلاشى صخبها في البعد واختفى . فسار خلسة كما لو كان كل الثلج مفروشاً بأشواك الشيهم المنتصبة والجاهزة للانغراس في اللبادات اللينة لأقدامه . فاستقبل الشيهم اقترابه بصرخة غاضبة وصرير أسنانه الطويلة . لقد نجح في الالتفاف على شكل كرة مرة أخرى ، لكنها لم تكن تلك الكرة القديمة المتراصة تماماً ، فقد كانت عضلاته ممزقة كثيراً مما جعله أعجز من أن يقوم بذلك . كانت قد شقته في منتصفه تقريباً وكان لا يزال ينزف بغزارة .

غرف الأعور ملء فمه من الثلج المشرّب بالدم ومضغه وتذوقه ثم ابتلعه .

وقد أفاده ذلك بمثابة منكه فكان جوعه يزداد بشكل رهيب ، لكنه كانقدأمضى عمراً طويلاً، فيهذه الدنيا، يمنعه من نسيان حيطته .فانتظر .

استلقى وانتظر بينما كان الشيهم يشبك أسنانه ويطلق نخرات ونشجات ، ومن حين لآخر يطلق صرخات حادة صغيرة . في برهة قصيرة من الزمن لاحظ الأعور أن الأشواك تتدلى نحو الأسفل تماماً وأن الجسم قد ارتخى ولم يعد يتحرك .

بكف عصبي منكمش ، قام الأعور ببسط الشيهم بطوله الكامل وقلبه على ظهره . لم يحدث شيء فمن المؤكد أنه كان ميتاً . تفحصه باهتمام للحظة، ثم قبض عليه قبضة حذرة بأسنانه ومشى به إلى أسفل الساقية وهو نصف حامل ونصف ساحب للشيهم ، ورأسه ملتفت إلى الجانب لكي يتمكن من تفادي الدوس على كتلة شائكة . تذكر شيئاً ما فأنزل الحمل ، وخب عائداً إلى حيث كان قد ترك الترمجان .

لم يتردد لحظة واحدة . كان يعرف بشكل واضح ما يجب عليه فعله ، وقد فعل ذلك بأن أكل الترمجان بشكل مباغت . ثم عاد وأخذ حمولته .

عندما سحب حصيلة صيده اليومي إلى الكهف فحصته الذئبة والتفتت إليه بخطمها وصارت تلحسه على عنقه بخفة . ولكنها في اللحظة التالية كانت تنذره بالابتعاد عن الجراء بزمجرة كانت أقل فظاظة مما اعتادت ، وكانت زمجرة اعتذارية أكثر مما كانت مهددة . فقد كان خوفها الغريزي من والد ذريتها يضعف . كان يتصرف كما ينبغي على الذئب الأب أن يتصرف ولم يبد أية رغبة شريرة في افتراس الأرواح الصغيرة التي كانت هي قد أتت بها إلى العالم .

الفصل السادس

الدغفل الرمادي

كان مختلفاً عن أخوته وأخواته . كان شعرهم قد تكشف عن لون مائل إلى الحمرة موروث عن أمهم ، الذئبة ، في حين كان هو لوحده في هذه الصفة المميزة يشبه أباه . كان الدغفل الصغير الرمادي الوحيد من البطن** . لقد تم استيلاده بشكل صحيح من سلالة ذئبية صرفة . في الحقيقة ، كان قد استولد ، جسدياً ، من الأعور العجوز نفسه ، ولكن باستثناء واحد وحيد وهو أنه كان يملك عينين تشبهان عين أبيه الوحيدة.

لم يكن قد مضى وقت طويل منذ أن تفتحت عينا الدغفل الرمادي. مع ذلك فقد كان بمقدوره أن يرى بوضوح مضطرد . وبينما كانت عيناه لاتزالان مغلقتين ، كان يشعر ويتذوق ويشم . كان يعرف أخويه وأختيه بشكل جيد جداً .

فقد شرع يمرح معهم بطريقة واهنة خرقاء وبدأ حتى بالتنازع معهم وحنجرته الصغيرة تطلق صوتاً مزعجاً غريباً (هو المهشر بالعواء)،

---

* الدغفل : جرو الذئب . (المترجم)

** البطن : مجموع الجراء أو الفراخ المولودة مع بعضها دفعة واحدة . (المترجم)

عندما كان يقحم نفسه في انفعال شديد. وقبل أن تتفتح عيناه بزمن طويل كان قد تعلّم باللمس والتذوق والشم أن يعرف أمه — ينبوع الدفء والطعام السائل والحنان. كان لها لسان مداعب بلطف يسترضيه عندما يمر فوق جسده الصغير اللين، ويدفعه إلى أن يُدني أنفه قريباً منها ويتناعس حتى ينام .

قضى معظم الشهر الأول من حياته في النوم هكذا، ولكنه صار الآن بمقدوره أن يبصر بشكل جيد تماماً وكان يبقى مستيقظاً لفترات أطول ، وكان يقبل على التعرف على عالمه بشكل جيد تماماً. كان عالمه كئيباً ، لكنه لم يكن يعرف ذلك ، لأنه لم يكن يعرف عالماً آخر . كان عالماً خافت الضياء لكن عينيه لم يكن عليهما أن تتكيفا مع أي ضوء آخر. كان عالمه صغيراً جداً . كانت حدوده هي جدران العرين ، ولكنه لما كان لا يمتلك أية معرفة بالعالم الواسع في الخارج ،فلم يكن محصوراً أبداً بالتخوم الضيقة لوجوده .

لكنه كان قد اكتشف مبكراً أن أحد جدران عالمه مختلف عن الجدران الباقية .

كان هذا الجدار هو فوهة الكهف ومصدر الضوء. لقد اكتشف أنه مختلف عن الجدران الأخرى قبل وقت طويل من امتلاكه لأية أفكار خاصة به، أو أية إرادة واعية . كان الجدار يمتلك جاذبية لاتقاوم قبل أن تتفتح عيناه وتتطلع إليه . كان الضوء القادم منه يضرب بشكل متكرر على جفنيه الملتحمين وكانت العينان والأعصاب البصرية تنتفض للومضات الصغيرة الشبيهة بالجمر ذات الألوان الدافئة والسارة بشكل غريب .

إن حياة جسمه ، حياة كل ليف من ألياف جسمه ، الحياة التي كانت مادة جسمه والتي كانت منفصلة عن حياته الشخصية ، هذه الحياة كانت تتوق إلى هذا الضوء وتستحث جسمه نحوه بالطريقة نفسها التي تستحث بها الكيمياء الخادعة النبات نحو الشمس .

دائماً ، في البدء ، وقبل أن تبزغ حياته الواعية ، زحف نحو فوهة الكهف . وفي هذا كان إخوته وأخواته متوحدين معه . في تلك الفترة ، لم يزحف أي واحد منهم أبداً باتجاه الأركان المظلمة للجدار الخلفي . كان الضوء يجذبهم كما لو كانوا نباتات ، فكيمياء الحياة التي كونتهم كانت تتطلب الضوء كضرورة للوجود ، وكانت أجسامهم الدميوية الصغيرة تزحف بشكل أعمى وبشكل كيميائي ، مثل محاليق الكرمة . فيما بعد ، عندما طوّر كل واحد منهم شخصيته وأصبح واعياً بشكل فردي للنزوات والرغبات زادت جاذبية الضوء . كانوا يزحفون دائماً ويدبون باتجاهه وكانت أمهم تسوقهم للعودة عنه .

بهذه الطريقة تعلم الدغفل الرمادي خصالاً أخرى من خصال أمه غير اللسان اللين المهدهد . في دبيبه الملح نحو الضوء اكتشف لديها أنفاً ذا وكزة حادة زاجرة ، وفيما بعد اكتشف كفاً يطرحه أرضاً أو يشقلبه بضربة سريعة محترسة . وهكذا تعلم الألم ، والأهم من ذلك هو أنه تعلم أن يتفادى الألم ، أولاً بعدم التعرض له ، وثانياً ، عندما كان يتعرض للخطر ، بالمراوغة والتراجع . كانت هذه أفعالاً واعية ، وكانت نتائج لتعميماته الأولى على العالم . قبلئذ كان قد ارتد بشكل آلي عن الألم مثلما كان قد زحف بشكل آلي نحو الضوء . بعد ذلك ، ارتد عن الألم لأنه كان يعرف أنه ألم .

كان دغفلاً صغيراً شرساً . وكذلك كان اخوته واخواته. كان ذلك متوقعاً : فقد كان حيواناً لاحماً. كان ينحدر من سلالة قاتلي اللحم وآكلي اللحم . كان أبوه وأمه يعيشان كلياً على اللحم . فالحليب الذي رضعه مع أولى خفقات روحه كان حليباً محولاً بشكل مباشر من اللحم، والآن : في عمر الشهر ،عندما لم يكن قد مضى على تفتح عينيه سوى أسبوع واحد ، كان ينشأ على أكل اللحم — اللحم نصف المهضوم من قبل الذئبة التي كانت تتقيأه من أجل الجراء الخمسة الآخذة بالنمو والتي كانت تشكل عبئاً كبيراً على صدرها .

والأهم من ذلك أنه كان أشرس أفراد البطن. فقد كان بمقدوره أن يصدر عواءً خشناً أعلى من عواء أي واحد منهم.إن ثوراته الصغيرة كانت أشد من ثوراتهم بكثير. فهو أول من تعلم حيلة دحرجة زميله بضربة مخلب بارعة ، وكان أول من قبض على جرو آخر من أذنه وسحبه وجرجره وصار يهرهر من خلال فكيه المحكمي الإطباق. وبالتأكيد كان هو الذي سبب للأم أكبر مشكلة في إبقاءفراخهابعيدين عن باب الكهف .

كان إغواء الضوء للدغفل الرمادي يزداد من يوم إلى آخر . كان يرحل باستمرار في مغامرات بطول ياردة نحو مدخل الكهف وكان يُسحب باستمرار نحو الداخل.إلا أنه لم يكن يعرف المدخل كمدخل . لم يكن يعرف شيئاً عن المداخل — الممرات التي ينتقل بها المرءمن مكان إلى آخر . لم يكن يعرف أي مكان آخر ،ناهيك عن طريق للوصول إليه.لذلك كان مدخل الكهف بالنسبة له جداراً — جداراً من الضوء .

مثلما كانت الشمس بالنسبة للساكن في الخارج ، كذلك كان هذا الجدار ، بالنسبة له ، شمس عالمه .

كان يجذبه مثلما تجذب الشمعة ناموسة. كان يكافح بشكل متواصل للوصول إليه. إن الحياة السريعة الاتساع في داخله كانت تحثه باستمرار نحو جدار الضوء . كانت الحياة في داخله تعرف أنه المنفذ الوحيد ، الطريق الذي قُدّر له مسبقاً أن يسلكه. لكنه هو نفسه لم يكن يعرف شيئاً عنه . لم يكن يعرف أن ثمة خارج مطلقاً .

كان ثمة شيء غريب بخصوص جدار الضوء هذا . إن أباه (الذي كان قد توصل إلى تمييزه باعتباره قاطناً آخر في العالم، مخلوقاً مثل أمه، ينام قرب الضوء وهو الجالب للحم) — كانت اه طريقة في السير إلى داخل الجدار البعيد الأبيض والاختفاء فيه . لم يكن بمقدور الدغفل الرمادي أن يفهم ذلك. مع أنه لم يكن مسموحاً له من قبل أمه أن يقترب من ذاك الجدار فقد اقترب من الجدران الأخرى وصادف انسداداً قاسياً على طرف أنفه الغض . وهذا ماسبب له ألماً . بعد بضع مغامرات كهذه ، ترك الجدران وشأنها . وبدون التفكير به . تقبل هذا الاختفاء في الجدار كخاصية مميزة لأبيه، مثلما أن الحليب واللحم نصف المهضوم هما خاصيتان مميزتان لأمه .

في الحقيقة، لم يكن الدغفل الرمادي معتاداً على التفكير — على الأقل ذاك النوع من التفكير المألوف بالنسبة للبشر. كان دماغه يعمل بطريقة مبهمة.

مع ذلك ، فقد كانت استنتاجاته حادة وواضحة مثل الاستنتاجات التي يتوصل إليها البشر . كان له أسلوب في تقبل الأشياء، دون السؤال

عن السبب ولماذا . في الواقع ، كان هذا هو فعل التصنيف. فهو لم يكن يقلقه لماذا حدث الشيء . كيفية الحوادث كانت كافية بالنسبة له .

لذلك، عندما ارتطم أنفه بالجدار الخلفي عدة مرات اقتنع بأنه لن يختفي في الجدران. بالطريقة نفسها: اقتنع بأن بوسع أبيه أن يختفي في الجدران . لكنه لم يزعج نفسه ، في الحد الأدنى ، بالرغبة في اكتشاف الفرق بينه وبين أبيه. فالمنطق والفيزياء لم يكونا جزءاً من تركيبه العقلي.

مثل معظم مخلوقات البرية، مر بتجربة الجوع مبكراً . فقد جاء وقت لم تنقطع فيه إمدادات اللحم فحسب ، بل إن الحليب أيضاً لم يعد يأتي من ثدي أمه . في البداية صارت الجراء تتذمر وتبكي ، لكنها في معظمها استسلمت للنوم. لم يكن قد انقضى وقت طويل حتى تحول الأمر إلى غيبوبة جوع ، فلم تعد هناك لامشاحنات ولا مشاجرات ولا ثورات صغيرة ولا محاولات للعواء معاً. نامت الجراء في حين أن الحياة التي كانت فيها قد خبت وهمدت .

كان الأعور يائساً . تنحى بعيداً ونام ، ولكن قليلاً ، في العرين الذي كان قد أصبح الآن بائساً ومكرباً . أما الذئبة أيضاً فقد تركت صغارها وخرجت بحثاً عن اللحم. في الأيام الأولى بعد ولادة الجراء كان الأعور قد سافر عدة مرات عائداً إلى المخيم الهندي وسلب فخاخ الأرانب، ولكن مع ذوبان الثلج وانفتاح السواقي كان المخيم الهندي قد انتقل بعيداً ، وبذلك سد في وجهه مصدر التموين .

عندما عاد الدغفل الرمادي إلى الحياة وبدأ مرة أخرى يهتم بالجدار

الأبيض البعيد ، وجد أن سكان العالم قد تناقصوا.فلم يتبق له سوى أخت واحدة .

أما الباقون فقد ولوا.عندما اشتد عوده وجد نفسه مرغماً على اللعب لوحده لأن الأخت لم تعد ترفع رأسها ولا تأتي بحركة . لقد انتفخ جسمه الصغير باللحم الذي كان يأكله الآن،لكن الطعام تأخر جداً عليها. غطت في نوم مستمر ، هيكلاً عظمياً صغيراً جداً ملفوفاً بالجلد الذي كان لهيب الحياة فيه يخبو أضعف فأضعف وانطفأ أخيراً .

ثم جاء وقت لم يعد فيه الدغفل الرمادي يرى أباه يظهر ويختفي في الجدار ولا يراه مستلقياً نائماً في المدخل. كان هذا قد حدث في نهاية مجاعة ثانية أقل حدة .

كانت الذئبة تعرف لماذا لم يعد الأعور ، ولكن لم يكن ثمة وسيلة يمكنها بواسطتها أن تخبر الدغفل الرمادي عما شاهدته . كانت قد اتبعت درباً للأعور عمره يوم واحد بينما كانت تصطاد لنفسها بحثاً عن اللحم، صاعدة الفرع الأيسر من الساقية حيث كانت تعيش الوشقة . وكانت قد عثرت على الأعور ،أو على ما بقي منه في نهاية الدرب. كان ثمة دلائل كثيرة على المعركة التي خيضت وعلى انسحاب الوشقة إلى عرينها بعد أن كسبت النصر. وقبل أن تذهب بعيداً كانت الذئبة قد وجدت هذا العرين، لكن الدلائل كانت تشير إلى أن الوشقة كانت في الداخل ولم تتجرأ على المغامرة بالدخول .

بعد ذلك ، كانت الذئبة في أثناء صيدها تتجنب الفرع الأيسر من الساقية.لأنها كانت تعرف أنه في عرين الوشقة ثمة بطن من الهريرات

الصغيرة،وكانت تعرف أن الوشقة مخاوقة شرسة نزقة ومقاتلة رهيبة. لو وجد نصف دزينة من الذئاب لكان ذلك كافياً لدفع الوشقة للصعود إلى شجرة وهي ترغي منتصبة الشعر، لكنه كان أمراً مختلفاً بالنسبة لذئب وحيد وخاصة عندما يُعرف عن الوشقة أنها تحمل صغارها الجائعين على ظهرها.

لكن البرية هي البرية،والأمومة هي الأمومة، تكون واقية بشراسة في كل الأوقات سواءً في البرية أم في خارجها،وسيأتي ذلك الوقت الذي ستغامر فيه الذئبة، من أجل جروها الجائع، باتباع الفرع الأيسر من الساقية ودخول العرين في الصخور والتعرض لغضب الوشقة.

الفصل السابع

جدار العالم

عندما بدأت أمه بمغادرة الكهف لتقوم بحملات الصيد ، كان الدغفل قد تعلم جيداً القانون الذي يحظر اقترابه من المدخل . فهذا القانون لم يكن مفروضاً عليه بالقوة ، وفي أحيان كثيرة بأنف ومخلب أمه فحسب، بل إن غريزة الخوف كانت تنمو في داخله . أبداً ، في حياته الكهفية القصيرة ، لم يكن قد صادف أي شيء من شأنه أن يخيفه . مع ذلك فقد كان الخوف في داخله . لقد هبط إليه من سلالة بعيدة عبر ألف ألف حياة . كان إرثاً استلمه مباشرة من الأعور والذئبة ، لكنه كان قد تناهى إليهما ، بدورهما ، عبر كافة أجيال الذئاب التي مرت من قبل . الخوف ! تركة البرية التي لا يمكن لأي حيوان أن ينجو منها ولا أن يستبدلها بحساء مركز .

وهكذا عرف الدغفل الرمادي الخوف ، مع أنه لم يكن المادة التي صنع منها . ربما تقبله كأحد تقييدات الحياة . لأنه كان قد تعلم تماماً أن ثمة مثل هذه التقييدات .

فالجوع عرفه وعندما لم يستطع أن يشبع جوعه فقد شعر بالتقييد. إن الصد القاسي لجدار الكهف والوكزة الحادة لأنف أمه والضربة

الماحقة لمخالبها والجوع الذي لايشبع على مدى بضع مجاعات ، كل ذلك قد ولّد لديه شعوراً بأن لاحرية في العالم وأنه ثمة تحديدات وقيود على الحياة . هذه التحديدات والقيود هي قوانين . إن الخضوع لها هو النجاة من الألم وتحقيق للسعادة .

هو لم يحاكم المسألة بهذا الشكل البشري ، بل اكتفى بتصنيف الأشياء إلى أشياء تؤلم وأشياء لاتؤلم . بعد هذا التصنيف صار يتجنب الأشياء التي تؤلم ، والتقييدات والقيود لكي يتمتع بإشباعات ومكافآت الحياة .

وهكذا ، بالامتثال للقانون الذي وضعته أمه وبالامتثال لقانون ذاك الشيء المجهول الذي لا إسم له ، الخوف ، بقي بعيداً عن فتحة الكهف .

لقد بقيت بالنسبة له جداراً أبيض من الضوء . عندما تكون أمه غائبة كان ينام معظم الوقت في حين كان يبقى هادئاً جداً في الفواصل الزمنية التي يكون مستيقظاً أثناءها ، يكبت صرخات الأنين والشكوى التي تدغدغ حنجرته وتجاهد من أجل الانطلاق .

ذات مرة وهو يستلقي مستيقظاً ، سمع صوتاً غريباً في الجدار الأبيض .

لم يكن يعرف أنه كان شرهاً * يقف في الخارج ، يرتعش بأكمله من الجسارة وهو يتشمم محتويات الكهف . كان الدغفل يعرف فقط

* الشره : حيوان شمال أمريكي ثديه لاحم

(المترجم)

أن التنفس كان غريباً ، شيئاً غير مصنّف ، وبالتالي مجهولاً ومخيفاً — لأن المجهول هو أحد العناصر الرئيسية التي تدخل في صنع الخوف .

انتصب الشعر على ظهر الدغفل الرمادي ، لكنه انتصب بصمت : كيف له أن يعرف أن هذا الشيء الذي يتشمم هو شيء ينتصب له الشعر ؟ فهو لم يكن وارداً في أية معرفة من معارفه ، مع أنه كان التعبير المرئي عن الخوف الذي كان في داخله والذي لم يحسب له حساباً في حياته الخاصة . لكن الخوف كان مترافقاً بغريزة أخرى — هي غريزة الاختفاء .

كان الدغفل يمر بنوبة رعب مع أنه كان يستلقي بدون حركة أو صوت ، متجمداً ، متحجراً في حالة السكون ، ميتاً بكل المقاييس والمظاهر . عندما جاءت أمه أدخلته إلى البيت ، فعندما شمت رائحة خطوات الشره نخرت ووثبت إلى داخل الكهف وصارت تلحسه وتحكه بأنفها بعاطفة مشبوبة مفرطة . وشعر الدغفل أنه قد نجا بطريقة ما من ألم كبير .

بيد أنه كان ثمة قوى أخرى تفعل فعلها في الدغفل ، كان أعظمها هو النمو . الغريزة والقانون كانا يتطلبان منه الامتثال والطاعة .

لكن النمو كان يتطلب العصيان والتمرد . إن أمه وخوفه قد دفعاه إلى البقاء بعيداً عن الجدار الأبيض . النمو هو الحياة ،والحياة مقدر لها إلى الأبد أن تنجذب نحو الضوء . لذلك لم يكن ثمة ما يصد مدّ الحياة الذي كان يرتفع في داخله — يرتفع مع كل ملء فم من اللحم كان يبتلعه ، مع كل نَفَس كان يشهقه . في النهاية ، ذات يوم ، انجرف

الخوف والامتثال أمام فورة الحياة ، فصار الدغفل يفرشخ أرجله ويدب صوب المدخل .

خلافاً لأي جدار آخر كانت له خبرة به ، فقد بدا أن هذا الجدار يتقهقر أمامه كلما اقترب منه . لم يرتطم سطحٌ قاسٍ بالأنف الصغير الغض الذي كان يدفعه أمامه متردداً . بدت مادة الجدار نفوذة ومطواعة مثل الضوء . ولما كان الشرط ، بنظره ، يمتلك المظهر الخارجي للشكل ، فقد دخل إلى ما كان بالنسبة له جداراً وغطس في المادة التي تكونه .

كان شيئاً مربكاً . كان يدب عبر الصلابة والصموت وكان الضوء يزداد سطوعاً .

كان الخوف يستحثه على الرجوع ، لكن النمو كان يدفعه للتقدم إلى الأمام . فجأة وجد نفسه في فم الكهف . إن الجدار الذي كان يظن نفسه أنه في داخله ، سرعان ماوثب فجأة أمامه على بعد يتعذر قياسه . كان الضوء قد أصبح ساطعاً بشكل مؤلم ، فأصابه الانبهار منه . وبالقدر نفسه فقد أصابه الدوار من هذا الاتساع المباغت والهائل للفضاء . صارت عيناه تتكيفان بشكل تلقائي مع السطوع ، مركزتين على الاستجابة للبعد المتزايد للأجسام . في البداية ، كان الجدار قد وثب إلى ما وراء نظره.

رآه الآن مرة أخرى ، ولكنه كان قد اتخذ لنفسه ابتعاداً ملحوظاً .

كما أن مظهره قد تغير . صار الآن جداراً مرقشاً ، مكوناً من الأشجار التي تحف بالساقية والجبل المقابل الذي يتربع فوق الأشجار والسماء التي تتوج الجبل .

داهمه خوف كبير . كان في غالبيته خوفاً من المجهول الرهيب . جثم على شفة الكهف وأطل بنظرة محدقة إلى العالم . كان خائفاً جداً . لأنه كان مجهولاً فقد كان معادياً له . لذلك انتصب الشعر على ظهره وتجعدت شفتاه على نحو ضعيف في محاولة لإطلاق زمجرة غاضبة تبعث على الخوف : بدافع من ضآلته ورعبه كان يتحدى ويتوعد العالم الواسع بأسره .

لم يحدث شيء . استمر في التحديق . في غمرة انهماكه نسي أن يزمجر . كذلك ، فقد نسي أن يخاف . طوال هذا الوقت كان الخوف قد طرده النمو ، في حين أن النمو كان يرتدي زي الفضول . بدأ يلاحظ الأجسام القريبة — كان جزء من الساقية قد التمع تحت الشمس ، وشجرة الصنوبر الذابلة تنتصب عند قاعدة المنحدر ، والمنحدر نفسه ، الذي كان يمتد إليه تماماً ، وتوقف على بعد قدمين أسفل شفة الكهف التي كان يجثم عليها .

في هذا الوقت كان الدغفل الرمادي قد عاش كل أيامه على أرض مستوية .

لم يكن قد خبر ألم السقوط . لم يكن يعرف ماهو السقوط ، لذلك فقد خطا إلى الخارج بجرأة . كانت ساقاه الخلفيتان لاتزالان مستندتين على شفة الكهف ، وهكذا وقع إلى الأمام ورأسه إلى الأسفل . صدمته الأرض على أنفه صدمة قاسية جعلته يعوي . ثم بدأ يتدحرج إلى أسفل المنحدر متشقلباً . كان في نوبة ذعر . كان المجهول قد أمسكه أخيراً . لقد قبض عليه بقسوة وكان على وشك أن ينزل به ألماً فظيعاً .

كان النسو مهزوماً الآن من قبل الخوف فصار يزقي مثل جرو مرعوب . لن يفيده الصمت . بالإضافة إلى ذلك ، فان ما كان يهز كيانه ليس الخوف بل الرعب لكن المنحدر أصبح أكثر تدرجاً وكانت قاعدته مغطاة بالعشب . هنا فقد الدغفل عزمه . وعندما وصل أخيراً إلى مصد أطلق آخر عواءة مفجوعة ثم صرخة أنين طويلة . كذلك ، وكما هي العادة تماماً ، كما لو كان في حياته قد قام بألف حمّام ، سارع إلى لحس الصلصال الجاف الذي كان يلوثه . بعد ذلك نهض وحملق حواليه ، كما يمكن أن يفعل أول إنسان من الأرض يحط على المريخ . كان الدغفل قد اخترق جدار العالم ، والمجهول قد أمسك به ، وهو هنا بدون ألم . لكن الإنسان الأول على المريخ سيشعر بالغرابة بأقل مما شعر هو . بدون أية معرفة سابقة ، بدون أي إنذار مهما يكن ، وجد نفسه مستكشفاً في عالم جديد كلياً .

أما وقد أعتقه المجهول الرهيب ، فقد نسي أن للمجهول أية فظاعات.

لم يكن مدركاً إلا لما هو مثير للفضول في كل الأشياء التي حواله . تفحص العشب تحته ، العنب الطحلبي ، الذي يقع وراءه تماماً ، والجذع الميت للصنوبرة الذابلة التي كانت تنتصب على حافة فسحة مفتوحة بين الأشجار . باغته سنجاب يركض حول قاعدة الجذع فسبب له ذعراً كبيراً . انكمش مرتعباً وزمجر .

لكن السنجاب كان خائفاً بشكل رديء . فصعد الشجرة ، ومن نقطة آمنة صار يهذر بعنف .

إن هذا قد أمد الدغفل بالشجاعة ، ومع أن نقار الخشب الذي صادفه بعدئذ قد سبب له إجمالاً فقد تابع طريقه بثقة . هكذا كانت ثقته ، بحيث أنه عندما وثب إليه طائر موظ بوقاحة التقطه بكف لعوب .

كانت النتيجة نقرة حادة على رأس أنفه جعلته ينكمش خوفاً ويزقي . إن الصخب الذي أصدره كان أكثر من طاقة طائر الموظ على الاحتمال فما كان منه إلا أن التمس الأمان بالطيران .

لكن الدغفل كان يتعلم . إن عقله الصغير الضبابي كان قد قام بتصنيف لاشعوري . فهناك كائنات حية وكائنات غير حية . كذلك، يجب عليه أن يحترس من الكائنات الحية فالكائنات غير الحية تبقى دائماً في مكان واحد ، أما الكائنات الحية فتتجول ، وليس هناك ماينبيء بما يمكن أن تفعله . إن الشيء المتوقع منها هو غير المتوقع ، ولهذا السبب يجب عليه أن يكون مستعداً .

كان يتنقل بطريقة خرقاء . فصار يدخل بين العيدان والأشياء . إن الغصين الذي كان يظنه على مسافة طويلة منه سوف يصفعه في اللحظة التالية على أنفه أو يخدشه على طول أضلاعه . كان ثمة تضاريس في السطح . في بعض الأحيان كان يتعثر ويرطم أنفه . ومثلما كان يدوس دوسات ناقصة ويتعثر ، كان ثمة حصى وحجارة تنفرك تحته عندما يدوس عليها ، ومنها تعلم أن الكائنات غير الحية ليست كلها بنفس الحالة من التوازن المستقر مثلما كان كهفه ، كذلك فان الكائنات الصغيرة غير الحية هي أكثر عرضة من الكائنات الكبيرة للسقوط أو للانقلاب .

ولكن مع كل حادث مؤسف كان يتعلم . كلما سار أطول صارت مشيته أفضل . كان يضبط نفسه ، يتعلم أن يحسب حركاته العضلية، أن يعرف تحديداته الجسدية ، أن يقيس المسافات بين الأجسام ، وبين الأجسام وبين نفسه .

كان حظه هو حظ المبتدئ . فنظراً لكونه قد ولد ليكون صياد لحم (مع أنه لم يكن يعرف ذلك) فقد عثر بالمصادفة على اللحم خارج باب كهفه تماماً في أول غزوة له في العالم . لقد كان بمحض الصدفة أن عثر على عش الترمجان المخفي بدهاء . وقع فيه . كان قد حاول السير على طول جذع صنوبرة ساقطة . فانهار اللحاء المتعفن تحت أقدامه وبصيحة يائسة غاص في المنحدر الملتف ، اندفع بعنف عبر أوراق وسيقان دغلة صغيرة ، وفي قلب الدغلة ، وعلى الأرض ، كان يقف بين سبعة صيصان ترمجان .

أصدرت الصيصان أصواتاً صاخبة . وفي البداية أصابه الإجفال منهم. ثم أدرك أنهم صغار جداً، فأصبح أكثر شجاعة . تحركت الصيصان. وضع كفه على واحد منها ، وكانت حركاته متسارعة . كان ذلك مصدر متعة بالنسبة له . شمه ، التقطه بفمه . صار يتخبط جاهداً . فدغدغ لسانه . في الوقت نفسه أصبح مدركاً للإحساس بالجوع . أطبق فكيه على بعضهما . كان ثمة قرقشة عظام قصيفة وسال الدم الحار في فمه . كان طعمه طيباً . كان هذا لحماً ، نفس اللحم الذي تعطيه إياه أمه ، سوى أنه كان حياً بين أسنانه ، ولذلك فهو أفضل مذاقاً . وهكذا أكل الترمجان . ولم يتوقف حتى التهم النقسة كلها . ثم لحس

خديه بالطريقة نفسها التي تلحس بها أمه خديها وبدأ يدب خارج الدغلة .

صادف زوبعة من الريش . فارتبك وأصابه العمى بفعل هجومها وخفقة جناحيها الغاضبين . أخفى رأسه بين مخلبيه وعوى . ازدادت الضربات

كانت الترمجانة الأم في حالة غضب شديد . ثم أصبح هو غاضباً . نهض مزمجراً يخبط بمخلبيه . غرز أسنانه الصغيرة في أحد الجناحين وصار يجرجر الترمجانة ويجرها بعناد . قاومته الترمجانة ، مسددة له الضربات بجناحها الحر . كانت هذه هي معركته الأولى . كان معجباً بنفسه . نسي كل شيء عن المجهول . لم يعد خائفاً من أي شيء . كان يقاتل وينازع شيئاً حياً يضربه . كذلك فإن هذا الشيء الحي كان لحماً. كانت شهوة القتل تلاحقه ، فقد كان لتوه قد حطم أشياء حية صغيرة . وسيحطم الآن شيئاً حياً كبيراً . إنه أكثر انشغالاً وسعادة من أن يعرف أنه سعيد . كان يرتعش ويبتهج بطرق جديدة عليه ، وهي بالنسبة له أكبر من أية طريقة سبق له أن عرفها .

أمسك بالجناح وأطلق نخرة من بين أسنانه المطبقة . سحبته الترمجانة خارج الدغلة . وعندما التفتت وحاولت جره عائدة إلى داخل الملجأ الدغلي ، سحبها بعيداً إلى داخل الفناء المفتوح . وطوال الوقت كانت تستغيث وتصفق بجناحيها ، في حين كان الريش يتطاير مثل ندف الثلج . إن درجة الإثارة التي وصل إليها كانت هائلة . لقد استحضر كل دم نوعه في داخله وصار يموز في داخله . كانت هذه حية مع أنه لم

يكن يعرف ذلك . وكان تحقق من معنى وجوده في العالم ، فعل ما خلق لأجله - قتل اللحم والصراع اقتاه. كان يبرر وجوده بدبلاً عما لا يمكن للحياةأن تفعله لأن الحياة تحقق ذروتها عندما تصل إلى أقصى استعدادها لفعله .

بعد برهة كفت الترمجانة عن صراعها ، فقد كان لا يزال يمسكها من جناحها ، وتمددا على الأرض ونظرا كلٌ إلى الآخر . حاول أن ينخر مهدداً ، بضراوة . نقرته على أنفه الذي صار الآن مؤلماً بفعل المغامرات السابقة . أجفل منها اكنه استمر في الإمساك بها . نقرته مرة أخرى ثم أخرى . انتقل من الإجفال إلى التذمر . حاول الابتعاد عنها إلى الوراء ، ناسياً حقيقة أنه بامساكه لها إنما كان يجرها وراءه . فأمطرته بوابل من النقرات على أنفه المشؤوم . فانحسر فيض القتال لديه ولف ذيله وهو يفلت طريدته ، وصار يعدو هارباً عبر الفراغ المفتوح في تقهقر مشين .

تمدد طلباً للراحة على الطرف الآخر من الفناء قرب حافة الأدغال ولسانه يخرج من فمه وصدره يخفق وأنفه لايزال يؤلمه ويدفعه لمواصلة أنينه.ولكن عندما استلقى هناك راوده بشكل مفاجىء شعور يشبه الشعور بشيء رهيب على وشك الحدوث . لقد هجم عليه المجهول بكل فظائعه ، فانكمش بشكل غريزي متراجعاً إلى ملجأ الدغل . وعندما فعل ذلك ، هب عليه تيار من الهواء ومر بقربه جسم كبير مجنح بصمت وبشكل ينذر بسوء . فقد انقض عليه صقر شق عنان السماء وأخطأه بشق النفس . بينما استلقى في الدغلة يتعافى من هذا الخوف ويحدق بخوف نحو الخارج . كانت الترمجانة على الطرف الآخر من الفسحة المفتوحة

ترفرف خارج العش المنهوب . وبسبب فجيعتها لم تولِ أي اهتمام لصاعقة السماء المجنحة . لكن الدغفل رأى – وكان ذلك إنذاراً ودرساً له – الانقضاض السريع للصقر ، والجثوم القصير الأمد لجسمه فوق الأرض وإنشاب مخالبه في جسم الترمجانة ، وزعيق الترمجانة من الغضب والخوف وارتفاع الصقر إلى السماء حاملاً الترمجانة .

– انقضى وقت طويل قبل أن يغادر الدغفل ملجأه . لقد تعلّم الكثير . فالأشياء الحية هي لحم . إنها صالحة للأكل . كذلك ، فان الأشياء الحية عندما تكون كبيرة بما يكفي يمكن أن تسبب الألم . من الأفضل أكل الأشياء الحية الصغيرة مثل صيصان الترمجان والتخلي عن الأشياء الحية الكبيرة مثل دجاجات الترمجان . لا داعي للقول ، إنه كان يشعر بوخزة طموح صغيرة ، برغبة مكتومة في خوض معركة أخرى مع تلك الترمجانة – إلا أن الصقر قد حملها بعيداً . ربما كانت هناك دجاجات ترمجان أخرى . سيذهب ويرى .

هبط الضفة المنحدرة إلى الساقية . لم يكن قد رأى الماء من قبل . بدأ موطىء القدم جيداً . لم تكن هناك تضاريس في السطح . داس عليها بجرأة ونزل ، وهو يبكي من الخوف في معانقة للمجهول . كان الماء بارداً ، فتمسك وهو يلهث بسرعة . اندفع الماء إلى رئتيه بدلاً من الهواء وكان يترافق دائماً مع شهيقه . كان الاختناق الذي مر به مثل غصة الموت . بالنسبة له ، كان هذا مؤشراً على الموت . لم تكن لديه أية معرفة واعية بالموت ، ولكنه مثل كل حيوان من حيوانات البرية كان يمتلك غريزة الموت . بالنسبة له كان الموت يمثل أعظم الآلام . كان هو جوهر

المجهول بعينه ، كان محصلة لأهوال المجهول ؛ إنه الكارثة الوحيدة التي تبلغ أوجها والتي لا يمكن التفكير بها ، الكارثة التي يمكن أن تقع له والتي لايعرف عنها شيئاً ويخاف من كل شيء حولها .

طلع إلى السطح . فاندفع الهواء العذب إلى فمه المفتوح . لم يعاود النزول مرة أخرى . صار يجدف بكل أرجله وبدأ يسبح . كانت الضفة القريبة على بعد ياردة واحدة ، لكنه كان قد صعد وظهره إليها وأول شيء استقرت عيناه عليه هو الضفة المقابلة التي بدأ فوراً بالسباحة نحوها .

كانت الساقية صغيرة ، ولكنها كانت تتسع في البركة لتصبح عشرين قدماً . في خضم عبوره التقطه تيار الماء وجرفه مع اتجاهه . علق في المنحدر الصغير الواقع في قاع البركة . هنا كان ثمة فرصة ضئيلة لأجل السباحة . فقد أصبح الماء الهادىء غاضباً بشكل مفاجىء . فتارة يكون تحت وتارة أخرى فوق . كان طوال الوقت في حركة عنيفة . فينقلب أو يدور ويرتطم بصخرة مرة أخرى . ومع كل صخرة كان يصطدم بها كان يعوي . فكان مسيره عبارة عن سلسلة من العواءات التي يمكن بواسطتها حساب عدد الصخرات التي صادفها .

في أسفل المنحدر الشديد كان ثمة بركة ثانية . هنا ، وقد أمسكته الدوامة ، حُمل بلطف إلى الضفة ووُضع بلطف على سرير من الحصى . زحف بشكل مسعور خارج الماء واستلقى . كان قد تعلم المزيد حول العالم . فالماء ليس حياً مع أنه يتحرك . كذلك فانه يبدو صلباً كالتراب ولكنه بدون أي صلابة على الإطلاق . فاستنتج أن الأشياء ليست دائماً

كما تبدو . إن خوف الدغفلِ من المجهول كان شكاً موروثاً وقد تعزز الآن بالتجربة . من ذلك الحين فصاعداً ، وبحكم طبيعة الأشياء سوف يعتريه شك دائم بالمظاهر . سيكون عليه أن يتبيّن حقيقة الشيء قبل أن يكون بمقدوره أن يضع ثقته فيه .

كان ثمة مغامرة أخرى مقدّرة له في ذاك اليوم . كان قد تذكر أن ثمة شيء في العالم مثل أمه . ثم كان أن راوده شعور بأنه يريدها أكثر من بقية الأشياء الموجودة في العالم . لم يكن جسمه وحده متعباً من المغامرات التي مر بها ، بل إن دماغه الصغير كان متعباً بالقدر نفسه .

في كل الأيام التي عاشها لم يكن قد عمل بجد كما فعل في هذا اليوم. والأنكى من ذلك أنه كان نعساناً . لذلك فقد باشر البحث عن الكهف وعن أمه شاعراً في الوقت نفسه بنوبة غامرة من اليأس والعزلة .

كان يدب جاهداً بين الأدغال عندما سمع صرخة حادة مرعبة . كان ثمة وميض من اللون الأصفر أمام عينيه . شاهد ابن عرس يثب بسرعة مبتعداً عنه . كان شيئاً حياً صغيراً ولم يكن يمتلك أي خوف . ثم ، وأمامه ، وعند أقدامه ، رأى شيئاً حياً شديد الصغر يبلغ طوله بضعة انشات فقط – كان ابن عرس صغير ، مثله ، قد خرج مخالفاً للقوانين ليقوم بمغامرة . حاول التراجع أمامه . قلبه بمخلبه . فأطلق صيحة حادة غريبة . في اللحظة التالية عاود وميض اللون الأصفر الظهور أمام ناظريه . وسمع مرة أخرى الصرخة المخيفة ، وفي اللحظة نفسها تلقى ضربة حادة على جانب العنق وشعر بالأسنان الحادة للعُرسة تنغرز في لحمه .

بينما كان يعوي ويزقي ويندفع مذعوراً وهو يتراجع ، رأى العرسة تثب على صغيرها وتختفي به في الأجمة المجاورة . كان جرح أسنانها لايزال يؤلمه، لكن مشاعره كانت مجروحة بشكل أكثر إيلاماً ، فجلس وصار يئن بصوت خافت. كانت هذه العرسة بالغة الصغر ولكنها بالغة القسوة ! كان عليه ، مع ذلك ، أن يتعلم أنه فيما يتعلق بالحجم والوزن فان العرسة هي الأشرس والأحقد والأرهب من بين كافة قَتَلَة البرية. لكن قسماً من هذه المعرفة سرعان ما أصبح ملكاً له .

كان لا يزال يئن عندما ظهرت العرسة . لم تهاجمه ، فقد صار صغيرها في أمان الآن . اقتربت باحتراس أكثر . فسنحت للدغفل الفرصةالكاملة لملاحظة جسمها الأفعواني النحيل ورأسها المنتصب المتلهف والأفعواني أيضاً . إن صرختها الحادة المتوعدة قد أوقفت شعر ظهره فزمجر بها منذراً . اقتربت أكثر فأكثر . وبقفزة أسرع من أن يدركها بصره غير المدرّب اختفى الجسم الأصفر النحيل للحظة خارج مجال رؤيته . في اللحظة التالية كانت تمسك بحنجرته وأسنانها مغروزة في شعره ولحمه .

في البداية زمجر وحاول أن يقاتل ، لكنه كان صغيراً جداً ، ولم يكن هذا سوى يومه الأول في العالم وأصبحت زمجرته أنيناً وقتاله كفاحاً للهرب . لم ترخِ العرسة قبضتها ، بل تعلقت به جاهدة للوصول بأسنانها إلى الوريد الكبير حيث يفور فيه دم الحياة . كانت العرسة شاربة للدم ولطالما كانت تفضل أن تشرب من حنجرة الحياة ذاتها .

سيموت الدغفل البني ولن تكون هناك قصة لتكتب عنه لولا أن الذئبة جاءت تثب عبر الأدغال . أفلتت العرسة الدغفل وانقضت بسرعة البرق على حنجرة الذئبة فأخطأتها لتمسك بالفك بدلاً من ذلك . فقذفت الذئبة برأسها بحركة سريعة فأطلق فرقعة كفرقعة السوط . مفلتة قبضة العرسة ومطوحة بها عالياً في الجو .وهي لا تزال في الهواء. أطبق فكا الذئبة على الجسم الأصفر النحيل وأدركت العرسة الموت بين الأسنان المقرقشة .

خبر الدغفل نوبة أخرى من التعلق بأمه. إن فرحتها بالعثور عليه بدت أعظم حتى من فرحته بكونه قد عثر عليها . صارت تنكزه بأنفها وتداعبه وتلحس الجراح التي سببتها له أسنان العرسة . ثم ، وفيما بينهما ، تقاسمت الأم والدغفل أكل مصاصة الدم ، وبعد ذلك عادا إلى الكهف وناما .

الفصل الثامن

قانون اللحم

كان تطور الدغفل سريعاً . ارتاح لمدة يومين ثم غامر بالخروج من الكهف مرة أخرى . في هذه المغامرة عثر على ابن عرس صغير كانت أمه قد ساعدته على تناول الطعام ونظر هو إليه فرأى ابن عرس الصغير هذا يسير على طريقة أمه . ولكنه في هذه الرحلة لم يته . عندما أصبح متعباً وجد طريقالعودة إلى الكهف ونام . بعدئذ صرت تجده كل يوم خارجاً يجوب منطقة أوسع .

بدأ يحسب حساباً لقوته وضعفه ، ويعرف متى يكون عليه أن يكون جريئاً ومتى يجب أن يكون حذراً . فقد وجد أنه من الملائم أن يكون محترساً طوال الوقت إلا في اللحظات النادرة عندما يكون واثقاً من جرأته ، فقد كان يستسلم للرغبات والشهوات الصغيرة .

كان دائماً عفريتاً صغيراً من الغضب عندما وقع بالصدفة على ترمجان شارد . لم يخفق أبداً في الاستجابة بضراوة لهذر سنجاب التقاه لأول مرة على الصنوبرة الذابلة . وفي حين أن رؤية طائر الموظ كانت تحرك لديه بشكل شبه ثابت أشرس نوبات الغضب العارم لأنه لم ينس أبداًالنقرةعلى الأنف التي تلقاها من أول واحد من هذا النوع يصادفه .

ولكن مرت أوقات فشل فيها حتى طائر الموظ في إثارته ،وكانت تلك الأوقات عندما شعر بنفسه أنه في خطر من صائد لحم يطوف خلسة بحثاً عن فريسة . فهو لم ينسَ الصقر أبداً ، وكان ظله المتحرك يدفعه إلى الجثوم في أقرب دغلة . وهو لم يعد يدب بصعوبة ويفرشخ في مشيته،وكان قد ظهرت لديه مشية أمه ، كان يسير منسلاً مختلساً ، بدون جهد ظاهرياً ، مع أنه كان ينسل بسرعة خادعة بقدر ما هي غير محسوسة . في مسألة اللحم ، كان حظه كله في بدايته . إن صيصان الترمجان السبعة وصغير ابن عرس كانوا يمثلون مجموع قتلاه . كانت رغبته في القتل تقوى مع الأيام ، وقد تعلق بطموحات جائعة من أجل السنجاب الذي كان يزقي بشكل مهذار للغاية وكان دائماً ينذر كل مخلوقات البرية باقتراب الدغفل . ولكن لما كانت الطيور تطير في الجو ، والسناجب قادرة على تسلق الأشجار ، فلم يكن باستطاعة الدغفل إلا أن يدب ، يتسلل وينقض على السنجاب عندما يكون على الأرض .

كان الدغفل يكنّ احتراماً عظيماً لأمه . فهي القادرة على جلب اللحم وهي لا تفشل أبداً في أن تجلب له حصته . والأهم من ذلك ، أنها لم تكن تخاف من الأشياء . لم يحدث له أن كانت هذه الحالة من انعدام الخوف تقوم على الخبرة والمعرفة . في الواقع ، كان واقعاً تحت تأثير القوة . وأمه كانت تمثل القوة ، وكلما كبر في العمر شعر بقدرة مخلبها على التذكير ، في حين كانت الوخزة المؤنبة لأنفها تخلي مكانها لتشطيبة من أنيابها. لذلك ، وبالشكل نفسه ، كان يحترم امه . كانت تفرض الطاعة عليه بالقوة ، وكلما كبرت في السن زاد نزقها .

جاءت المجاعة مرة أخرى ، وعرف الدغفل لسعة الجوع مرةأخرى ولكن بادراك أوضح . كانت الذئبة تجري نحيفة هزيلة بحثاً عن اللحم . ونادراً ما كانت تنام في الكهف ممضية معظم وقتها على درب اللحم ، لكنها كانت تمضيه دون جدوى . لم تكن هذه المجاعة طويلة . ولكنها كانت شديدة في آوانها فلم يعد الدغفل يجد الحليب في ثدي أمه ولا هو يحصل على فم من اللحم لنفسه . قبلئذ كان يصطاد من قبيل اللعب ، من أجل مرح اللعب ؛ أما الآن ، فانه يصطاد بتوق قاتل ولا يجد شيئاً . مع ذلك فان الفشل كان يسرع في تطوره . لقد درس عادات السنجاب باهتمام أكبر وجاهد بمهارة أكبر للتسلل إليه ومفاجأته . درس فئران الغابة وحاول أن يخرجها من أوكارها وتعلّم الكثير حول طرائق طيور الموظ ونقار الخشب . وجاء يوم لم يدفعه فيه ظل الصقر إلى الاختباء في الدغل . كان قد ازداد قوة وحكمة وثقة . لكنه كان يائساً ، أيضاً . لذلك فقد جلس على كفليه ، بشكل ظاهر في فسحة مفتوحة ، وتحدى الصقر أن يهبط من السماء ، لأنه كان يعرف أنه موجود ، يسبح في السماء فوقه ، إنه لحم ، اللحم الذي تتوق إليه معدته بشكل بالغ الإلحاح. لكن الصقر رفض النزول والمنازلة ، فدب الدغفل مبتعداً إلى الأجمة وصار يشتكي من خيبته وجوعه .

انكسرت المجاعة . فقد جلبت الذئبة بعض اللحم . كان لحماً غريباً مختلفاً عن أي لحم سبق لها أن جلبته من قبل . كان هريرة وشق غير مكتملة النمو ، مثل الدغفل ، ولكنها ليست كبيرة جداً . كانت كلها له . كانت أمه قد اسكتت جوعها في مكان آخر مع أنه لم يعرف أن بقية فراخ الوشقة قد قضوا نحبهم إشباعاً لها . ولا هو كان يعرف تهور

واستقتال فعلتها هذه . كان يعرف فقط أن الهريرة ذات الفراء المخملي هي لحم ، فأكل وأصبح أكثر سعادة مع كل فم كان يتناوله .

إن المعدة الممتلئة تفضي إلى الكسل والتبطل ، فتمدد الدغفل في الكهف ونام مستنداً على جنب أمه . استيقظ على زمجرتها . لم يسبق له أبداً أن سمعها تزمجر بهذا الشكل المرعب . وربما كانت هذه أفظع زمجرة تصدرها في حياتها الذئبية . كان ثمة مبرر لذلك ولا أحد كان يعرف ذلك أفضل منها . فعرين الوشق لا يُسلب دون عقاب . في الوهج الكامل لضوء العصر ، وكان جاثماً في مدخل الكهف ، رأى الدغفل الوشقة الأم. فانتصب الشعر على امتداد ظهره لهذا المشهد . هنا كان الخوف ، ولم يكن بحاجة لغريزته لكي تخبره بذلك . ولو كان المشهد وحده غير كافٍ ، فان صرخة الغضب التي أطلقها الدخيل ، الصرخة التي بدأت بزمجرة متصاعدت فجأة لتصبح حادة أجشة ، كانت مقنعة بما يكفي بحد ذاتها.

شعر الدغفل بنخس الحياة التي كانت فيه فوقف وزمجر بشجاعة إلى جانب أمه . لكنها دفعته بشكل مذل بعيداً عنها إلى الوراء . بسبب انخفاض سقف المدخل لم تستطع الوشقة أن تثب فيه ، وعندما قامت باندفاعة زاحفة انقضت الذئبة عليها وثبتتها أرضاً . شاهد الدغفل قليلاً من المعركة . كان ثمة زمجرة هائلة ورغاء وصراخ حاد . تطاحن الحيوانان فكانت الوشقة تجرح وتمزق بمخالبها وتستعمل أسنانها أيضاً. في حين كانت الذئبة تستعمل أسنانها فقط .

ذات مرة ، انقض الدغفل وأنشب أسنانه في الساق الخلفية للوشقة. تشبث بها وهي تجأر بوحشية . مع أنه لم يكن يعرف ذلك ، فإنه قد أوقف

حركة الساق بثقل جسمه وبذلك أنقذ أمه من الكثير من الاذى . إن تغيراً في المعركة قد جعله ينحشر تحت جسميهما مما أجبره على إفلات قبضته . في اللحظة التالية انفصلت الأمان وقبلأن تهجمان على بعضهما البعض مرة أخرى ، صفعت الوشقة الدغفل بضربة مخلب أمامي هائلة شقت كتفه وفتحته حتى العظم ودفعته جانباً بعنف نحو الجدار . فانضاف إلى الزئير عواء الدغفل الحاد من الألم والخوف . لكن المعركة دامت طويلاً بحيث تسنى له الوقت لكي يستنفذ صراخه ويمر بنوبة ثانية من الجرأة، وفي نهاية المعركة كان يمسك مرة أخرى بالساق الخلفية والزئير الغاضب يصدر من بين أسنانه .

كانت الوشقة ميتة . لكن الذئبة كانت واهنة جداً ومريضة جداً . في البداية داعبت الدغفل ولعقت كتفة المجروح ، لكن الدم الذي فقدته كان قد أخذ قوتها معه ، فأمضت كل النهار والليل مستلقية قرب عدوتها الميتة ، دون حركة ، وهي تتنفس بشق النفس . لمدة اسبوع لم تغادر الكهف إلا من أجل الماء فكانت حركاتها بطيئة ومؤلمة .

في نهاية تلك الفترة تم افتراس الوشقة . في حين كانت جراح الذئبة قد شفيت بما يكفي للسماح لها بسلوك درب اللحم مرة أخرى .

كان كتف الدغفل متيبساً ومتقرحاً،ولبعض الوقت صار يعرج من الضربةالأليمة التي تلقاها . لكن العالم بدا متغيراً الآن . فقد صار يتجول فيه بثقة أكبر ، بشعور بالشجاعة لم يكن موجوداً في الأيام التي سبقت المعركة مع الوشقة . كان قد أطل على الحياة بمظهر أكثر شراسة ،فقد قاتل وطمر أسنانه في لحم عدوٍ ، ونجا من الموت . وبسبب كل ذلك ، كان

يحمل نفسه ، بشكل أكثر جرأة ، بلمسة تحدٍ كانت جديدة عليه .لم يعد خائفاً من الأشياء الصغيرة ، وتلاشى الكثير من جبنه ، مع أن المجهول لم يكف أبداً عن محاصرته بغرائبه وأهواله اللا محسوسة وحتّى المنذرة.

بدأ يرافق أمه على طريق اللحم ، ورأى الكثير من قتل اللحم وبدأ يمارس دوره فيه . وبطريقته الغامضة الخاصة به تعلم قانون اللحم .كان ثمة نوعان من الحياة ــ نوعه هو والنوع الآخر . يشمل نوعه كلاً من أمه وهو نفسه،أما النوع الآخر فيشمل كل الأشياء الحية التي تتحرك ، لكن النوع الآخر مقسوم إلى قسمين : قسم يقتله نوعه ويأكله ؛ هذا القسم يتألف من اللاقتلة والقاتلين الصغار . أما القسم الآخر فهو يقتل ويأكل نوعه أو يُقتل ويُؤكل من قبل نوعه . من هذا التصنيف ظهر القانون .

إن هدف الحياة هو اللحم . الحياة ذاتها لحم . الحياة تحيا على الحياة. هناك الآكلون والمأكولون . القانون هو : كُلْ أو تؤكل .

هو لم يَصُغْ القانون بشكل واضح ولم يضع بنوده ولا فكر به من الناحية الأخلاقية . حتّى أنه لم يفكر بالقانون ، بل عاش القانون فحسب دون التفكير به مطلقاً .

لقد رأى القانون يسري حوله من كل جانب . فهو الذي أكل صيصان الترمجان.الصقر أكل أم الترمجان.وكان الصقر سيأكلههو أيضاً وكان قد أكل هريرة الوشق . وكانت الوشقة الأم ستأكله لو لم تُقتل هي وتُؤكل . وهكذا جرت الأمور . كان القانون يعاش حوله من قبل كل

الأشياء الحية ، وهو نفسه كان جزءاً وقطعة من هذا القانون كان قاتلاً. فطعامه الوحيد هو اللحم ، اللحم الحي ، الذي يركض مبتعداً أمامه بسرعة أو الذي يطير في الجو أو يتسلق الأشجار أو يختبىء في الأرض أو يواجهه ويتصارع معه ، أو يعكس الآية فيلاحقه.

لو فكر الدغفل على طريقة الانسان لكان من الممكن أن يلخص الحياة باعتبارها شهية شرهة والعالم باعتباره مكاناً يجوبه عدد كبير من الشهيات الساعية للإشباع والشهيات المشبعة ، الصائدة والمصادة ، الآكلة والمأكولة وكل ذلك في حالة من التخبط والتشوش ، بعنف وفوضى ، إنه عماء النهم والذبح ، المحكوم بالحظ ، عديم الرحمة ، بلا خطة ، وبلا نهاية .

لكن الدغفل لم يكن يفكر بأسلوب الإنسان . لم يكن ينظر إلى الأمور نظرة واسعة . كان أحادي الهدف . ولم يكن يضمر سوى فكرة أو رغبة واحدة في وقت واحد .

بالإضافة إلى قانون اللحم ، كان ثمة عدد لا يحصى من القوانين الأخرى الأقل أهمية التي عليه أن يتعلمها ويطيعها .فالعالم مليء بالمفاجآت. إن ضجة الحياة في داخله ، لعب عضلات ، هي سعادة لا نهاية لها . فان تطارد اللحم هو أن تجرب الرعشات والابتهاجات . أما غضباته ومعاركه فكانت متعاً . إن الرعب نفسه ، ولغز المجهول ، إنها يلائم عيشه .

وكانت ثمة إراحات وإشباعات . فان تمتلك معدة ممتلئة ، أن تغفو بكسل تحت أشعة الشمس . هذه الأشياء كانت تعويضاً ومكافأة له عن فورات حماسه وأتعابه ، في حين أن حماساته وأتعابه كانت بحد ذاتها مجزية ذاتياً . فقد كانت تعبيرات عن الحياة ، والحياة دائماً سعيدة بالتعبير عن ذاتها. لذلك فان الدغفل لم يكن أبداً في خلاف مع بيئته العدائية. كان حياً كثيراً ، سعيداً جداً ، وفخوراً بنفسه جداً .

الفصل التاسع
صنّاع النار

أخذه الدغفل على حين غرة . كانت غلطته . كان لا مبالياً . كان قد ترك الكهف وهبط إلى الساقية لكي يشرب . كان من الممكن أن يكون هو الذي لم يلاحظ لأنه كان مثقلاً بالنعاس (فقد كان خارجاً طوال الليل على درب اللحم ولم يكن قد استيقظ إلا لتوه) ومن الممكن أن تعزى لا مبالاته إلى إلفة الطريق المؤدي إلى البركة . فغالباً ما كان يسلك هذا الطريق ولم يحدث له شيء أبداً .

مر بقرب الصنوبرة الذابلة ، عبر الفراغ المفتوح ، وصار يخب بين الأشجار . ثم ، وفي اللحظة نفسها ، رأى وشم . لقد رأى أمامه خمسة أشياء حية جالسة بصمت على أكفالها . لم يكن قد سبق له أن رأى شكلها من قبل . كانت هذه هي لمحته الأولى للنوع البشري . لكن البشر الخمسةلم ينتفضوا واقفين على أقدامهم لدى إبصارهم له، ولا كشروا عن أسنانهم ولا زمجروا . لم يتحركوا ، بل جلسوا هناك صامتين ومنذرين بشرٍ .

ولم يتحرك الدغفل . كان من المفترض بكل غريزة من غرائز طبيعته أن تدفعه إلى الانطلاق بعيداً بشكل جامح لو لم تكن قد استنفرت

لديه فجأة ، ولأول مرة ، غريزة أخرى معاكسة . وقع عليه روع هائل . فقد أسكته حتى الشلل إحساس غامر بضعفه وضآلته . هنا كانت السيادة والقوة ، وهما شيئان بعيدان عن متناوله .

لم يكن الدغفل قد رأى إنساناً ، مع أن الغريزة المعنية بالإنسان كانت موجودة لديه . تعرّف بوسائل مبهمة في الإنسان على الحيوان الذي كان قد قاتل بنفسه من أجل السيادة على حيوانات البرية الأخرى.نظر الدغفل إلى الإنسان ليس بعينيه فقط ، بل بعيون كل أسلافه – بالعيون التي كانت قد تحلقت في الظلام حول عدد لا يحصى من مواقد المخيمات الشتوية ، العيون التي كانت قد حدقت من مسافات آمنة ومن قلب الأدغال إلى الحيوان الغريب ذي الساقين الذي هو السيد على الأشياء الحية . إن سحر إرث الدغفل كان حاضراً فوقه ، إنه الخوف والاحترام وليدي قرون من الصراع والخبرة المتراكمة للأجيال . لقد كان الإرث أكثر قهراً من أن يتحمله ذئب لايزال جرواً . فلو كان مكتمل النمو لهرب . ولكن ، كما حدث ، فقد جثم مرتعداً مشلولاً بالخوف ، وهو شبه عارضٍ للخضوع الذي كان نوعه قد قدمه منذ المرة الأولى التي حدث فيها أن جلس ذئب قرب نار إنسان وتدفّأ بها .

نهض أحد الهنود ومشى نحوه وانحنى فوقه . فجثم الدغفل مرتعداً وأكثر التصاقاً بالأرض . كان المجهول ،وقد تجسّد أخيراً في لحم ودم ملموسين ، ينحني فوقه ويمد يده ليمسك به . انتصب شعره بشكل لا إرادي ، وافترت شفتاه وتكشفت أنيابه الصغيرة . إن اليد الموزونة التي رفرفت مثل القدر فوقه ، قد ترددت ، وتكلم الإنسان ضاحكاً « وابام وابيسكا ايب بيت تاه » (انظروا ! الأنياب البيضاء ! ») .

ضحك الهنود الآخرون بصوت مرتفع ، وحثوا الرجل على التقاط الدغفل . وبينما كانت اليد تنزل مقتربة أكثر فأكثر ، كانت تثور في الدغفل معركة الغرائز . فقد عرف نزوتين كبيرتين هما النزوع إلى الاستسلام والنزوع إلى القتال .

كان الفعل الناتج هو عبارة عن تسوية . لقد فعل الإثنين . فاستسلم إلى أن كادت اليد أن تلمسه . ثم قاتل وأسنانه تلمع بحركة سريعة خاطفة جعلتها تنغرز في اليد . في اللحظة التالية تلقى ضربة قوية على صدغه قلبته على جنبه . فهجرته كل الروح القتالية . أصبحت جرويته وغريزة الخضوع لديه هما المسؤولتان عنه . فوقف على كفليه وصار يزقي . لكن الرجل الذي كانت يده قد عُضّت كان غاضباً . فتلقى الدغفل ضربة يد قوية على الصدغ الآخر . وهناك وقف وزقى بصوت أعلى من السابق .

ضحك الهنود الأربعة بصوت أعلى في حين بدأ حتى الرجل الذي عضت يده يضحك . أحاطوا بالدغفل وصاروا يضحكون عليه ، بينما كان يعوي بدافع من رعبه وألمه . في خضم ذلك سمع شيئاً ما ، وسمعه الهنود أيضاً . لكن الدغفل كان يعرف ماهو ، وبصرخة طويلة مديدة كانت تحمل في داخلها من النصر أكثر مما تحمل من الحزن ، توقف عن صخبه وانتظر مجيء أمه ، أمه الشرسة والتي لاتُقهر التي تقاتل وتقتل كل الأشياء ولا تخاف أبداً . كانت تزمجر وهي تجري . فقد سمعت صراخ جروها وكانت مندفعة بقوة لإنقاذه .

وثبت بينهم وقد جعلتها أمومتها الغاضبة والمقاتلة أي شيء إلا أن تكون مشهداً جميلاً . لكن مشهد غضبها الواقي كان مفرحاً للدغفل .

فأطلق صيحة فرح صغيرة وقفز للقائها ، في حين تراجع الحيوانات ــ البشر عدة خطوات إلى الوراء . وقفت الذئبة فوق الدغفل ، مواجهة لهم ، بشعر منتصب وزمجرة تلعلع عميقاً في حنجرتها . كان وجهها مشوهاً وحقوداً ومفعماً بالتهديد ، حتى جسر أنفها المتجعد من أرنبة الأنف إلى العينين ، فكانت زمجرتها بالغة الهول .

ثم علت صرخة من أحد الرجال .

« كيتشي ! » صاح ذاك الرجل . كان نداءاً مفاجئاً .

شعر الدغفل بأمه تذبل لهذا الصوت .

« كيتشي ! » صاح الرجل مرة أخرى ، هذه المرة بحدة وثقة . ثم رأى الدغفل أمه ، الذئبة ، عديمة الخوف ، تجثم إلى أن لامس بطنها الأرض ، وهي تئن وتلوح بذيلها ، مطلقة إشارات السلام . لم يستطع الدغفل أن يفهم عليها . كانت غريزته صادقة . ولقد أكدتها أمه . فهي أيضاً قد خضعت للحيوان ــ الإنسان .

أقبل عليها الرجل الذي تكلم . وضع يده على رأسها وجثمت هي بشكل أقرب . لم تعضه أو تهدد بعضه . أقبل الرجال الآخرون وأحاطوا بها وصاروا يلمسونها ويمسونها بتودد ، وهي أفعال لم تبد أي محاولة للاستياء منها . كانوا متأثرين بشكل كبير وأطلقوا كثيراً من الأصوات من أفواههم . هذه الأصوات لم تكن مؤشرات على الخطر ، هكذا قرر الدغفل بينما كان يربض قرب أمه ، وهو لايزال منتصب الشعر من وقت لآخر ولكنه يبذل أقصى جهده لكي يخضع .

« إنه شيء غريب » قال هندي « كان أبوها ذئباً» . صحيح أن أمها كلبة ، ولكن ألم يربطها أخي في الغابة طوال ثلاثة ليال في فصل التزاوج ؟

وبالتالي فقد كان والد كيتشي ذئباً » .

« لقد مضى عام ، ياغراي بيفر ،منذ أن هربت » تكلم هندي أخر .

« إن هذا ليس غريباً ، ياسالومون تونغ » أجاب غراي بيفر ، « كان زمن مجاعة ولم يكن يوجد لحم للكلاب »

« لقد عاشت مع الذئاب » قال هندي ثالث :

« هكذا يبدو ، أيها النسور الثلاثة » أجاب غراي بيفر وهو يضع يده على الدغفل ، « وهذه هي العلامة على ذلك » .

زمجر الدغفل قليلاً للمسة اليد ، وتراجعت اليد لتسدد ضربة . فما كان من الدغفل إلا أن غطى أنيابه وخرّ مستسلماً في حين كانت اليد وهي متراجعة ، تفرك أذنيه نازلة صاعدة على ظهره .

« هذه هي علامتها » تابع غراي بيفر . « من الواضح أن أمه هي كيتشي . لكن أبوه كان ذئباً . لذلك فان فيه القليل من الكلب والكثير من الذئب . أنيابه بيضاء وسيكون إسمه الناب الأبيض . لقد قلت إنه كلبي . لأنه — ألم تكن كيتشي كلبة أخي ؟ وألم يمت أخي ؟ »

استلقى الدغفل الذي اكتسب اسماً في هذا العالم وصار يراقب . لبرهة من الزمن ، استمرت الحيوانات البشرية في إطلاق الأصوات الصاخبة من أفواهها . ثم استل غراي بيفر سكيناً من غمد كان معلقاً

حول رقبته ودخل إلى الدغلة وقطع عوداً . كان وايت فانغ (الناب الأبيض) يراقبه . صار يثلم العود من الطرفين وفي الأثلام ربط خيوطاً من جلد الحيوان الخام . ربط أحد الخيطان حول حنجرة كيتشي ثم قادها إلى صنوبرة صغيرة ولف حولها الخيط الآخر .

تبعها وايت فانغ واضطجع بقربها . امتدت إليه يد سالومون تونغ وصارت تمسد على ظهره . نظرت كيتشي بقلق . شعر وايت فانغ بالخوف يتفاقم لديه مرة أخرى . لم يستطع كبت زمجرة ، لكنه لم يبدِ أي استعداد للعض . إن اليد ذات الأصابع المعقوفة والمتباعدة قد فركت معدته بطريقة لعوبة ومسّدته من جانب إلى جانب. كان مضحكاً وأخرقاً وهو يستلقي هناك على ظهره وسيقانه تدب في الهواء . بالإضافة إلى ذلك ، فقد كانت حالة اليأس المطلق هي التي تثور ضدها الطبيعة الكاملة لوايت فانغ . إذ لم يكن بمقدوره أن يفعل شيئاً للدفاع عن نفسه . فاذا كان هذا الحيوان ـ الانسان يقصد الأذى فإن وايت فانغ يعرف أن ليس بمقدوره أن يهرب منه . كيف بمقدوره أن ينط مبتعداً وأرجله الأربعة في الهواء فوقه ؟ مع ذلك فان الخضوع قد جعله يتغلب على خوفه واكتفى بالجأر بصوت ناعم . هذا الجأر لم يكن بوسعه أن يكبحه ، ولم يمتعض منه الحيوان ـ الانسان بتسديد ضربة إلى رأسه . وعلاوة على ذلك ، وهذا وجه الغرابة ، أن وايت فانغ قد مر باحساس لايوصف بالمتعة عندما كانت اليد تمسده جيئة وذهاباً . عندما كان يمُسد ويُقلب على جنبه فقد كان يتوقف عن الجأر ، وعندما كانت الأصابع تضغط وتنخس عند قاعدة أذنيه كان يزداد الإحساس بالمتعة لديه ، وعندما تركه الإنسان وشأنه وابتعد ، مع فركة وحكة أخيرتين . فقد تلاشى كل خوف وايت فانغ . وقد عرف الخوف مرات كثيرة في تعاملاته

مع الإنسان،مع أنه الصفة المميزة للرفقة الخالية من الخوف مع الإنسان هي التي ستكون في النهاية صفته هو .

بعد فترة ، سمع وايت فانغ أصواتاً غريبة تقترب . كان سريعاً في فرزه للأصوات لأنه ميزها فوراً باعتبارها أصوات حيوان ـ إنسان . بعد ذلك بدقائق قليلة ، جاء بقية أفراد القبيلة يمشون بتثاقل كما لو كانوا يسيرون في استعراض عسكري . كان ثمة المزيد من الرجال والكثير من النساء والأطفال ، كانوا أربعين نفراً ، وكلهم مثقلون بتجهيزات وعدة المخيم . وكان أيضاً ثمة كلاب كثيرة ، وكانت هذه الكلاب ، باستثناء الجراء التي لم يكتمل نموها ، محملة ، بنفس الشكل ، بعدة المخيم . فعلى ظهورها ، وفي الأكياس المشدودة باحكام تحت بطونها، كانت الكلاب تحمل من عشرين إلى ثلاثين باونداً من الأحمال .

لم يكن وايت فانغ قد رأى كلاباً من قبل ، لكنه لدى رؤيتها شعر بأنها من نوعه ، سوى أنها مختلفة بشكل ما . لكنها تبدي اختلافاً طفيفاً عن الذئب عندما اكتشفت الدغفل وأمه .

حدث هجوم . انتصب شعر وايت فانغ وزمجر ونهش في وجه موجة الكلاب المندفعة الفاتحة أفواهها فوجد نفسه تحتها وهو يشعر بالعض الحاد للأسنان في جسمه ، وكان هو نفسه يعض وينقض على الأرجل والبطون التي فوقه . كان ثمة زئير هائل . استطاع سماع زمجرة كيتشي بينما كانت تقاتل لأجله ، واستطاع سماع صيحات الحيوانات ـ البشر ، وأصوات العصي التي تضرب على الأجسام وعواءات الألم الصادرة عن الكلاب المضروبة بشدة .

لم تمض سوى ثوانٍ قليلة قبل أن يقف على أقدامه مرة أخرى . استطاع الآن أن يرى الحيوانات ـ البشر ترد الكلاب بالعصي والحجارة دفاعاً عنه وإنقاذاً له من الأسنان الضارية لبني نوعه الذين كانوا بشكل ما من غير نوعه . ومع أنه لم يكن يوجد مبرر في دماغه من أجل تصور واضح لشيء مجرد للغاية ، كالعدالة ، فلا داعي للقول ، أنه كان يشعر ، بطريقته الخاصة ، بعدالة الحيوانات ـ البشر وأنه قد عرفهم كما هم ـ صناع القانون ومنفذي القانون . كذلك ، فقد كان يقدّر القوة التي كانوا يطبقون بها القانون .

خلافاً لأي من الحيوانات التي سبق له أن صادفها ، فان الحيوانات البشر لا تعض ولاتنشب مخالبها . إنها تفرض قوتها الحية بقوة الأشياء الميتة . فالأشياء الميتة تفرض أمرها . ولذلك فان العصي والحجارة ، الموجهة من قبل هذه المخلوقات الغريبة تنط في الهواء مثل الأشياء الحية مسببة إصابات بليغة مؤلمة للكلاب . بالنسبة لعقله فان هذه القدرة غير عادية ، قدرة غير قابلة للتصور وتقع فيما وراء القدرة الطبيعية ، إنها قدرة شبه الآلهة . إن وايت فانغ في جوهر طبيعته لم يكن بمقدوره أن يعرف أي شيء عن الآلهية ، فهو في أحسن الأحوال لم يكن بمقدوره أن يعرف سوى الأشياء التي تقع خلف المعرفة ، لكن العجب والرهبة اللذين أصاباه من هذه الحيوانات ـ البشر يشبه من بعض الوجوه عجب ورهبة الانسان لدى رؤية مخلوق سماوي ما ، على قمة جبل ، يقذف الصواعق من يديه على عالم مذهول .

رُدَّ آخر كلب . تلاشى الصخب . صار وايت فانغ يلعق جراحه ، ويتأمل في ذلك ، تأمل أول تذوق له لوحشية القطيع ودخوله إلى القطيع.

لم يكن قد حلم بأن نوعه يضم غير الأعور وأمه وهو نفسه . فهم يشكلون نوعاً مستقلاً . وهنا ، فجأة ، كان قد اكتشف مخلوقات أكثر من نوعه بكثير . كان ثمة امتعاض لكون هؤلاء ، بني نوعه ، ومن النظرة الأولى قد انقضوا عليه وحاولوا تحطيمه . بالطريقة نفسها ، امتعض لكون أمه مربوطة بعودٍ ، حتى بالرغم من أن ذلك كان من قبل الحيوانات البشرية العليا . لقد كان لذلك مذاق الفخ ، العبودية هذا مع أنه لم يكن يعرف شيئاً عن الفخ والعبودية . كانت حرية التجوال والجري والاستلقاء حسب الرغبة هي إرثه ، وكانت منتهكة هنا . كانت حركات أمه مقيدة بطول العود . وبطول ذاك العود ذاته كان هو مقيداً ، لأنه لم يكن قد تجاوز ، بعد ، الحاجة إلى أن يكون بجانب أمه .

لم يرق له ذلك . ولا أحبّه عندما نهضت الحيوانات ـ البشر وتابعت مسيرها ، لأن حيواناً ـ إنساناً صغيراً جداً أمسك الطرف الآخر من العصا وقاد كيتشي أسيرة خلفه ، وخلف كيتشي مشى وايت فانغ ، قلقاً ومتضايقاً بشكل كبير من المغامرة الجديدة التي دخل فيها .

نزلوا إلى وادي الساقية ، أبعد من أوسع مجال بلغه وايت فانغ ، حتى وصلوا إلى نهاية الوادي ، حيث ترفد الساقية نهر ماكنزي . هنا ، حيث كانت الكنوات * مخبأة على ساريات مرتفعات في الجو وحيث تنتصب رفوف تجفيف السمك، كان ثمة مخيم منصوب ، وكان وايت فانغ يتطلع بعينين مندهشتين . إن فوقية هذه الحيوانات ـ البشر كانت تزداد مع كل حركة . فهناك سيادتهم على كل هذه الكلاب الحادة الأنياب .

(*) الكنو : زورق طويل خفيف ضيق يقاد بمقدف أو أكثر (المترجم)

كانت هذه السيادة تعبر عن القدرة . لكن الأهم من ذلك ، بالنسبة للدغفل ، كانت سيادتهم على الأشياء غير الحية ، وقدرتهم على نقل الحركة إلى الأشياء اللامتحركة ، وقدرتهم على تغيير وجه العالم بحد ذاته .

لقد كان هذا الشيء الأخير هو الذي أثر فيه بشكل خاص . فقد لفت نظره ارتفاع أطر السواري ، مع أن هذا بحد ذاته لم يكن شيئاً جديراً بالملاحظة ، نظراً لكونه ينجز من قبل المخلوقات نفسها التي تقذف العصي والحجارة إلى مسافات كبيرة . ولكن عندما كانت هياكل السواري تحول إلى تيبات* بتغطيتها بالقماش والجلود، فقد كان وايت فانغ يصاب بالذهول . كانت تنتصب حواليه،من كل جانب ، مثل شكل هائل سريع النمو من أشكال الحياة . فقد كانت تشغل تقريباً كامل محيط حقل رؤيته . كان يخاف منها . فهي تلوح فوقه منذرة بالشر وعندما يحركها النسيم حركات عنيفة ينكمش من الخوف مثبتاً نظره عليها باحتراس ، ومستعداً للقفز بعيداً إذا حاولت أن تسقط عليه .

لكن خوفه من التيبات زال سريعاً . فقد رأى النساء والأطفال يمرون داخلين خارجين دون أن يصيبهم أذى . ورأى الكلاب غالباً ما تحاول دخولها فيتم طردها بكلمات نابية وحجارة متطايرة . بعد فترة ، ترك جانب كيتشي ودب بحذر نحو جدار أقرب تيبة إليه .

---

* التيبة : خيمة مخروطية من الجلد لدى الهنود الحمر .
(المترجم)

كان فضول النمو هو ما يحثه ـ فضرورة التعلم والعيش والفعل هي التي تجلب الخبرة . لقد قطع الإنشات القليلة الأخيرة إلى جدار التيبة ببطء واحتراس مؤلمين . كانت أحداث اليوم قد جعلته مستعداً للمجهول لكي ينكشف أمامه بالوسائل اللامتوقعة الأكثر مفاجأة . أخيراً ، لامس أنفه الخيمة . انتظر . لم يحدث شيء . ثم شم رائحة القماش الغريب المشبع برائحة الإنسان . اقترب من الخيمة بأسنانه وشدها بلطف . لم يحدث شيء ، مع أن الأجسام المجاورة للتيبة تحركت . فشد بقوة أكثر . كان ثمة حركة أكبر . كان ذلك مبهجاً . وظل يشد أقوى فأقوى ، وبشكل متكرر إلى أن أصبحت التيبة بأكملها تتحرك . فصدرت صرخة حادة لإمرأة هندية في الداخل جعلته يفر عائداً إلى كيتشي . ولكنه بعد ذلك لم يعد يخاف الكتل المعلقة للتيبات .

بعد ذلك بلحظة كان شارداً عن أمه مرة أخرى . كان عودها مربوطاً إلى وتد في الأرض ولم يكن بمقدورها أن تتبعه . كان ثمة جرو غير مكتمل النمو أكبر منه وأعمر منه إلى حد ما . تقدم نحوه ببطء، بهيئة تفاخرية ومولعة بالقتال . كان اسم الجرو ، كما سمعهم وايت فانغ ينادونه فيما بعد،هو ليب ـ ليب . كانت لديه خبرة في معاركات الجراء وكان متنمراً بعض الشيء .

كان ليب ـ ليب من نوع وايت فانغ،ولكونه ليس سوى جرو ، لم يكن يبدو خطيراً ،لذلك فان وايت فانغ استعد للقائه بروح ودية . ولكن عندما أصبحت مشية الغريب متصلبة وافترت شفتاه عن أسنانه ، تيبّس وايت فانغ أيضاً وأجاب أيضاً بشفتين مفترتين . فطوقا كلٌ منهما الآخر نصف تطويقة ، بشكل متردد ، مزمجرين ومنتصبي

الشعر . دام ذلك بضع دقائق ،وكان وايت فانغ قد بدأ يستمتع بذلك ، كنوع من اللعب لكن ليب – ليب انقض عليه فجأة وبسرعة ملحوظة ، وعضه عضة مؤلمة وقفز بعيداً مرة أخرى . فأصابت العضة الكتف الذي تأذى من الوشق وكان لايزال مؤلماً بعمق قريباً من العظم .

إن المباغتة والألم قد جعلا وايت فانغ يطلق عواءً،ولكن في اللحظة التالية ، وفي فورة غضبه،كان يثب على ليب – ليب ويعضه بضراوة، لكن ليب – ليب كان قد قضى حياته في مخيم وخاض كثيراً من معاركات الجراء . ثلاث مرات ، أربع مرات ، ست مرات ، جرحت أسنانه الحادة القادم الجديد إلى أن فر وايت فانغ وهو يعوي دون خجل طلباً لحماية أمه . لقد كانت أول المعاركات العديدة التي كان عليه أن يخوضها مع ليب ليب . لأنهما كان عدوين منذ البدء ، هكذا ولدا ، بطبيعتين قدر لهما أن تصطدما بشكل دائم .

صارت كيتشي تلحس وايت فانغ بشكل ملطّف،وحاولت أن تسيطر عليه لكي يبقى معها . لكن فضوله كان مفرطاً ، وبعد ذلك ببضع دقائق كان يغامر بطلب جديد . فتقدم نحو أحد الحيوانات – البشر ، غراي بيفر ، الذي كان جاثياً على مأبضيه ويفعل شيئاً ما بالعصي والطحلب المفروش أمامه على الأرض.اقترب وايت فانغ منه وصار يراقبه.فأصدر غراي بيفر أصواتاً فسرها وايت فانغ على أنها غير عدائية ، لذلك فقد ظل يقترب أكثر . كانت النساء والأولاد يحملون مزيداً من العصي والأغصان إلى غراي بيفر .

كان من الواضح أنها مسألة على قدر كبير من الأهمية . دخل

وايت فانغ إلى أن لامس ركبة غراي بيفر، كان شديد الفضول ، وناسياً تماماً أن هذا حيوان ـ إنسان رهيب . فجأة شاهد شيئاً غريباً مثل السديم قد بدأ يرتفع من العصي والطحلب تحت يدي غراي ـ بيفر . ثم ، ومن بين العيدان نفسها ، ظهر شيء حي ، يتراقص ويدور ، ذو لون مثل لون الشمس في السماء لم يكن وايت فانغ يعرف شيئاً عن النار. لقد جذبته كما فعل الضوء في فم الكهف في جرويته المبكرة . قطع الخطوات القليلة باتجاه اللهب . سمع غراي ـبيفر يضحك ضحكة خافتة فوقه وعرف أن الصوت ليس عدوانياً . ثم لامس اللهب بأنفه وفي اللحظة ذاتها أخرج لسانه الصغير لها .

أصابه الشلل للحظة . فالمجهول ، المتربص وسط العصي والطحالب، كان يقبض عليه من أنفه بقسوة . فارتد إلى الوراء مطلقاً انفجاراً مذعوراً من الزقي . ولدى سماع الصوت وثبت كيتشي مزمجرة على طرف عودها ، وصارت ترغي بشكل مرعب لأنها لم تستطع أن تأتي لنجدته . لكن غراي ـبيفر ضحك بصوت عالٍ ، وصار يضرب فخذيه بكفيه ويروي ماحدث لكل أفراد المخيم ، حتى صار الجميع يضحكون ضحكاً هادراً .

لكن وايت فانغ جلس على كفليه وصار يزقي ويزقي، كان شكلاً ضئيلاً بائساً ومثيراً للشفقة وسط الحيوانات البشرية .

كان أسوأ وجع سبق له أن عرفه . فقد سفع أنفه ولسانه بالمادة الحية التي لها لون الشمس ، والتي كانت تكبر تحت يدي غراي ـبيفر . صرخ وبكى بشكل لاحدود له ، وكل صرخة جديدة كانت تقابل

بنوبات من الضحك من طرف الحيوانات البشرية . حاول أن يسكن أنفه بلسانه ، لكن اللسان كان محروقاً أيضاً ، وكان الوجعان معاً يحدثان وجعاً أكبر ، وإذ ذاك كان يصرخ بيأس أكثر من ذي قبل .

ثم راوده الخجل . فقد كان يعرف الضحك ومعناه . لايتاح لنا أن نعرف كيف أن بعض الحيوانات تعرف الضحك وأن تعر ف متى يُضحك عليها ، ولكن بهذه الطريقة تحديداً عرف وايت فانغ ذلك.وشعر بالعار لأن الحيوانات البشرية تضحك عليه . فاستدار وولى هارباً ، ليس من وجع النار ، بل من الضحك الذي كان ينغرز بشكل أعمق ، ويسبب وجعاً في روحه . هرب إلى كيتشي ، المغتاظة عند طرف العود كحيوان أصيب بالجنون — إلى كيتشي المخلوق الوحيد في العالم الذي لم يضحك عليه .

أسدل الغسق وهبط الليل ، واضطجع وايت فانغ بجانب أمه. كان أنفه ولسانه لا زالا يؤلمانه ، ولكنه كان محتاراً بفعل مشكلة أكبر . كان مصاباً بالحنين إلى أهله . كان يشعر بالفراغ في داخله ، وبالحاجة إلى صمت وسكون الساقية والكهف في الجرف الصخري . لقد أصبحت الحياة مزدحمة أكثر مما ينبغي . كان ثمة الكثير جداً من الحيوانات البشرية ، من الرجال والنساء والأطفال ، وكلهم يصدرون أصواتاً وأشياء مثيرة . وكان هناك الكلاب ، الدائمة التنازع والتشاحن ، المحدثة للزمجرات ، والمسببة للإرباكات . إن العزلة المريحة للحياة المتفردة التي عرفها قد ولت .

هنا كان الهواء بحد ذاته نابضاً بالحياة ، كان يطن ويئز دون توقف. ومع التغير المستمر في شدته والتحول المباغت في إيقاعه ، كان يضغط على أعصابه وحواسه ويجعله عصبياً وقلقاً ويزعجه بقرب حدوثه الدائم . كان يراقب الحيوانات البشرية وهي آتية ذاهبة تتحرك حول المخيم . وباسلوب يشبه من بعيد اسلوب البشر في النظر إلى الآلهة التي خلقتهم كان وايت فانغ ينظر إلى الحيوانات — البشر أمامه.فهم مخلوقات عليا، في الحقيقة إنهم آلهة . وفقاً لفهمه الغامض ، كانوا بالنسبة له صانعي أعاجيب مثلما هي الآلهة بالنسبة للبشر . إنهم مخلوقات السيادة التي تمتلك كل وسائل القدرات المجهولة والمستحيلة ، إنهم أسياد الأحياء وغير الأحياء — يفرضون الطاعة التي تحرك ، يضفون الحركة على مالا يتحرك. ويجعلون الحياة ، الحياة اللاسعة التي لا لون لها ، تخرج من الطحلب الميت والخشب . إنهم صانعوا النار ! إنهم آلهة .

الفصل العاشر

الـربـاط

كانت الأيام حافلة بالخبرة بالنسبة لوايت فانغ .فخلال الوقت الذي كانت كيتشي تسير فيه موثوقة بالعيدان كان يجول حول المخيم مستفسراً، مستقصياً ومتعلماً . وتوصل سريعاً إلى معرفة الكثير من أساليب الحيوانات البشرية ، لكن الإلفة لم تولد سوى الازدراء . فكلما زادت معرفته بهم زاد تأكيدهم لتفوقهم ، وزاد كشفهم لقدراتهم العجيبة وتعاظم ظهور صفاتهم الألوهية .

إن الإنسان قد عرف غالباً الحزن لرؤيته آلهته يطاح بها ومعابده تتقوض ، أما بالنسبة للذئب والكلب البري الذين انتهى بهما المطاف إلى الجثوم عند قدمي الإنسان ، فان هذا الحزن لم يحصل لهما . خلافاً للإنسان ، الذي تكون آلهته غير منظورة وتتجاوز حدود التخمين ، وحيث تتملص أبخرة وسدائم الوهم من كساء الواقع ، وحيث الأطياف المنذرة الجوالة للصلاح والقدرة ، والثورانات اللاملموسة للذات باتجاه عالم الروح ، فان الذئب والكلب البري اللذين دخلا في نارهم، إنما يجدان آلهتهما في اللحم الحي ، القاسي العصي على الجس ، تشغل فضاء الأرض وتتطلب الوقت لتحقيق غاياتها ووجودها . ليس هناك من إجهاد

ضروري للإيمان بمثل هذا الإله ، وليس هناك من إجهاد ضروري للإرادة يمكنه ، ربما ، أن يستحث عدم الإيمان بمثل هذا الإله . وليس هناك افتراق عنه . فهناك يقف ، وهاهو يقف على قائمتيه الخلفيتين ، والعصا في يده ، هائل القدرة ، سريع الغضب ، شديد الغضب ، محباً ، إله ولغز وقدرة ، كلها ملفوفة ومحاطة بلحم ينزف عندما يجرح ، طيب المذاق وصالح للأكل مثل أي لحم .

هكذا كان الأمر مع وايت فانغ .فقد كانت الحيوانات — البشر آلهة لاتُخَطأ ، ولا مفر منها . ومثلما كانت أمه ، كيتشي ، قد قدمت ولاءها لهم منذ الصرخة الأولى باسمها ، كذلك بدأ هو يقدم ولاءه . لقد منحهم الدرب كامتياز لهم بشكل لا سبيل إلى الشك فيه ، فعندما كانوا يسيرون كان يخرج من طريقهم . وعندما ينادون يأتي . عندما يهددون يخضع ويخر أرضاً . وعندما يأمرونه بالذهاب يبتعد بسرعة . لأن وراء أية رغبة من رغباتهم توجد القدرة على فرض تلك الرغبة بالقوة ، القدرة التي تؤلم ، القدرة التي تعبر عن ذاتها بالقبضات والعصي ، بالحجارة المتطايرة ولسعات السياط .

كان ينتمي إليهم مثلما تنتمي إليهم كل الكلاب . فأفعاله هي رهن أوامرهم . وجسمه هو ملك لهم لكي يدقوه ويدوسوه وما عليه إلا أن يتحمل . هذا هو الدرس الذي تلقنه بسرعة . لقد جاء قاسياً ، مستمراً ، معاكساً للكثير مما هو قوي ومهيمن في طبيعته الخاصة ، وفي حين أنه قد كرهه في أثناء تعلمه له ، فقد كان يجهل في قرارة نفسه أنه يتعلم أن يحبه . كان يضع مصيره في يدي آخر ،

كان ذلك انتقالاً لمسؤوليات الوجود . كان هذا بحد ذاته تعويضاً ، لأن الاتكاء على آخر كان أسهل دائماً من الوقوف وحيداً .

لكن ذلك لم يحدث كله في يوم ؛ تسليمه لنفسه ، لجسده ولروحه ، إلى الحيوانات — البشر . لم يستطع فوراً أن ينقطع عن تراثه البري وذكرياته عن البرية : مرت أيام كان يدب فيها إلى طرف الغابة ويقف ويصغي إلى شيء ما يناديه من بعيد . وكان يعود دائماً ، قلقاً ومنزعجاً ، ليئن بصوت خافت وكآبة إلى جانب كيتشي ويلحس وجهها بلسان متشوق متسائل .

تعلّم وايت فانغ سريعاً أساليب المخيم. عرف ظلم وجشع الكلاب الأكبر منه سناً عندما ترمى قطعة لحم أو سمكة للأكل . وتوصل إلى معرفة أن البشر هم أكثر عدلاً ، والأطفال أكثر فظاظة والنساء أكثر كرماً وحتى الأكثر حيلاً لقذف قطعة لحم أو عظمة له . وبعد مغامرتين أو ثلاث مغامرات مؤلمة مع أمهات الجراء غير االمكتملة النمو ، توصل إلى معرفة أنه من الحكمة دائماً ترك مثل هؤلاء الأمهات وشأنهن والابتعاد عنهن قدر الإمكان ، وتجنبهن عند رؤيتهن قادمات .

لكن سُم حياته كان ليب — ليب . فلكونه أضخم وأعمر وأقوى ، اختار ليب—ليب وايت فانغ كهدف خاص للمضايقة.قاومه وايت فانغ بإرادة كافية ، لكنه كان متفوقاً عليه . كان عدوه كبيراً جداً . أصبح ليب — ليب كابوساً بالنسبة له . كلما غامر بالابتعاد عن أمه ، كان من المؤكد أن المتنمر سوف يظهر له ، جارياً في أثره ، مزمجراً

به ، مضايقاً إياه ، ومنتهزاً فرصة عدم وجود حيوان – إنسان قريب منه ، لينقض عليه ويجره إلى القتال . ولما كان ليب – ليب يفوز بشكل ثابت ، فقد كان يستمتع بذلك بشكل هائل . لقد أصبح ذلك تسليته الكبرى في الحياة،مثلما أصبح العذاب الأكبر لوايت فانغ . لكن التأثير الذي تركه على وايت فانغ لم يكن ترويعه بالتهديد. مع أنه عانى من معظم الأذى وكان مغلوباً على أمره دائماً فقد بقيت روحه غير مقهورة . مع ذلك ، فقد كان هناك أثر سيء يتم إحداثه . لقد أصبح حقوداً ونكداً .

كان مزاجه شرساً بالولادة وأصبح أكثر شراسة تحت هذا الاضطهاد اللامنتهي .

إن الجانب الجرواني الأنيس اللعوب منه لم يجد سوى تعبير ضئيل عنه . فهو لم يكن يلعب ويبطر مع الجراء الأخرى في المخيم . إذ لم يكن ليب – ليب يسمح بذلك. ففي اللحظة التي كان يظهر وايت فانغ قربهم ، كان ليب ليب ينقض عليه متنمراً ومتغطرساً ، أو يتعارك معه إلى أن يدفعه إلى الابتعاد . كان من نتيجة ذلك سلب وايت فانغ الكثير من جرويته وجعله في تصرفاته يبدو أعمر من سنه . فلكونه محروماً من الخروج ، عبر اللعب ، ومحروماً من طاقاته ، انطوى على نفسه وطور سيروراته العقلية . لقد أصبح ماكراً ؛ فكان يجد وقتاً فائضاً كرس فيه نفسه لأفكار الاحتيال . ولكونه ممنوعاً من الحصول على نصيبه من اللحم والسمك عند توزيع الطعام العام على كلاب المخيم ، فقد أصبح لصاً ذكياً . كان عليه أن ينهب المؤن

لنفسه ، وكان ينهب جيداً ، مع أنه كان في أغلب الأحيان مصدر إزعاج للنساء الهنديات في النهاية .

لقد تعلم أن يتسلل حول المخيم ، وأن يكون بارعاً وأن يعرف ماذا يجري في كل مكان وأن يرى ويسمع كل شيء وأن يفسر وفقاً لذلك ، وأن يستنبط بشكل ناجح طرق ووسائل تجنب مضطهده العنيد .

كان في أوائل أيام اضطهاده أن لعب لعبته الأولى، البارعة والكبيرة حقاً ، وحصل منذئذ على أول تذوّق له لطعم الانتقام . ومثلما كانت كيتشي ، عندما كانت مع الذئاب ، قد مارست الاستدراج لإبادة الكلاب من مخيم البشر ، كذلك فعل وايت فانغ، بطريقة مشابهة إلى حد ما ، فقد قام باستدراج ليب – ليب إلى فكي كيتشي الحاقدين . لقد تقهقر وايت فانغ أمام ليب – ليب ، بهروب غير مباشر، سالكاً طريقاً مؤدياً إلى داخل وخارج وحول مختلف تيبيات المخيم . كان عدّاءً ماهراً ، أسرع من أي جرو آخر من نفس حجمه وأسرع من ليب – ليب . لكنه لم يكن يجري بأقصى طاقته في هذه المطاردة ، بل بقي بشق النفس على بعد قفزة عن مطارده .

إن ليب – ليب ، الذي أثارته المطاردة والاقتراب المضطرد لضحيته ، نسي الخيطة والموقع ، وكان الوقت متأخراً جداً . فبينما كان يندفع بالسرعة القصوى حول تيبية جرى بأقصى سرعته إلى كيتشي الراقدة عند نهاية عودها . أطلق صرخة ذعر ، فما كان من فكيها المنتقمين إلا أن أطبقا عليه . كانت مربوطة ، لكنه لم يكن

بمقدوره أن يفلت منها بسهولة . فقلبته ممسكة إياه من ساقيه بحيث لا يعود بمقدوره أن يجري بينما كانت تنهشه وتجرحه بأنيابها بشكل متكرر . .

عندما نجح أخيراً في التخلص منها ، دب على أقدامه ، وكان أشعث الشعر بشكل رديء ، موجوعاً في جسده وفي روحه . كان شعره منتصباً يتناثر من كل أنحاء جسمه على شكل خصل حيث كانت أسنانها قد هرسته .وقف حيث كان قد استيقظ ، فتح فمه ، واطلق العواء الطويل لجرو مكسور الفؤاد . ولكن حتّى هذا العواء لم يكن مسموحاً له أن يكمله . في خضم ذلك ، أنشب وايت فانغ ،المندفع ، أسنانه في الساق الخلفية لليب – ليب . لم يكن قد بقي في ليب – ليب أي روح قتالية ، ففر دون حياء ، وضحيته يكد في أثره ويضايقه طوال الطريق في عودته إلى التيبية . هنا جاءت النساء الهنديات لنجدته ، ولم يكف عنه وايت فانغ ، الذي تحول إلى شيطان غاضب،إلا بوابل من الحجارة .

جاء اليوم الذي أطلق فيه غراي–بيفر سراح كيتشي ، مقرراً أن احتمال هروبها بعيداً قد مضى . ابتهج وايت فانغ لحرية أمه.فرافقها مبتهجاً حول المخيم ، وطالما ظل قريباً إلى جانبها ، إذ كان ليب – ليب يحافظ على مسافة معتبرة.حتى أن وايت فانغ انتصب شعره له ومشى راسخ الخطوات ، لكن ليب – ليب تجاهل التحدي . فهو نفسه لم يعد مغفلاً ، ومهما يكن الانتقام الذي يرغب في القيام به ، فقد كان بوسعه أن ينتظر إلى أن ينفرد بوايت فانغ .

في وقت لاحق من ذاك اليوم، شردت كيتشي مع وايت فانغ إلى حافة الغابة المجاورة للمخيم . كان قد قاد أمه إلى هناك ، خطوة خطوة ، والآن عندما توقفت حاول أن يغريها بالمضي أبعد من ذلك . فالساقية والعرين والغابة الهادئة كلها كانت تناديه ، وكان يريد من أمه أن تأتي .

جرى خطوات قليلة ، توقف وتطلع إلى الوراء . لم تكن قد تحركت. صار يعوي مناشداً ويعدو مسرعاً بشكل لعوب داخلاً إلى وخارجاً من الدغلة . عاد إليها ، لحس وجهها ، وتابع الجري مرة أخرى .

ولم تزل بدون حركة . وقف وحدق فيها ، وكله تصميم وشوق عبّر عنهما جسدياً ، تلاشيا ببطء عندما فتلت رأسها ونظرت إلى المخيم.

كان ثمة شيء ما يناديه هناك ، في الفسحة المفتوحة . وقد سمعته أمه أيضاً . ولكنها سمعت أيضاً ذاك النداء الآخر الأقوى ، نداء النار والإنسان: النداء الذي أطلق للذئب وحده من بين كافة الحيوانات لكي يجيب عليه ، للذئب والكلب البري ، اللذين هما أخوان .

استدارت كيتشي وصارت تخب ببطء عائدة باتجاه المخيم . لقد كانت قبضة المخيم عليها أقوى من التقييد الجسدي للعصا . إن الآلهة، اللامنظورة والخفية ، كانت لاتزال تحتفظ بقدرتها وسلطتها ولن تسمح لها بالذهاب .

جلس وايت فانغ في ظل شجرة بتولا وصار يئن بهدوء. كانت رائحة الصنوبر القوية وعبق الغابة الظريف يملأ الهواء ، مذكراً إياه بحياة الحرية القديمة قبل أيام عبوديته . لكنه كان لايزال مجرد جرو

غير مكتمل النمو . وكان نداء أمه أقوى من نداء الإنسان أو من نداء البرية . فطوال كل ساعات حياته القصيرة كان قد اعتمد عليها . وقد حان الوقت ، مع ذلك ، لأجل الاستقلال . وهكذا نهض وخب بشكل شبه يائس عائداً إلى المخيم ، متوقفاً مرة أو مرتين ليجلس ويئن إلى النداء الذي كان لا يزال يصدح في أعماق الغابة .

في البرية يكون الوقت الذي تمضيه الأم مع صغيرها قصيراً ، ولكن في ظل هيمنة الانسان يكون هذا الوقت أقصر حتى . وهكذا كان الحال مع وايت فانغ. كان غراي–بيفر مديناً لشخص يدعى ثري ايغلز. فقد كان ثري ايغلز خارجاً في رحلة على نهر ماكنزي إلى بحيرة العبد الكبرى . ذهب شريط من القماش القرمزي وجلد دب وعشرون خرطوشة وكيتشي لايفاء الدين. رأى وايت فانغ أمه تؤخذ على متن قارب ثري ايغلز ، وحاول اللحاق بها . فردته ضربة من ثري ايغلز إلى اليابسة . أقلع القارب. فقفز وايت فانغ إلى الماء وسبح وراءه غير مبالٍ بالصرخات الحادة من غراي بيفر لكي يعود . حتى الحيوان – الانسان ، الإله ، تجاهله وايت فانغ في غمرة الرعب الذي شعر به لفقدان أمه .

لكن الآلهة كانت معتادة على أن تطاع ، فأطلق غراي بيفر بغضب شديد قارباً في أثره . عندما لحق بوايت فانغ ،أبطأ سيره ورفعه من قفا عنقه خارج الماء . لم يضعه فوراً في قاع الكانو . بل أبقاه معلقاً بيده ، وباليد الأخرى عاجله بلكمة . وكانت لكمة . كانت يده ثقيلة . كل ضربة كانت قاسية حتى الإيلام ، وقد تلقى العديد من الضربات .

صار وايت فانغ يتأرجح إلى الوراء وإلى الأمام مثل بندول زائغ ومنتخع تحت تأثير الضربات التي كانت تنهمر عليه . كانت تنتابه انفعالات ومشاعر متغيرة . في البداية كان قد أصيب بالمفاجأة . ثم جاء خوف خاطف عندما عوى عدة مرات تحت تأثير اليد .لكن هذا الخوف سرعان ماتبعه الغضب .

إن طبيعته الحرة قد أقحمت نفسها ، فكشر عن أسنانه وزمجر بلا خوف في وجه الإله الحانق . لكن ذلك لم يفد سوى في جعل الإله أكثر غضباً . فجاءت الضربات أسرع وأثقل وأكثر إيلاماً .

استمر غراي بيفر في الضرب.واستمر وايت فانغ في الزمجرة . لكن هذا لم يكن ليدوم إلى الأبد . فسيكف أحدهما أو الآخر ، وكان الذي كف هو وايت فانغ .صار الخوف يعتمل فيه من جديد. فلأول مرة يلقى معاملة خشنة وقاسية . فضربات العصي والحجارة العرضية التي خبرها سابقاً كانت بمثابة دعابات بالمقارنة بهذه . انهار وبدأ يبكي ويعوي . لفترة وجيزة كانت كل ضربة تستصدر منه عواء لكن الخوف تحول إلى رعب إلى أن صارت عواءاته أخيراً تصدر بتتابع مستمر ، غير مرتبط بايقاع العقاب .

أخيراً كبح غراي بيفر يده . أما وايت فانغ،المتلوي بشكل منهك ، فقد استمر في البكاء . وقد بدا أن ذلك أرضى السيد الذي قذف به بخشونة إلى قاع الكانو . في هذه الأثناء كان الكانو قد انجرف مع تيار الساقية . التقط غراي بيفر الدعسة.كان وايت فانغ في طريقه . فرفسه

بقسوة . في تلك اللحظة . انطلقت طبيعة وايت فانغ مرة أخرى ، فأنشب أسنانه في القدم الملفوفة بالموقاسين (*) .

إن الضربات التي ولت من قبل لم تكن شيئاً بالمقارنة بالضرب الذي كان يتلقاه الآن . فهو لم يستعمل يده فقط ، بل استخدم أيضاً الدعسة الخشبية القاسية ، فأصيب برضوض وقروح في كل أنحاء جسمه الصغير عندما طرح مرة أخرى في الكانو . مرة أخرى ، وهذه المرة عمداً، قام غراي بيفر برفسه. لم يكرر وايت فانغ هجومه على القدم . لقد تعلم درساً آخر من عبوديته . مهما تكن الظروف ، لا ينبغي عليه أبداً أن يجرؤ على عض الإله الذي كان بالنسبة له الرب والسيد ، فجسم الرب والسيد مقدس ، ولا يجوز أن يدنس بأسنان واحد مثله . كان من الواضح هذه هي جريمة الجرائم ، الإثم الذي لاغفران له ولا تغاضي عنه .

عندما لامس الكانو الشاطىء ، استلقى وايت فانغ يئن هامداً، منتظراً مشيئة غراي بيفر . كانت مشيئة غراي بيفر أن عليه الذهاب إلى الشاطىء ، لأنه قذف إلى الشاطىء مرتمياً بقوة على جنبه ومتوجعاً من كدماته من جديد . دب على أقدامه مرتعشاً ووقف يئن .

إن ليب — ليب الذي كان قد راقب المجريات كلها من الضفة ، هجم عليه الآن باطحاً إياه أرضاً وأنشب أسنانه فيه. كان وايت فانغ أعجز من أن يدافع عن نفسه ، وكان من الممكن أن يكون الأمر صعباً عليه لولا أن انطلقت قدم غراي بيفر مطوّحة بليب — ليب

---

* الموقاسين (أو الموكاسين) : حذاء لا كعب له مصنوع من جلد ناعم ومرفوع النعل عند جوانب القدم وفوق أصابعها حيث يتصل بقطعة جلدية فوق أعلى القدم .
(المترجم)

في الهواء من فرط قوتّها ، بحيث أنه ارتمى أرضاً على بعد إثني عشر قدماً . كانت هذه هي عدالة الحيوان ـ الانسان ؛ وحتّى آنذاك ، في بليته المثيرة للشفقة هذه،خبر وايت فانغ رعشة امتنان صغيرة . فصار يعرج في أعقاب غراي بيفر خانعاً عبر القرية إلى التيبية . وهكذا حدث أن تعلم وايت فانغ أن الحق في العقاب هو شيء تحتفظ به الآلهة لنفسها وتنكره على المخلوقات الأدنى منها .

في تلك الليلة ، عندما كان كل شيء ساكناً،تذكر وايت فانغ أمه وحزن لأجلها . حزن بصوت أعلى مما يجب فأيقظ غراي بيفر الذي قام بضربه . بعد ذلك صار يحزن بهدوء عندما تكون الآلهة حوله . ولكن في بعض الأحيان ، وبينما يكون شارداً إلى حافة الغابة لوحده ، ينفّس عن حزنه ويطلقه على شكل أنات وتفجعات عالية .

خلال هذه الفترة تحديداً ربما يكون قد أولى أذناً صاغية لذكريات العرين والساقية والعودة إلى البرية . لكن ذكرى أمه كانت تثبطه . لما طالما أن الحيوانات ـ البشر الصيادون يخرجون ويعودون فإنها ستعود إلى القرية في وقت من الأوقات . لذلك فقد ظل في عبوديته بانتظارها . لكنها لم تكن عبودية تعيسة في مجملها . فقد كان ثمة الكثير ممايشغله . شيء ما كان يحدث دائماً . لم تكن هناك نهاية للأشياء الغريبة التي تقوم بها الآلهة ، وكان دائم الفضول ليرى . بالإضافة إلى ذلك ، فقد تعلم كيف يساير غراي بيفر . الطاعة ، الطاعة الصارمة التي لا تزيغ ، هي ما كان منتظراً منه ، وكان هو ، بدوره ، يهرب من الضربات وكان وجوده محتملاً .

وليس هذا فحسب ، بل إن غراي بيفر نفسه كان يرمي إليه بقطعة من اللحم ، ويدافع عنه ضد الكلاب الأخرى التي تنافسه على أكلها . وكانت هذه القطعة ذات قيمة . بطريقة غريبة ما ، كانت تساوي أكثر من دزينة من قطع اللحم من يد إمرأة هندية . إن غراي بيفر لم يكن يُدلل أو يداعب . ربما كان ثقل يده ، ربما عدالته ، ربما قدرته المحضة ، وربما كانت كل هذه الأشياء مجتمعة هي التي أثرت على وايت فانغ ،لأن رباطاً معيناً من التعلق كان يتشكل بينه وبين سيده الفظ .

وهكذا ، بشكل غادر ، وبوسائل بعيدة ، كما بسلطة العصا والحجر وقبضة اليد، كانت أغلال عبودية وايت فانغ تشتد عليه بإحكام. إن الخصال الموجودة لدى أفراد نوعه التي جعلت في البداية من الممكن بالنسبة لهم أن يأتوا إلى نيران البشر هي الخصال التي كانت قادرة على التطور . فكانت تتطور لديه ، وكانت نار المخيم ، الطافحة بالتعاسة والبؤس ، كما هو الحال ، تحبب نفسها إليه سراً طوال الوقت . لكن وايت فانغ كان غير واعٍ لها.فهو لم يكن يعرف سوى الحزن والأسى لفقدان كيتشي ، والأمل بعودتها ، والتوق الجائع إلى الحياة الحرة التي كانت ملكاً له فيما مضى .

* * *

الفصل الحادي عشر

المنبــــوذ

هكذا استمر ليب-ليب في تعكير وايت فانغ بحيث أصبح أكثر شراً وأكثر ضراوة بما يفوق حقه الطبيعي في أن يكون . كانت الوحشية جزءاً من تركيبه ، لكن الوحشية التي تطورت هكذا تجاوزت بنيته . فقد اكتسب سمعة من أجل شرانيته بين الحيوانات — البشر أنفسهم . فحيثما كانت هناك مشكلة وضوضاء في المخيم ، قتال أو عراك أو صراخ إمرأة هندية من أجل قطعة لحم مسروقة ، فقد كان من المؤكد أنهم سيجدون وايت فانغ متورطاً فيها ويكون عادة في الصميم منها. لم يزعجوا أنفسهم بالبحث عن أسباب سلوكه . فهم لم يكونوا يرون سوى النتائج ، وكانت النتائج سيئة . كان مختلساً ولصاً ، مسبباً للأذى ، مثيراً للمتاعب ، وكانت النساء الهنديات الغاضبات يدللن عليه في وجهه ، فينظر إليهن في أثناء ذلك بحذر واستعداد لمناورة أية قذيفة مباغتة ؛ فقد كان ذئباً لا قيمة له ومحكوماً عليه بأن ينتهي نهاية سيئة .

وجد نفسه منبوذاً وسط المخيم المكتظ بالسكان . كل الكلاب الصغيرة كانت تسير بإمرة ليب — ليب. كان ثمة فرق بين وايت فانغ وبينهم . ربما كانوا يحسون بسلالته الغابية البرية ويشعرون غريزياً

بالعداء تجاهه كالعداء الذي يشعره الكلب الداجن تجاه الذئب . ولكن ، والحال هكذا، فقد انضموا إلى ليب — ليب في مضايقة وايت فانغ . وما إن يعلن معارضته لذلك حتى يجدوا سبباً وجيهاً للاستمرار في مضايقته . إجمالاً ، ومن وقت لآخر ، كانوا يشعرون بأسنانه ، وبالنظر لسمعته ، فقد كان يعطي أكثر مما يأخذ . لقد استطاع أن يهزم الكثيرين منهم في قتال فردي ، لكن القتال الفردي كان محرّماً عليه . كانت بداية مثل هذا القتال إشارة لكل الكلاب الصغيرة في المخيم للإسراع والانقضاض عليه .

من هذا الاضطهاد القطيعي تعلم شيئين هامين : كيف يصون نفسه في قتال جماعي ضده ، وكيف ، في حالة قتاله مع كلب مفرد ، يُحدث أكبر قدر من الأذى في أقصر حيز من الزمن لتثبيت أقدامه وسط الحياة الجماعية المعادية المعنية ، وقد تعلم هذا جيداً . أصبح شبيهاً بالقط في مقدرته على البقاء على أقدامه . حتى الكلاب الناضجة كان من الممكن أن تدفعه بعنف نحو الوراء أو إلى الجانبين بتأثير أجسامها الثقيلة ، فيذهب هو إلى الوراء أو إلى الجانبين ، في الهواء ينزلق على الأرض ، ولكن دائماً مع وضع أرجله تحته وأقدامه باتجاه الأرض الأم .

عندما تتعارك الكلاب ، يكون عادة ثمة مقدمات للعراك الفعلي — الزمجرات وانتصاب الشعر والاختيالات بأرجل متصلبة. لكن وايت فانغ تعلم أن يختصر هذه المقدمات . فالتأجيل يعني أن تهاجمه كل الكلاب الصغيرة . يجب أن ينجز عمله بسرعة ويهرب . وهكذا تعلّم ألا

يعطي أي إنذار عن نيته . فكان يندفع ويعض ويضرب في الحال ، دون إشعار ، قبل أن يتمكن خصمه من الاستعداد لمقابلته . وهكذا تعلم كيف ينزل الأذى السريع والشديد . كذلك فقد تعلم قيمة المباغتة . فالكلب الضعيف الاحتراس الذي ينفتح كتفه أو تنشرم أذنه طولانياً قبل أن يعرف ما الذي يحدث هو كلب نصف مهزوم .

علاوة على ذلك ، كان من السهل بشكل ملحوظ التغلب على كلب يؤخذ بالمفاجأة ، في حين أن الكلب ، المغلوب هكذا ، يكشف بشكل ثابت ، للحظة ، عن الجانب السفلي اللين من عنقه – تلك النقطة المعرضة للخطر التي سيدفع حياته ثمناً لها. كان وايت فانغ يعرف هذه النقطة . كانت معرفة ورثها مباشرة عبر أجيال الذئاب الصيادة . وهكذا، فقد كان أسلوب وايت فانغ عندما يتخذ وضعية الهجوم ، أن يجد أولاً كلباً صغيراً منفرداً ، وثانياً أن يفاجئه وأن يشل أقدامه ، وثالثاً أن يندفع بأسنانه إلى الحنجرة اللينة .

نظراً لكونه ناقص النمو ، فإن فكيه لم يصبحا بعد كبيرين ولا قويين بما يكفي لجعل هجومه الحنجري قاتلاً ، ولكن في كثير من الأحيان كان ثمة كلب صغير يدور حول المخيم بحنجرة مجروحة كدلالة على نية وايت فانغ . وذات يوم،وكان يمسك بأحد أعدائه منفرداً على حافة الغابة ، نجح عن طريق البطح المتكرر له ومهاجمة حنجرته ، في قطع الوريد الكبير والقضاء على حياته . حدث عراك كبير في تلك الليلة . كان قد خضع للمراقبة وانتقل الخبر إلى صاحب الكلب الميت ، تذكرت النساء الهنديات كل حالات اللحم المسروق

وحوصر غراي يبفر بأصوات غاضبة كثيرة . لكنه أغلق باب خيمته بشكل حازم ووضع بداخلها المتهم ورفض السماح بالانتقام الذي طالب به أهل قبيلته .

أصبح وايت فانغ مكروهاً من قبل الإنسان والكلب.أثناء هذه الفترة من تطوره لم يعرف أبداً لحظة أمان واحدة . فكل سن كلب كان ضده وكذلك كل يد إنسان . وكان يُلاقى بالزمجرات من بني نوعه ، وبالشتائم والحجارة من آلهته .عاش متوتراً . كان بشكل دائم منرفزاً ، مستنفراً من أجل الهجوم ، محترساً كيلا يهاجم ، منتبهاً للقذائف المفاجئة وغير المتوقعة ، مستعداً للتصرف باندفاع وببرود ، للانقضاض بتكشيرة أسنان ، أو للوثوب مبتعداً بزمجرة متوعد .

فيما يتعلق بالزمجرة ، فقد كان بمقدوره أن يزمجر بشكل مرعب أكثر من أي كلب في المخيم ، صغيراً كان أم كبيراً . إن القصد من الزمجرة هو التحذير أو التخويف ، والمحاكمة مطلوبة لمعرفة متى ينبغي استعمالها.كان وايت فانغ يعرف كيف يصنعها ومتى يصنعها . فقد كان يدمج في زمجرته كل ما هو شرير وخبيث ومرعب . بأنف مشرشر بفعل التشنجات المستمرة ، وشعر منتصب على شكل موجات متكررة ، ولسان يتدلى خارج فمه مثل ثعبان أحمر ثم يعود إلى داخله ، وأذنين سابلتين إلى الأسفل ، وعينين تشعان كراهية ، وشفتين مفترتين وأنياب مكشرة تقطر ماءً ، استطاع أن يفرض التردد على أي مهاجم تقريباً . عندما يأخذ حيطته.كان التردد يمنحه اللحظة الحيوية التي يفكر فيها ويقرر ما يفعله . ولكن هذا التردد المكتسب غالباً ما يطول إلى أن يتحول إلى امتناع كامل عن الهجوم .

وأمام أكثر من كلب بالغ تمكن وايت فانغ بفضل زمجرته من إحراز تراجع مشرف . نظراً لكونه منبوذاً من قطيع الكلاب الناقصة النمو ، فإن أساليبه الدموية وكفاءته الملحوظة قد جعلت القطيع يدفع ثمناً لإضطهاده . فلكونه غير مسموح له أن يجري مع القطيع ، فإن الحالة الخطيرة للأمور كانت تقضي بأنه لا يمكن لأي فرد من القطيع أن يجري خارجه.إن وايت فانغ لم يكن يسمح بذلك . وبسبب اختراقه للأدغال وتكتيكه الترصدي ، كانت الكلاب الصغيرة تخشى الجري لوحدها . باستثناء ليب — ليب ، فقد كانت الكلاب مجبرة على التكتل من أجل الحماية المتبادلة ضد العدو الرهيب الذي خلقته لنفسها . إن الجرو الوحيد قرب ضفة النهر كان يعني جرواً ميتاً أو جرواً يوقظ المخيم بصراخه من الألم والخوف في حين يكون هارباً من الدغفل الذي كمن له .

لكن انتقامات وايت فانغ لم تتوقف،حتى عندما تعلمت الكلاب الصغيرة كلياً أن عليها أن تظل معاً . فكان يهاجمها عندما ينفرد بها ، وكانت تهاجمه عندما تكون مجتمعة . كانت رؤيته كافية لجعلهم يطاردونه ، فكانت سرعته في بعض الأحيان تحمله عادة إلى بر الأمان . ولكن الويل للكلب الذي يسبق زملاءه في مثل هذه المطاردة ! كان وايت فانغ قد تعلم أن يلتفت فجأة إلى المطارد الذي يكون سابقاً للقطيع ويصرعه كلياً قبل وصول القطيع . وكان هذا يحدث بتواتر كبير لأن الكلاب ، ولمجرد صرخة كاملة ، كانت معرضة لأن تنسى نفسها في خضم المطاردة،في حين أن وايت فانغ لم يكن ينسى نفسه أبداً . وباستراقه

للنظرات إلى الخلف كما كان يفعل ، كان مستعداً دائماً للالتفاف حول وتحت المطارد المفرط الحماس الذي يسبق زملاءه .

إن الكلاب الصغيرة محتم عليها أن تلعب ، وبدافع من مقتضيات هذا الوضع فقد كانت تحقق لعبها بهذه الحرب الكاذبة . وهكذا كان أن أصبحت مطاردة وايت فانغ لعبتها الأساسية – إنها لعبة مميتة، وبالإضافة إلى ذلك ، أنها ، في كل الأحيان ، لعبة خطيرة . أما هو ، من ناحية أخرى ، لكونه الأسرع جرياً ، فلم يكن يخاف من المغامرة في أي مكان . أثناء الفترة التي انتظرها عبثاً من أجل عودة أمه ، قاد القطيع في عدة مطاردات مسعورة عبر الغابة المجاورة ، ولكن القطيع كان يضل عنه بشكل دائم . إن صخب القطيع وصياحه كانا ينبهانه إلى وجوده ، في حين أنه كان يجري وحيداً ، وئيد الخطوات ، صامتاً ، كان ظلاً متحركاً بين الأشجار ، على طريقة أبيه وأمه من قبله . وعلاوة على ذلك ، فقد كان أكثر اتصالاً بشكل مباشر بالبرية منهم ، وكان يعرف المزيد من أسرارها وحيلها . كانت حيلته المفضلة هي أن يضيع مساره في الماء الجاري ثم يكمن بهدوء في دغلة مجاورة في حين ترتفع صيحاتهم المكتومة حوله .

نظراً لكونه مكروهاً من بني نوعه ومن الجنس البشري ولكونه لا يُقهر ومحارباً باستمرار ، وهو نفسه في حالة حرب مستمرة ، فقد كان تطوره سريعاً وأحادي الجانب . فهذه لم تكن تربة خصبة لكي ينبت فيها العطف والمحبة . إذ أنه لم تكن لديه أدنى دراية بمثل هذه الأشياء . كانت كلمة السر التي تعلمها هي أن يطيع الأقوياء وأن يقهر الضعفاء .

كان غراي بيفر إلهاً وقوياً.وبالتالي فقد كان وايت فانغ يطيعه . لكن الكلب الأفتى أو الأصغر منه هو كلب ضعيف ، شيء يجب سحقه . كان تطوره في اتجاه السلطة . لكي يواجه الخطر الدائم للألم ، وحتى خطر التدمير ، فإن ملكاته اللصوصية والوقائية كانت متطورة بشكل مفرط . لقد أصبح أسرع تحركاً من الكلاب الأخرى ، وأخف قدماً ، وأمهر ، وألدّ ، وأرشق ، وأنحف وذا عضل وعضلات كالحديد ، وأكثر تحملاً وأكثر قسوة ، وأكثر ضراوة وذكاءاً . كان عليه أن يصبح كل هذه الأشياء وإلا فإنه لن يحافظ على سلطته ولا أن ينجو بروحه في هذه البيئة المعادية التي وجد نفسه فيها .

الفصل الثاني عشر

درب الآلهـــة

في خريف العام عندما كانت النهارات تقصر ولسعة الصقيع تتغلغل في الهواء، نال وايت فانغ حظه من الحرية . لبضعة أيام كان ثمة هرج ومرج كبيران في القرية . كان مخيم الصيف يُفكك ، والقبيلة بقضها وقضيضها تستعد للخروج إلى صيد الخريف. كان وايت فانغ يراقب ذلك كله بعينين متلهفتين ، وعندما بدأت الخيام بالتداعي والكانوات تحمّل على الضفة ، فهم ما يحدث. وفي الحال كانت الكانوات ترحّل وكان بعضها قد اختفى نازلاً مع النهر . قرر بشكل متعمد تماماً أن يتخلف عن الركب . انتظر فرصته لينسل خارج المخيم إلى الغابة . هنا في الساقية الجارية حيث كان الجليد قد بدأ يتشكل ، اختبأ وايت فانغ . ثم دب إلى قلب دغلة كثيفة وانتظر . مر الوقت ونام بشكل متقطع لساعات : ايقظه صوت غراي بيفر وهو يناديه بالإسم . كان ثمة أصوات أخرى. استطاع وايت فانغ أن يسمع صوت زوجة غراي بيفر المشاركة في التفتيش عنه، وصوت ميت — ساه، ابن غراي بيفر .

كان وايت فانغ يرتجف من الخوف، ومع أن الحافز قد واتاه للخروج من مخبئه ، فقد قاومه . بعد مضي وقت ، اختفت الأصوات،

وبعد فترة من الزمن دب خارجاً لكي يستمتع بنجاح خطته . كان الظلام يهبط ، ولبرهة من الزمن صار يلهو بين الأشجار متلذذاً بحريته . ثم ، وبشكل مباغت تماماً ، أصبح واعياً لوحدته . جلس يتأمل مصغياً إلى صمت الغابة وقلقاً بسببه . فأن لا يتحرك شيء ولا يطلق صوتاً إنما كان نذيراً بالشر . شعر بتربص الخطر ، اللامرئي واللامحسوب . كان يرتاب بكتل الأشجار المضخمة وبالظلال الداكنة التي يمكن أن تحجب كل نوع من الأشياء الخطيرة .

ثم إن الطقس كان بارداً . فهنا لم يكن ثمة جانب دافىء من الخيمة للاقتراب منه إلتماساً للدفء . كان الصقيع بين أقدامه ، واستمر يرفع قدماً تلو الأخرى . لف ذيله الكث حوله لكي يغطيها ، وفي الوقت ذاته رأى مناماً . لم يكن فيه أي شيء غريب . ففي بصيرته الباطنية انطبعت سلسلة متتابعة من صور الذاكرة . رأى المخيم مرة أخرى ، ورأى الخيام ووهج النيران . سمع أصوات النساء الحادة ، وأصوات الرجال الأجشة وعواء الكلاب . كان جائعاً ، فتذكر قطع اللحم والسمك التي كانت تُرمى إليه . هنا لا لحم ، ولاشيء سوى الصمت المهدد عسير الهضم الذي لايؤكل .

إن ارتباطه قد جعله رخواً . واللا مسؤولية قد أضعفته . كان قد نسي كيفه يتدبر أموره بنفسه . كان الليل ينفغر حوله . إن حواسه المعتادة على همهمة وصخب المخيم ، المتعودة على التأثير المستمر للرؤى والأصوات ، قد تعطلت الآن . لم يكن هناك أي شيء لتفعله ولا شيء لتراه وتسمعه . كانت مشدودة لالتقاط بعض الانقطاعات في صمت

وسكون الطبيعة . كانت مروّعة بانعدام الفعل وبالشعور بشيء رهيب على وشك الحدوث . أطلق جفلة ذعر كبيرة . كان ثمة شيء ضخم عديم الشكل يندفع عبر مجال رؤيته .كان ظل شجرة أحدثه القمر الذي انقشعت الغيوم عن وجهه . ولما اطمئن ، صار يئن بصوت خافت ثم كبت الأنين خوفاً من أن يجذب انتباه الأخطار المحدقة .

أطلقت إحدى الأشجار ،التي كانت تتقلص في برد الليل صوتاً قوياً . كانت فوقه مباشرة . فعوى من خوفه . استولى عليه الذعر فجرى بشكل جنوني باتجاه القرية . انتابته رغبة طاغية لاتقاوم في حماية ورفقة الإنسان . ففي منخريه كانت رائحة دخان المخيم . في أذنيه كانت أصوات المخيم والصيحات تتصادى بصوت عالٍ . خرج من الغابة إلى الفسحة المضاءة بضوء القمر حيث لا ظلال ولا ظلمات . لكن لم تتبدى لعينيه أية قرية . لقد نُسي . والقرية رحلت .

توقف هروبه الجامح بغتة . إذ لم يكن ثمة مكان يهرب إليه . انسل يائساً عبر المخيم المهجور ، وهو يتشمم أكوام القمامة والأسمال البالية ومخلفات الآلهة . كم كان سيُسر بقعقعة الحجارة من حوله تقذفها إمرأة هندية غاضبة ، وكم سيُسر بيد غراي بيفر تنزل عليه في فورة غضب ، بينما سيكون قد رحب فرحاً بليب – ليب والقطيع الجبان المزمجر بأكمله . جاء إلى حيث كانت تنتصب خيمة غراي بيفر . جلس وسط الفراغ الذي كانت تشغله.صوّب أنفه نحو القمر . كانت حنجرته مصابة بتشنجات قاسية ، وفمه مفتوحاً ، وببكاء مكسور الفؤاد صار يفور بعزلته وخوفه ، بحزنه على كيتشي ، وكل أحزانه وتعاساته الماضية بالإضافة إلى توجه من المعاناة والأخطار القادمة . كانت أول

عواءة ذئب طويلة يطلقها ، أول عواءة بملء حنجرته ، أول عواءة دالة على الحزن .

بدد قدوم ضوء النهار مخاوفه ، لكنه زاد من عزلته . إن الأرض الجرداء التي كانت قبلئذ بوقت قصير مكتظة بالسكان قد فرضت عليه عزلته بقوة أكبر . فلم يحتج إلى كثير من الوقت لكي يحسم أمره . فاندفع إلى الغابة وتبع ضفة النهر نزولاً إلى الساقية . ظل يجري طوال النهار لم يسترح ،فقد بدا وكأنه قرر أن يجري إلى الأبد . إن جسمه الحديدي قد تناسى التعب . وحتى بعد أن جاء التعب ، فان ميراثه من التحمل قد شجعه للسعي بلا نهاية ومكّنه من دفع جسمه الشاكي قدماً. حيثما كان النهر يتلوى مقابل الجروف العالية شديدة الانحدار كان يتسلق الجبال العالية وراءها . وكان يخوض الأنهار والسواقي التي ترفد النهر الرئيسي أو يسبح عبرها . وفي أغلب الأحيان كان يلجأ إلى جليد الحواف الذي كان قد بدأ يتشكّل ، وفي أكثر من مرة انخسف به الجليد وصارع من أجل الحياة في التيار الجليدي . لقد كان دائماً في حالة بحث عن درب الآلهة حيث يمكنه أن يغادر النهر ويتجه براً .

كان وايت فانغ ذا ذكاء يفوق ذكاء أفراد نوعه،مع أن رؤيته العقلية لم تكن واسعة بما يكفي لاستلام الضفة الأخرى من نهر ماكنزي . فماذا لو أن درب الآلهة كان ينتهي على ذاك الجانب ؟ لم يرد ذلك إلى ذهنه. فيما بعد عندما كان قد سافر أكثر وصار أكبر سناً وأكثر حكمة وتوصل إلى معرفة المزيد من الدروب والأنهار صار بوسعه أن يفهم مثل هذه الإمكانية . لكن تلك القدرة العقلية كانت لاتزال في المستقبل . أما

الآن فقد كان يجري بشكل أعمى ، وحدها ضفته ، ضفة نهر ماكنزي، كانت تدخل في حساباته .

طوال الليل كان يجري ، متخبطاً في الظلام في حوادث مؤسفة وعوائق تؤخره ولكنها لاتثبط الهمة . في منتصف اليوم الثاني استمر يجري لمدة ثلاثين ساعة ، وكان عزمه قد بدأ ينفذ . كان تحمل عقله هو الذي يبقيه مستمراً في المسير . لم يكن قد تناول طعاماً خلال أربعين ساعة وكان قد أوهنه الجوع ، إن التبللات المتكررة في الماء الجليدي كان لها على نحو مشابه ، تأثيرها عليه . فقد توحّل فراؤه الأنيق . وأصيبت لبادات أقدامه بالرضوض وصارت تنزف . كان قد بدأ يعرج وكان هذا العرج يزداد مع مضي الساعات . وزيادة في الطين بلة ، فقد كان ضوء السماء باهتاً وبدأ الثلج يتساقط — كان ثلجاً قارساً ، رطباً ، ذائباً ، زلقاً تحت الأقدام ، مما كان يحجبه عن المشهد الذي كان يجتازه ، والذي كان يغطي على تضاريس الأرض ، لذلك فقد كان وقع أقدامه أكثر صعوبة وإيلاماً .

كان غراي بيفر قد قرر التخييم في تلك الليلة على الضفة البعيدة لنهر ماكنزي ، لأنه في ذاك الاتجاه كان يوجد الصيد . أما على الضفة القريبة ، وقبل حلول الظلام بوقت قصير ، كان هناك موظ قادم لكي يشرب ، وكان تحت المراقبة من قبل كلوكوتش ، زوجة غراي بيفر . والآن لو لم يأتِ الموظ ليشرب ولو لم يخرج ميت — ساه عن المسار بسبب الثلج ، ولو لم تبصر كلوكوتش الموظ ، ولو لم يقتله غراي بيفر بطلقة صائبة من بارودته ، لحدثت كل الأشياء اللاحقة على نحو مختلف . وما كان غراي بيفر قد خيمّ على الجانب القريب

لنهر ماكنزي،ولكان وايت فانغ قد مر وتابع مسيره ، إما ليموت أو يجد طريقه إلى أخوته البريين وليصبح واحداً منهم — ذئباً حتى آخر أيامه .

هبط الليل ، كان الثلج يتطاير بتثاقل أكثر،أما وايت فانغ الذي كان يئن بصوت خافت لنفسه بينما كان يتعثر ويعرج ، فقد صادف درباً طرياً في الثلج . كان طرياً للغاية لدرجة أنه قد تعرف عليه فوراً . وبينما كان يتحب بلهفة أقفل عائداً يتتبع الدرب من ضفة النهر عبر الأشجار . فتناهت إلى مسمعيه أصوات المخيم . رأى وهج النار ، وكلوكوتش تطبخ وغراي بيفر مقرفصاً على مأبضيه ويمضغ بصوت طاحن قطعة غليظة من الشحم الحيواني النيء . كان ثمة لحم طازج في المخيم !

توقع وايت فانغ ضربة.فجثم وانتصب شعره قليلاً لدى تفكيره بذلك ثم تقدم مرة أخرى . خاف ، وكان يكره الضرب الذي كان يعرف أنه بانتظاره . ولكنه كان يعرف ، علاوة على ذلك ، أن راحة النار ستكون راحته ، وحماية الآلهة ، ورفقة الكلاب — حيث إن هذه الأخيرة هي رفقة العداوة ، ولكنها ، مع ذلك ، رفقة مشبعة لحاجاته القطيعية .

جاء منكمشاً من الخوف متذللاً وهو يدب نحو ضوء النار . رآه غري بيفر وتوقف عن مضغ قطعة الشحم.صار وايت فانغ يدب ببطء متذللاً ومنبطحاً بخسة ذله وخنوعه . دب مباشرة باتجاه غراي بيفر ، وفي كل إنش يتقدمه يصبح أبطأ وأكثر تألماً . أخيراً استلقى

عند قدمي صاحبه وقد أسلم نفسه الآن لملكيته ، بشكل طوعي ، جسداً وروحاً . لقد جاء باختياره ليجلس قرب نار الإنسان وليكون محكوماً من قبله . كان وايت فانغ يرتجف ، بانتظار العقوبة التي ستنزل عليه .

كان ثمة حركة يد فوقه . انكمش بشكل لا إرادي تحت الضربة المتوقعة . لم تقع . استرق نظرة إلى الأعلى . كان غراي بيفر يقطع كتلة الدهن إلى نصفين ! وكان غراي بيفر يقدم اه قطعة من تلك الدهنة ! بلطف شديد وبارتياب من نوع ما ، قام أولاً بشم الدهنة ثم باشر بأكلها .

طلب غراي بيفر أن يُحضر له لحم ، وقام بحراسته من الكلاب الأخرى بينما كان يأكل.بعد ذلك،اضطجع وايت فانغ،ممتناً وراضياً، عند قدمي غراي بيفر ، محدقاً إلى النار التي دفأته ، وهو يغمز بعينيه ويغفو ، شاعراً بالآمان لمعرفته أن الغد سيلقاه ، ليس هائماً شبه يائس عبر امتدادات الغابة المكشوفة ، بل في مخيم الحيوانات — البشر ، مع الآلهة التي أسلم نفسه لها ، والتي صار يعتمد عليها الآن .

* * *

الفصل الثالث عشر

الميثـــــاق

عندما كان شهر كانون الأول في عزّه ، ذهب غراي بيفر في رحلة صاعداً نهر ماكنزي . وذهب معه ميت — ساه وكلوكوتش . فقاد بنفسه مزلجة واحدة تجرها الكلاب كان قد اشتراها أو استعارها . فيما قاد ابنه ميت — ساه مزلجة ثانية أصغر حجماً شد إليها فريق من الجراء . كانت المسألة مسألة لعب أكثر من أي شيء آخر ، مع أنها كانت فرحة لميت — ساه الذي شعر أنه قد بدأ يقوم بعمل الرجال في العالم . كذلك ، فقد كان يتعلم أن يسوق الكلاب وأن يدربها ، في حين أن الجراء نفسها كانت تروض على العدة . وعلاوة على ذلك ، فقد كان للمزلجة بعض الفوائد لأنها كانت تحمل حوالي مئتي باونداً من العدد والطعام .

كان وايت فانغ قد شاهد كلاب المخيم تكدح في السخرة لذلك فإنه لم يمتعض كثيراً من وضع العدة علية لأول مرة . فحول رقبته وضعت قبة محشوة بالطحلب ربُطت بقشاطي جر إلى طوق يمر حول صدره وفوق ظهره . وإلى هذا الطوق ربط حبل طويل كان يجر به إلى المزلجة .

كان ثمة سبعة جراء في الطريق . آما الجراء الأخرى فقد ولدت قبل تسعة وعشرة أشهر من ذاك العام، في حين كان وايت فانغ يبلغ من العمر ثمانية أشهر فقط . كان كلب مربوطاً إلى المزلجة بحبل مفرد . إذ لم يكن يوجد حبلان من نفس الطول ، في حين أن الفرق في الطول بين أي حبلين كان يساوي على الأقل طول جسم الكلب . كان كل حبل يمرر إلى حلقة في الطرف الأمامي للمزلجة ، كانت المزلجة نفسها بدون سكتين جانبيتين ، نظراً لكونها مصنوعة من لحاء البتولا ، ذات نهاية مقلوبة إلى الأعلى لمنعها من الانغراز تحت الثلج ، هذه البنية تجعل من الممكن لوزن المزلجة والحمولة أن يتوزع على سطح أكبر ، لأن الثلج كان مسحوقاً بلورياً ورخواً جداً . بمراعاة المبدأ نفسه على توزع أوسع للثقل كانت الكلاب تتفرع عند أطراف حبالها على النمط المروحي من مقدمة المزلجة بحيث لا يسير أي كلب على خطى كلب آخر .

وعلاوة على ذلك ، فقد كان ثمة ميزة أخرى في التشكيل المروحي. فالحبال ذات الأطوال المتفاوتة تمنع مهاجمة الكلاب التي في الخلف للكلاب التي في المقدمة . فلكي يقوم كلب بمهاجمة آخر ، سيكون عليه أن يلتفت إلى كلب ذي حبل أقصر . في هذه الحالة سيجد نفسه في مواجهة سوط السائق . ولكن الميزة الأكثر خصوصية لكل ذلك تكمن في حقيقة أن الكلب الذي يسعى لمهاجمة كلب آخر أمامه يتعين عليه أن يجر المزلجة بشكل أسرع ، وكلما زادت سرعة المزلجة استطاع الكلب المهاجم أن يهجم أسرع . وبذلك لا يستطيع الكلب الذي في الخلف أن يمسك بالكلب الذي في الأمام أبداً . فكلما أسرع في الجري،

أسرع الكلب الذي خلفه ، وأسرعت كل الكلاب . كانت المزلجة تسرع ، بشكل عرضي ، وبالتالي كان الرجل يزيد من سيطرته على الوحوش بواسطة الطيش الخادع .

كان ميت – ساه يشبه أباه ، فقد كان يمتلك الكثير من حكمته الكثيبة . في الماضي لاحظ اضطهاد ليب – ليب لوايت فانغ ، لكن ليب – ليب كان في ذاك الوقت كلبَ إنسان آخر ، ولم يكن ميت – ساه يجرؤ على أكثر من قذف حجر عارض عليه . لكن ليب – ليب هو الآن كلبه ، فبدأ يمارس انتقامه عليه بوضعه عند طرف الحبل الأول . وهذا ما جعل ليب – ليب القائد ، وكان هذا في الظاهر شرف ، لكنه في الواقع سحب منه كل الشرف . وبدلاً من كونه متنمراً ومتسيّداً على القطيع وجد نفسه الآن مكروهاً ومضطهداً من قبل القطيع .

ولأنه كان يسير في نهاية أطول حبل ، فقد كانت الكلاب تراه دائماً وهو يفر أمامها . كل ما كانت تراه منه هو ذيله الكث وساقيه الخلفيتين الهاربتين – وهو منظر أقل شراسة ورعباً بكثير من عرفه المنتصب الشعر وأنيابه المكشرة . كذلك ، نظراً لتركيبة الكلاب العقلية هكذا ، فإن رؤيته وهو يفر مبتعداً أمامها تخلق لديهم الرغبة في الجري وراءه وشعوراً بأنه يفر منهم .

في لحظة إقلاع المزلجة ، حذا الفريق حذو ليب – ليب في مطاردة امتدت طوال النهار . في البداية ، كان عرضة لأن يلتفت إلى مطارديه الشاعرين بالغيرة من منزلته والشديدي الغضب ، ولكن ميت – ساه

في مثل هذه الحالات يقوم بقذف سوطة لاسعة من سوط مصران الرنة البالغ طوله ثلاثين قدماً في وجهه ويرغمه على فتل ذيله والمتابعة قدماً . قد يواجه ليب — ليب القطيع ، لكنه لا يستطيع أن يواجه ذاك السوط ، وكل ما يتبقى أمامه ليفعله هو أن يبقي حبله الطويل مشدوداً وخاصرتيه بعيداً عن أسنان رفاقه .

ولكن كان ثمة الكثير من المكر لايزال كامناً في أعماق العقل الهندي. فلإعطاء هدف للمطاردة اللامنتهية للقائد ، كان ميت ساه يفضله على الكلاب الأخرى . هذه التفضيلات كانت تثير لديهم الغيرة والكراهية. في حضورهم كان ميت — ساه يعطيه اللحم ويعطيه له وحده . كان هذا مثيراً للجنون بالنسبة لهم . فكانوا يهتاجون خارج مطال السوط ، بينما يقوم ليب — ليب بالتهام اللحم ويقوم ميت — ساه بحمايته . وعندما لايكون هناك لحم ليُعطى ، كان ميت — ساه يبقي الفريق على مسافة ويوهمهم بأنه يعطي اللحم إلى ليب — ليب . اعتاد وايت فانغ على العمل برحابة صدر . كان قد قطع شوطاً أكبر مما قطعت الكلاب الأخرى في تسليمه لنفسه إلى حكم الآلهة،وكان قدتعلّم بشكل أكثر شمولية أن لاجدوى منمعارضة إرادتها . بالإضافة إلى ذلك، فان الاضطهاد الذي عاناه من القطيع قد جعل القطيع أدنى قيمة بالنسبة له في نظام الأشياء وجعل الإنسان أعلى قيمة . لم يكن قد تعلم أن يكون متكلاً على بني نوعه من أجل الرفقة . بالإضافة إلى ذلك ، فقد كانت كيتشي منسية تقريباً ، والسبيل الرئيسي الذي تبقى له للتعبير كان في الولاء الذي قدمه للآلهة الذين قبل بهم باعتبارهم أسياده . لذلك فقد كان يعمل بجد، وتعلّم الأنضباط ، وكان مطيعاً . كان الإخلاص والرغبة

في العمل يميزان كدحه . وهاتين صفتين أساسيتين للذئب والكلب البري عندما أصبحا داجنين ، وهاتين الصفتين كان وايت فانغ يمتلكهما بدرجة غير عادية .

كانت الرفقة موجودة بين وايت فانغ والكلاب الأخرى، لكنها كانت رفقة الحرب والعداوة . لم يكن قد تعلم أبداً أن يلعب معهم . كان يعرف فقط كيف يعارك ، وقد تعارك معهم . معيداً إليهم الصاع مئة صاع من العضات والضربات التي سددوها له في تلك الأيام عندما كان ليب – ليب قائداً للقطيع . لكن ليب – ليب لم يعد قائداً – إلا عندما كان يفر أمام رفاقه في طرف حبله والمزلجة تنط خلفهم . في المخيم كان يظل قريباً من ميت – ساه أو غراي بيفر أو كلوكوتش . لم يكن يجرؤ على المغامرة بالابتعاد عن الآلهة ، لأن أنياب كل الكلاب كان ضده الآن ، وقد ذاق حتى الحثالة طعم الإضطهاد ، الذي كان اضطهاد وايت فانغ .

مع هزيمة ليب– ليب ، استطاع وايت فانغ أن يصبح قائداً للقطيع . لكنه كان نكد المزاج أكثر مما ينبغي ، ومعتزلاً أكثر مما ينبغي من أجل ذلك . كان يضرب زملاءه فحسب ، أو كان يتجاهلهم . كانوا يخرجون من طريقه عندما يأتي ، ولم يجرؤ أشجعهم على سلبه قطعة لحم واحدة . بالمقابل ، كانوا يلتهمون حصتهم من اللحم على عجل خوفاً من أن ينتزعها منهم. كان وايت فانغ يعرف القانون جيداً : سحق الضعيف وإطاعة القوي . كان يأكل حصته من اللحم بسرعة قدر المستطاع . ثم، ويل للكلب الذي لا يكون قد انتهى بعد ! زمجرة فتكشيرة أنياب ، ويبكي ذاك الكلب نقمته للنجوم المزعجة بينما يقوم وايت فانغ بالإجهاز على القطعة المخصصة له .

مع ذلك ، ففي كل لحظة يثور كلب أو آخر ويتم قمعه فوراً . وبذلك بقي وايت فانغ في حالة تدريب. كان يغار من العزلة التي وضع نفسه فيها وسط القطيع وغالباً ما كان يقاتل للحفاظ عليها . لكن مثل هذه القتالات كانت قصيرة الأجل. كان سريعاً أكثر مما ينبغي بالنسبة للآخرين ، كانوا يضربون بشكل مفتوح حتى تسيل دماؤهم قبل أن يعرفوا ما الذي حدث ويُساطون حتى قبل أن يكونوا قد بدأوا القتال .

كان الإنضباط المزلجي للآلهة صارماً ، ذاك الإنضباط الذي حافظ عليه وايت فانغ بين زملائه.فلم يكن يسمح لهم أبداً بأية حرية في العمل أو الإختيار . كان يقسرهم على الاحترام المتواصل له . ويجوز لهم أن يفعلوا مايحلو لهم فيما بينهم . فهذا لم يكن يهمه في شيء . ولكن الذي يهمه هو أن يدعوه وحيداً في عزلته وأن يخرجوا من طريقه عندما يختار أن يمشي بينهم ، وأن يعترفوا في كل الأوقات بسيادته عليهم . فلدى أية إشارة على إظهار التحدي من طرفهم أو افترار شفة أو انتصاب شعر ، كان ينقض عليهم ، بلارحمة وبقسوة ، فيقنعهم سريعاً بضلالهم . كان طاغية رهيباً . كانت سيادته صلبة كالفولاذ . كان يقمع الضعيف بانتقام . ليس عبثاً أنه تعرض للصراع الذي لا يرحم من أجل الحياة في أيام جرويته،عندما صمد وأمه، وحيدين وعاجزين ، ونجيا من الموت في البيئة الضارية للبرية . وليس عبثاً أنه قد تعلم أن يمشي خلسة عندما تمر به قوة عليا متفوقة عليه . كان يضطهد الضعيف ، ولكنه كان يحترم القوي . وفي خضم الرحلة الطويلة مع غراي بيفر كان يسير بخفة بين الكلاب البالغة في مخيمات الحيوانات — البشر الغريبة التي صادفها .

مرت الشهور ،واستمرت رحلة غراي بيفر . كانت قوة وايت فانغ تنمو بفعل الساعات الطوال التي أمضاها على الدروب والكدح المضطرد على المزلجة ، كان يبدو أن تطوره العقلي كان مكتمل تقريباً . فقد توصل إلى المعرفة الشاملة للعالم الذي يعيش فيه . كانت نظرته كئيبة ورمادية . فالعالم كما كان يراه كان عالماً شرساً ووحشياً ، عالماً بلا دفء ، لا مكان فيه للمداعبات والحنان وحلاوة الروح المشرقة .

لم يكن لديه أي عطف على غراي بيفر . في الحقيقة ، كان إلهاً ، لكنه إله في ذروة وحشيته. كان وايت فانغ مسروراً للاعتراف بسيادته ، لكنها كانت سيادة تقوم على ذكاء خارق وقوة وحشية . كان ثمة شيء في نسيج تكوين وايت فانغ يجعل من سيادته شيئاً مرغوباً،وإلا لما كان قد عاد من البرية ليقدم ولاءه . كان ثمة أشياء عميقة في طبيعته لم يتم الإعلان عنها . إن كلمة لطيفة ، لمسة مداعبة ، من طرف غراي بيفر ، كان من الممكن أن تكشف عن هذه الأشياء العميقة ، لكن غراي بيفر لم يكن يداعب ولا يتفوه بكلمات لطيفة . لم تكن عادته . كانت اسبقيته همجية ، وبهمجية كان يحكم ، منفذاً حكم العدالة بالعصا ، معاقباً الانتهاك بألم الضرب ، ومكافئاً الفضيلة ليس باللطف ، بل بسحب الضربة . لذلك،فإن وايت فانغ لم يكن يعرف شيئاً البتة عما يمكن ليد الانسان أن تحمل له . بالإضافة إلى ذلك ، فإنه لم يكن يحب أيدي الحيوانات — البشر . كان شكاكاً بها . صحيح أنها ، في بعض الأحيان ، تعطي اللحم ، ولكنها غالباً ما تعطي الألم . فالأيدي أشياء يجب الابتعاد عنها . فهي تقذف الحجارة ، تدبر العيدان والعصي

والسياط ، وتنزل الضربات واللكمات ، وعندما تلمسه ، تكون ماكرة في إنزال الألم بالقرص والفتل واللي .

في القرى الغريبة صادف أيدي الأطفال وتعلم أنها فظة وتؤلم كذلك . كادت ذات مرة أن تقتلع عينه من قبل طفل هندي يتهادى في مشيته . من هذه الخبرات أصبح شكاكاً بكل الأطفال . لم يكن بوسعه أن يتحملهم . فعندما كانوا يقتربون بأيديهم المنذرة بالشر كان ينهض .

في قرية على بحيرة العبد الكبرى ، وفي خضم الاستياء من شر أيدي الحيوانات ـــ البشر ، توصل إلى تعديل للقانون الذي كان قد تعلمه من غراي بيفر ، وهو أن جريمة عض أحد الآلهة هي الجريمة التي لا تغتفر . في هذه القرية ، وجرياً على عادة كل الكلاب في كل القرى ، ذهب وايت فانغ التماساً للطعام .

كان هناك صبي يقطع لحمة موظ مجلدة بفأس وكانت الشرائح تتطاير على الثلج.إن وايت فانغ الذي كان يتسلل طلباً للحم توقف وبدأ يأكل الشرائح . لاحظ الصبي وهو يضع الفأس ويمسك بعصا متينة.فوثب وايت فانغ بسرعة في اللحظة المناسبة هرباً من الضربة النازلة عليه . لحق به الصبي ، أما هو ، ولكونه غريباً في القرية ، فقد فر بين الخيام ليجد نفسه محصوراً بضفة ترابية مرتفعة . لم يكن أمام وايت فانغ أي مهرب.كان المخرج الوحيد له بين خيمتين ، وهذا المخرج كان محمياً من قبل الصبي الذي انقض على طريدته المحشورة وهو يمسك بالعصا استعداداً للضرب.كان وايت فانغ شديد الغضب .

واجه الصبي مزمجراً منتصب الشعر ، وقد انتُهك مفهومه للعدالة . كان يعرف قانون التماس الطعام . فكل نفايات اللحم ، كتلك الشرائح المتجمدة ، تؤول إلى الكلب الذي يعثر عليها . هو لم يرتكب خطأً ، ولم يخرق قانوناً ، ومع ذلك فإن هذا الصبي ، هنا ، كان يستعد لتسديد ضربة إليه.عرف وايت فانغ بصعوبة بما حدث . لقد فعل ذلك في فورة غضب شديدة . وقد فعل ذلك بسرعة بالغة بحيث أن الصبي لم يعرف أيضاً . كل ما عرفه الصبي هو أنه بطريقة لا يمكن وصفها قد انقلب الثلج ، وأن يده الممسكة بالعصا قد جرحت جرحاً واسعاً بأسنان وايت فانغ .

لكن وايت فانغ عرف أنه قد خرق قانون الآلهة.فقد أنشب أسنانه في اللحم المقدس لأحد الآلهة ، ولم يكن بوسعه أن يتوقع سوى أشنع العقاب . ففر إلى غراي بيفر ، وقرفص خلف ساقيه الواقيتين عندما جاء الصبي المعضوض وجاءت أسرة الصبي طلباً للثأر . لكنهم ولّوا دون أن يشفوا غليلهم . فقد دافع غراي بيفر عن وايت فانغ.وكذلك فعل ميت – ساه وكلوكوتش.إن وايت فانغ الذي كان يصغي إلى الحرب الكلامية ويراقب الايماءات الغاضبة ، عرف أن فعلته لم يكن لها ما يبررها . وهكذا حدث له أن تعلم أن ثمة آلهة وآلهة . فهناك آلهته ، وهناك آلهة أخرى ، وبينهما يوجد اختلاف . والعدل أو الظلم ، كله سواء ، يجب عليه أن يأخذ كل الأشياء من أيدي آلهته هو . لكنه لم يكن مجبراً على تلقي الظلم من الآلهة الأخرى . لقد كان امتيازاً له أن يستاء منه بأسنانه . وكان هذا ، أيضاً ، قانوناً من قوانين الآلهة .

قبل انقضاء النهار، كان على وايت فانغ أن يتعلم المزيد حول هذا القانون . إن ميت ــ ساه ، وحده ، وكان يجمع الحطب في الغابة ، قد صادف الصبي الذي كان قد تعرض للعض . كان معه صبية آخرون . تبادلوا الكلمات النابية . ثم قام الصبيان كلها بمهاجمة ميت ــ ساه . كان الأمر قاسياً عليه . فقد كانت الضربات تنهال من كل الجهات . كان وايت فانغ أول من أطل. كان ذلك شأن الآلهة وليس شغله . ثم تأكد أن هذا ميت ــ ساه ، أحد آلهته الخاصين ، تُساء معاملته . لم يكن دافعاً مبرراً ما جعل وايت فانغ يفعل فعله آنذاك. فدفعته نوبة غضب مجنونة للقفز بين المتقاتلين . بعد ذلك بخمس دقائق كان المشهد مغطى بالصبيان الفارين الذين كان الكثيرون منهم ينزفون على الثلج كعلامة على أن أسنان وايت فانغ لم تكن عديمة الجدوى. عندما حكى ميت ــ ساه قصته في المخيم ، طلب غراي بيفر لحماً لوايت فانغ. طلب أن يُعطى لحماً كثيراً، أما وايت فانغ الذي كان متخماً ينام قرب النار فقد عرف أن القانون قد تحقق .

بالتوازي مع هذه الخبرات توصل وايت فانغ إلى تعلم قانون الملكية وواجب الدفاع عن الملكية . فمن حماية جسد إلهه إلى حماية أملاكه كان ثمة خطوة ، وقد قام بهذه الخطوة . فما هو لإلهه يتعين الدفاع عنه ضد كل العالم ــ حتّى إلى درجة القيام بعض الآلهة الآخرين . إن هذا لم يكن فقط جرماً تدنيسياً بطبيعته فحسب ، بل كان محفوفاً بالخطر أيضاً . الآلهة كلية القدرة، والكلب لاشيء بالقياس إليها ، مع أن وايت فانغ تعلم أن يواجهها مولعاً بالقتال وغير خائف. فالواجب يعلو على الخوف، والآلهة السارقة تعلمت أن تترك ملكية غراي بيفر وشأنها.

ثمة شيء واحد ، بهذا الخصوص، تعلمه وايت فانغ بسرعة وهو أن الإله السارق يكون في العادة إلهاً جباناً وعرضة للفرار لدى سماعه لصوت الإنذار . كذلك فقد تعلم أنه لا ينقضي سوى وقت قصير بين إطلاقه للإنذار وقدوم غراي بيفر لنجدته . وتوصل إلى معرفة أن الخوف منه ليس هو ما يبعد اللص بل الخوف من غراي بيفر . إن وايت فانغ لم يكن يعطي الإنذار عن طريق النباح. فهو لا ينبح أبداً.

كان أسلوبه هو أن ينقض على الدخيل ويغرز أسنانه فيه إذا استطاع ذلك . ولأنه كان نكد المزاج ومتوحداً ولم تكن لديه أية علاقة مع الكلاب الأخرى ، فقد كان مناسباً بشكل غير عادي لحراسة ملكية سيده ، وفي هذا لقي التشجيع والتدريب من قبل غراي بيفر . كانت نتيجة ذلك أن صار وايت فانغ شرساً ولا يقهر وأكثر توحداً وعزلة .

ومرت الشهور ، معززة ، أكثر فأكثر ، الميثاق بين الكلب والإنسان . كان هذا هو الميثاق القديم الذي دخل به مع الإنسان أول ذئب جاء من البرية ومثل كل الذئاب والكلاب البرية اللاحقة التي حذت حذوه ، أوجد وايت فانغ الميثاق لنفسه . كانت البنود بسيطة . فمقابل الحصول على إله من لحم ودم دفع حريته . أما الطعام والنار والحماية والرفقة فكانت بعضاً من الأشياء التي يتلقاها من الإله. وهو بدوره يقوم بحراسة ملكية الإله ويدافع عن جسده ويعمل لصالحه ويطيعه .

إن امتلاك إله يقتضي الخدمة. كانت خدمة وايت فانغ هي خدمة واجب وخشية وليست خدمة حب . فهو لا يعرف ما هو الحب .

وليست لديه خبرة بالحب . كانت كيتشي ذكرى بعيدة . بالإضافة إلى ذلك ، فهو لم يهجر البرية وبني نوعه عندما أسلم نفسه للإنسان فحسب ، بل إن بنود الميثاق كانت تقضي بأنه إذا صادف كيتشي مرة أخرى فلن يتخلى عن إلهه ليذهب معها . إن ولاءه للإنسان يبدو بشكل ما قانوناً ينص على كونه أعظم من حب الحرية وحب بني نوعه وأقاربه .

الفصل الرابع عشر

المجـــاعـــة

كان الربيع وشيكاً عندما أنهى غراي بيفر رحلته الطويلة . كان شهر نيسان وكان عمر وايت فانغ سنة واحدة عندما دخل القرية ــ الوطن وفكه ميت ــ ساه عن عدة المزلجة. مع أن وايت فانغ كان على مسافة طويلة من اكتمال نموه ، فقد كان ، بعد ليب ــ ليب ، أكبر حولي في القرية . لقد ورث القوام والقوة عن أبيه الذئب وعن كيتشي . وكان يتفوق على الكلاب البالغة . لكنه لم يكن قد أصبح مكتنزاً بعد . كان جسمه نحيلاً وممشوقاً ، وقوته أكثر اعتماداً على العضلات المفتولة من اعتمادها على الضخامة . كان جلده جلد ذئب رمادي حقيقي ، وكان ذئباً حقيقياً بكل المقاييس . إن ربع الصفات الوراثية للكلب الذي ورثه عن كيتشي لم يترك أي علامة جسدية عليه ، مع أنه قد لعب دوراً في تكوينه العقلي .

صار يتجول في القرية ، متعرفاً برضا مؤجل على مختلف الآلهة الذين كان قد عرفهم قبل الرحلة الطويلة . وكان ثمة كلاب ، جراء تكبر مثله ، وكلاب بالغة لم تكن تبدو ضخمة ورهيبة مثل صور الذاكرة التي كان يحفظها عنهم . كذلك ، كان أقل خوفاً منهم عما كان في السابق ، فصار يتمشى بينهم بسهولة لا مبالية كانت جديدة

عليه بقدر ما كانت مبهجة له . كان هناك باسيك ، وهو زميل عجوز أشيب لم يكن عليه في أيام شبابه إلا أن يكشر عن أنيابه لجعل وايت فانغ ينكمش خوفاً ويجثم أرضاً . تعلم منه كثيراً من لامبالاته ، ومنه أيضاً كان عليه أن يتعلم كثيراً من التغير والتطور الذي حدث لديه نفسه . في حين كان باسيك يزداد ضعفاً مع تقدم السن، كان وايت فانغ يزداد قوة مع الشباب .

عرف وايت فانغ بالعلاقات المتغيرة التي دخل بها إلى عالم الكلاب لدى تقطيع موظ مقتول حديثاً . كان قد حصل لنفسه على حافر وجزء من عظم الساق (الظنبوب) الذي كانت قطعة صغيرة من اللحم عالقة به . وقد انسحب من المزاحمة الشديدة للكلاب الأخرى — في الواقع أنه اختفى عن الأنظار خلف دغلة . وصار الآن يلتهم غنيمته ، عندما هجم عليه باسيك . قبل أن يعرف ما الذي يفعله ضرب الدخيل ضربتين وقفز هارباً . فوجىء باسيك بتهوره وسرعة هجومه. وقف محملقاً ببلاهة إلى وايت فانغ والظنبوبة الحمراء لا تزال بينهما .

كان باسيك عجوزاً ، وقد توصل للتو إلى معرفة البسالة الزائدة للكلب الذي كان ميالاً إلى التنمر . إنها تجارب مرة هذه التي تجرعها بالقوة مستدعياً كل حكمته لكي يتلاءم معها . في الأيام الخوالي ، كان ينقض على وايت فانغ في فورة غضب مبررة أخلاقياً. أما الآن فإن قواه الواهنة لا تسمح له بسلوك كهذا . انتصب شعره بشراسة ونظر بشكل منذر بالشر عبر الظنبوبة إلى وايت فانغ. أما وايت فانغ،

الذي كان يبعث قدراً من الرهبة القديمة ، فقد بدا أنه يذوي وينكمش على نفسه ويصغر ، بينما كان يفتش في ذهنه عن طريقة للتراجع بشكل أقل خزياً .

وهنا بالضبط أخطأ باسيك . فلو اكتفى بالظهور بمظهر شرس منذر بالشر لكان كل شيء على ما يرام . ولكان وايت فانغ ،الذي كان على وشك التراجع ، قد تراجع تاركاً له اللحم . لكن باسيك لم ينتظر ، معتبراً أن النصر له تماماً ، وتقدم باتجاه اللحم . وبينما كان يخفض رأسه بلا مبالاة لكي يشمه انتصب شعر وايت فانغ قليلاً .حتى ذاك الوقت لم يكن الوقت قد فات كثيراً من أجل باسيك لكي ينقذ الوضع . فلو اكتفى بالوقوف فوق اللحم رافعاً رأسه ومحدقاً لكان وايت فانغ قد انسل هارباً في النهاية . لكن اللحم الطازج كان قوياً في منخري باسيك ، فحثه الجشع لكي يأخذ منه قضمة .

كان ذلك كثيراً جداً على وايت فانغ .فنظراً للأشهر القليلة من سيادته على زملائه ، كان بعيداً عن ضبط النفس أن يقف جانباً مكتوف الأيدي فيما يقوم آخر بالتهام اللحم الذي يخصه وحده . فهجم دون إنذار ، جرياً على عادته . مع الضربة الأولى كانت أذن باسيك اليمنى مشقوقة إلى عدة شقوق طولانية . لقد صعق لمباغتتها . فسقط على أقدامه . وتلقى عضة في بلعومه . وبينما كان يصارع للوقوف على أقدامه أنشب الكلب أسنانه مرتين في كتفه . كانت سرعة الإنشاب مربكة . فقام بهجمة غير ذات جدوى على وايت فانغ ،مطبقاً فكيه على الهواء الفارغ بعضة حانقة . في اللحظة التالية شق أنفه فتراجع مترنحاً بعيداً عن اللحم .

بات الوضع معكوساً الآن.وقف وايت فانغ فوق عظمة الظنبوب منتصب الشعر مهدداً ، في حين وقف باسيك بعيداً قليلاً مستعداً للتراجع .لم يجرؤ على خوض قتال مع ومضة البرق الفتية هذه ، ومرة أخرى عرف بمرارة أكثر الضعف الذي أصابه مع تقدم العمر . كانت محاولته بطولية للدفاع عن كرامته . فمشى ببطء مبتعداً بجلال وهو يدير ظهره بهدوء للكلب الفتي والظنبوب ، كما لو كانا أدنى من أن يثيرا انتباهه ولا يستحقان الإعتبار . ولم يتوقف حتى غاب عن الانظار وصار يلعق جراحه النازفة .

كان من نتيجة ذلك على وايت فانغ إكسابه ثقة أكبر بنفسه وغروراً أكبر . فصار يمشي أقل خلسة بين الكلاب البالغة ؛ بات موقفه إزاءها أقل مساومة . ليس بمعنى أنه كان يحيد عن طريقه بحثاً عن المشاكل . فقد كان بعيداً عن ذلك . ولكنه كان يطلب الاعتبار والاحترام على طريقته .

أصر على حقه في المضي في طريقه دون مضايقة وألا يتنازل لأي كلب . كان من الواجب أن يؤخذ في الاعتبار أنه هنا كل شيء .

لم يعد من الممكن نبذه أو تجاهله كما هو مصير الجراء ، زملائه ، الذين كانوا يخرجون من الطريق ويخضعون للكلاب الكبيرة ويتخلون لهم عن اللحم تحت الإكراه . لكن وايت فانغ ،اللا أنيس ، المعتزل ، النكد المزاج ، الذي نادراً ما يتطلع يميناً أو شمالاً ، المهيب ، المحظر للمظاهر ، البعيد والغريب ، قد تم قبوله نداً من قبل من يكبرونه سناً في حيرة من أمرهم . لقد تعلموا بسرعة أن يتركوه وشأنه وألا

يخاطروا بأفعال عدوانية ولا أن يقوموا بعروض المودة . فإذا تركوه وشأنه كان يتركهم وشأنهم — وهي حالة من قضايا تبين أنها مرغوبة بشكل بارز بعد عدة لقاءات .

في منتصف الصيف كان وايت فانغ قد اكتسب خبرة. فبينما كان يخب سائراً بطريقته الصامتة لاستكشاف خيمة جديدة كانت قد نصبت على حافة القرية بينما كان بعيداً مع الصيادين الذين يطاردون موظاً ، صادف كيتشي فجأة . توقف ونظر إليها ، تذكرها بشكل مبهم ، ولكنه تذكرها ، وهذا أكثر ما يمكن قوله لأجلها . رفعت شفتها إليه بزمجرة توعد قديمة . فانقشعت ذاكرته . إن جرويته المنسية كل ما له صلة بتلك الزمجرة المألوفة ، قد عادت إليه بسرعة . وقبل ن يعرف الآلهة كانت كيتشي بالنسبة له ، هي محور الكون . راودته المشاعر الحميمة القديمة لذاك الزمن ، وصارت تجيش في داخله . قفز نحوها بابتهاج فلاقته بأنياب عنيفة فتحت خده حتى العظم . لم يفهم . تراجع مبتعداً مرتبكاً وحائراً . لكنها لم تكن غلطة كيتشي . فالذئبة الأم لم تتعود على تذكر جرائها منذ سن السنة أو قبلئذ . لذلك فهي لم تتذكر وايت فانغ. لقد كان حيواناً غريباً ودخيلاً ، ومواليدها الحاليين قد أعطوها الحق في الامتعاض من هذا التطفل .

دب أحد الجراء نحو وايت فانغ. كانا أخوين نصف شقيقين إلا أنهما لم يكونا يعرفان ذلك . تشمم وايت فانغ الجرو بفضول، وإذ ذاك انقضت عليه كيتشي جارحة وجهه للمرة الثانية . فتراجع مبتعداً . تلاشت كل الذكريات والتداعيات القديمة ودخلت في القبر الذي كانا قد بعثا منه . نظر إلى كيتشي وهي تلمس جروها وكانت تتوقف

من حين لآخر لكي تزجر به . كانت بدون قيمة بالنسبة له . لقد تعلم أن يمضي بدونها . كان معناها منسياً . لم يكن لها مطرح في مخطط أشياءه مثلما أنه لم يكن له مطرح لديها .

كان لا يزال واقفاً ، أبلهاً ومرتبكاً تراوده ذكريات منسية ، يتساءل ما كل هذا الذي يجري حوله ، عندما هاجمته كيتشي للمرة الثالثة بقصد طرده كلياً من جوارها.وسمح وايت فانغ لنفسه بأن يُطرد . فقد كانت أنثى من نوعه ، وكان قانون نوعه يقضي بأن لا يجوز للذكور أن يقاتلوا الإناث . لم يكن يعرف شيئاً عن هذا القانون ، لأنه لم يكن تعميماً على العقل ، وليس شيئاً يكتسب بالخبرة في العالم . كان يعرفة كتلقين سري ، كدافع للغريزة – للغريزة نفسها التي جعلته يعوي للقمر ونجوم الليل وجعلته يخاف الموت والمجهول .

ومرت الشهور.صار وايت فانغ أكثر قوة وثقلاً واكتنازاً ، في حين كانت شخصيته تتطور وفق خطوط رسمتها وراثته وبيئته . كانت وراثته مادة حياة يمكن تشبيهها بالصلصال . فهي تحمل إمكانات كثيرة ، وهي قابلة لأن تقولب بأشكال مختلفة كثيرة . إن البيئة قد خدمت في قولبة الصلصال . في إعطائه شكلاً خاصاً ، لذلك ، فلو لم يأتِ وايت فانغ إلى نيران الإنسان،لحولته البرية إلى ذئب حقيقي . لكن الآلهة منحته بيئة مختلفة ، فتم تحويله إلى كلب ذي صفات ذئبية إلى حد ما ، ولكنه كان كلباً وليس ذئباً .

وهكذا ، وفقاً لصلصال طبيعته وضغط الأشياء المحيطة به كانت شخصيته تتشكل على هيئة خاصة محددة . لم يكن هناك مفر من ذلك .

كان يصبح أكثر نكداً ، أكثر نفوراً ، أكثر اعتزالاً ، وأكثر شراسة . في حين كانت الكلاب تتعلم شيئاً فشيئاً أنه من الأفضل أن تكون في سلام معه من أن تكون في حالة حرب ، وكان غراي بيفر بصدد أن يقدره بشكل أكبر مع مرور كل يوم .

إن وايت فانغ الذي يبدو أنه يستجمع القوة في كل صفاته، لا داعي للقول أنه كان يعاني من نقطة ضعف واحدة مزعجة . فهو لم يكن بمقدوره أن يتحمل الضحك عليه . كان ضحك البشر شيئاً كريهاً . يمكنهم أن يضحكوا فيما بينهم على أي شيء يحلو لهم باستثنائه هو ، ولم يكن ليبالي بذلك . ولكن ما إن يتبيّن أن الضحك عليه حتى يدخل في نوبة غضب مرعبة . ولكونه رزيناً وجليلاً وكئيباً فقد كان الضحك يجعله مسعوراً إلى حد السخرية . وكان ذلك أيضاً يخرجه عن طوره ويزعجه بحيث أنه يتصرف مثل شيطان طوال ساعات . والويل للكلب الذي يعاكسه في مثل هذه الأوقات . كان يعرف القانون جيداً إلى درجة تمنعه من تطبيقه على غراي بيفر ، فوراء غراي بيفر كان ثمة عصا ورأس إله . أما وراء الكلاب فلم يكن سوى الفراغ ، وإلى هذا الفراغ كانوا يهربون عندما يأتي وايت فانغ إلى المشهدوقد أصبح مجنوناً بفعل الضحك .

في العام الثالث من حياته حصلت مجاعة كبيرة لهنود نهر ماكنزي. ففي الصيف نفذ السمك ، وفي الشتاء كانت الرنة تلتمس طريقها المعتاد . كانت حيوانات الموظ نادرة، والأرانب تكاد تختفي والحيوانات الصيادة والمفترسة قد هلكت . فنظراً لكونها قد حرمت من مورد

طعامها الاعتيادي ، وأضعفها الجوع ، صارت تهاجم وتفترس بعضها بعضاً . وحدهم الأقوياء هم الذين بقوا على قيد الحياة . كانت آلهة وايت فانغ حيوانات صيادة أيضاً . كان المسنون والضعفاء منهم يموتون من الجوع . كان ثمة عويل في القرية حيث هامت النساء،مع الأطفال على وجوههن فصار القليل الذي بحوزتهن يذهب إلى بطون الصيادين الضامرين الجشعين الذي كانوا يخبّون في الغابة في مطاردة اللحم بدون جدوى .

إلى هذا الحد دُفعت الآلهة فصارت تأكل الجلد اللين المدبوغ للموكاسنيات والقفازات . في حين كانت الكلاب تأكل السروج التي على ظهورها والسيور والسياط ذاتها . كذلك ، صارت الكلاب تأكل بعضها بعضاً ، والآلهة تأكل الكلاب . فكان الأضعف والأقل هيبة يؤكل أولاً . إن الكلاب التي كانت لا تزال حية نظرت وفهمت . فقامت قلة من أشجعها وأذكاها بالبحث عن مواقد الآلهة التي أصبحت خرائب الآن ، وفرت إلى الغابة حيث أنها ، في النهاية ، كانت تتضوّر جوعاً حتى الموت أو تأكلها الذئاب .

في زمن البؤس هذا ، انسل وايت فانغ أيضاً إلى الغابة. كان أنسب من الكلاب الأخرى للحياة لأنه كان يمتلك مِران جرويته (طفولته) ليهتدي به .لقد أصبح ماهراً بشكل خاص في مطاردة الكائنات الحية الصغيرة خلسة . فكان يكمن متخفياً لساعات ، يتابع كل حركة من حركات سنجاب الأشجار المحترس ، ينتظر بصبر فظيع ، كفظاعة الجوع الذي كان يعاني منه ، حتى يخاطر السنجاب بالنزول إلى

الأرض ، حتى أنذاك، لم يكن وايت فانغ متسرعاً . فكان ينتظر إلى أن يصبح متأكداً من أن المرور السريع أمام السنجاب يمكن أن يؤمن له مكمناً في الشجرة . عندئذ ، وليس قبلئذ ، كان تنقض من مخبئه ، قذيفة رمادية ، سريعة بشكل لا يصدق ، لا تخطىء هدفها أبداً — السنجاب الهارب الذي لا يهرب بسرعة كافية .

بالرغم من كونه موفقاً مع السناجب ، فقد كان ثمة مشكلة تمنعه من العيش عليها واكتناز اللحم . لم يكن يوجد سناجب كافية . لذلك فقد كان مجبراً على قنص الكائنات الأصغر حجماً ... أصبح جوعه شديداً في الأوقات التي لا يوفق فيها في اجتثاث فئران الغابة من جحورها في الأرض . ولم يكن يتوانى عن خوض معركة مع ابن عرس جائع مثله وأكثر شراسة منه بمرات عديدة .

في أسوأ فترات المجاعة كان يعود إلى السلب من مواقد الآلهة . لكنه لم يكن يدخل إلى المواقد . كان يكمن في الغابة متفادياً الانكشاف ، فيقوم بالسطو على الفخاخ في الفواصل الزمنية النادرة عندما يتم التقاط طريدة . حتى أنه سلب أرنباً من فخ غراي بيفر ذات مرة عندما كان غراي بيفر يترنح ويخب عبر الغابة ، فيجلس أغلب الأحيان لكي يرتاح من الضعف ومن انقطاع النفس .

ذات يوم صادف وايت فانغ ذئباً فتياً، هزيلاً ، أعجفاً ومخلوع المفاصل من الجوع . فلو لم يكن هو نفسه جائعاً ،لكان وايت فانغ قد ذهب معه ووجد طريقه أخيراً إلى القطيع بين أخوته البريين . ولكنه ، والحال هكذا ، قام بمطاردة الذئب وقتله وأكله .

بدا أن الحظ يسير إلى جانبه . كان يجد دائماً شيئاً ما ليقتله عندما تبلغ الحاجة إلى الطعام أشدّها . مرة أخرى ، عندما كان ضعيفاً ، كان من حسن حظه أن أياً من الحيوانات المفترسة الأكبر منه لم يصادفه . وهكذا أصبح قوياً من قوت اليومين الذي أمده به وشق ، عندما انقض عليه قطيع من الذئاب الجائعة بأقصى سرعة . كانت مطاردة طويلة وقاسية ، لكنه كان أكثر اقتياتاً منهم فسبقهم إليه أخيراً . ولم يسبقهم فحسب ، بل إنه مع توسيعه لدائرة الالتفاف والعودة إلى مساره السابق قد حصد أحد مطارديه المنهكين .

بعد ذلك غادر هذا الجزء من البلاد وارتحل إلى الوادي حيث مكان ولادته . هنا ، في العرين القديم ، صادف كيتشي . تمشياً مع حيلها القديمة فإنها ، أيضاً ، كانت قد هربت من المواقد الماحلة للآلهة وعادت إلى ملاذها القديم لتضع مولودها . من هذا البطن لم يتبق سوى فرخ صغير واحد حياً عندما دخل وايت فانغ إلى المسرح .وهذا الواحد لم يكن مقدراً له أن يعيش طويلاً فالحياة الفتية ليست لها سوى فرصة ضئيلة للنجاة في مثل هذه المجاعة .

كان استقبال كيتشي لإبنها البالغ أي شيء إلا أن يكون حنوناً . لكن وايت فانغ لم يكن يبالي بذلك . كان قد فاق أمه كبراً.لذلك فقد لف ذيله بهدوء ورباطة جأش وصار يخب صاعداً الساقية . عند نقطة التفرع اتخذ الانعطاف إلى اليسار حيث عثر على وكر الوشق الذي تعارك معه هو وأمه قبل ذلك بوقت طويل . هنا ، في الوكر المهجور استوطن واستراح لمدة يوم واحد .

في أوائل الصيف ، في الأيام الأخيرة من المجاعة ، قابل ليب — ليب ، الذي كان ، مثله ، قد التجأ إلى الغابة حيث عاش حياة يائسة .

صادفه وايت فانغ على نحو غير متوقع . بينما كانا يخبان في اتجاهين متعاكسين على امتداد قاعدة جرف صخري مرتفع ، التفا حول زاوية من الصخر فوجدا نفسيهما وجهاً لوجه . توقفا بغتة ونظر كلٌّ منهما إلى الآخر بارتياب .

كان وايت فانغ في حالة ممتازة. فقد كان صيده موفقاً وكان قد أكل كفايته لمدة أسبوع . حتى أنه أُتخم من فريسته الأخيرة . ولكن في اللحظة التي رأى فيها ليب — ليب انتصب الشعر على ظهره . كان انتصاباً لا إرادياً من طرفه ، وهي الحالة الجسدية التي كانت في الماضي ترافق دوماً الحالة العقلية الناجمة لديه عن تنمّر ليب — ليب عليه واضطهاده له . وكما كان في الماضي ينتصب شعره ويزمجر لرؤية ليب — ليب ، كذلك الآن ، وبشكل تلقائي ، فقد انتصب شعره وزمجر . لم يضيّع أي وقت . لقد حصل الأمر بشكل تام وبسرعة . فقد حاول ليب — ليب أن يتراجع مبتعداً، لكن وايت فانغ ضربه بقوة، كتفاً لكتف . فانقلب ليب — ليب وتدحرج على ظهره . انغرزت أسنان وايت فانغ في الحنجرة العجفاء .

حدث صراع مع الموت كان وايت فانغ خلاله يجول متصلب الأرجل ويقظاً . ثم استأنف مساره وصار يخب على امتداد قاعدة الجرف الصخري .

ذات يوم ، ليس بعيداً عن ذلك ، جاء إلى حافة الغابة . كان

شريط ضيق من الأرض المكشوفة ينحدر باتجاه نهر ماكنزي . كان قد وطىء هذه الأرض من قبل ، عندما كانت جرداء ، أما الآن فكان ثمة قرية صغيرة تشغلها . توقف ليدرس الوضع وهو لا يزال متخفياً بين الأشجار . كانت المناظر والأصوات والروائح مألوفة بالنسبة له . كانت القرية القديمة قد تحولت إلى مكان جديد . لكن المناظر والأصوات والروائح كانت مختلفة عن تلك التي كان يعرفها عندما فر منه . فلم يكن ثمة لا أنين ولا بكاء . فاستقبلت أذنيه أصوات راضية . وعندما سمع الصوت الغاضب لإمرأة عرف أنه الغضب الذي ينجم عن معدة خاوية . وكان ثمة رائحة سمك في الجو . كان ثمة طعام . فالمجاعة قد ولّت . خرج بشجاعة من الغابة وخبّ إلى داخل المخيم متجهاً مباشرة إلى خيمة غراي بيفر . لم يكن غراي بيفر موجوداً هناك لكن كلوكوتش رحبت به بصيحات سعيدة وبكل السمكات الطازجة ، واضطجع ينتظر قدوم غراي بيفر .

* * *

الفصل الخامس عشر

عـــدو نوعـــه

لو كان ثمة في طبيعة وايت فانغ أية إمكانية، مهما تكن بعيدة، لمجيئه للتآخي مع نوعه، لتحطمت هذه الإمكانية بشكل يتعذر إصلاحه عندما جُعل قائداً لفريق المزلجة. لأن الكلاب صارت تكرهه الآن — تكرهه من أجل اللحم الإضافي الذي كان يخصه به ميت — ساه؛ تكرهه من أجل الامتيازات الحقيقية والوهمية التي كان يتلقاها؛ تكرهه لأنه كان ينطلق دائماً على رأس الفريق — كانت زهرة ذيله الملوحة وقوائمه الخلفية المتقهقرة باستمرار تأخذ بأبصارهم دائماً.

وكان وايت فانغ يكرههم بالقدر نفسه من المرارة. إن كونه قائداً للمزلجة كان أي شيء إلا كونه ساراً لهم، وكونه مجبراً على الاندفاع أمام القطيع النابح الذي كان هو قد هزم وتسيّد كل واحد منه، لمدة ثلاث سنوات، فقد كان ذلك تقريباً أكثر من قدرته على التحمل. ولكن لابد له من تحمله أو يهلك، والحياة التي فيه لم تكن لديها الرغبة في الهلاك. في اللحظة التي أعطى فيها ميت — ساه الأمر بالانطلاق، في تلك اللحظة انقض الفريق بأكمله، بصرخات وحشية حماسية، على وايت فانغ.

لم يكن أمامه وسيلة للدفاع . فلو استدار إليهم لقذفه ميت — ساه بضربة سوط لاسعة في وجهه . لم يتبقّ أمامه سوى الفرار . لم يكن بمقدوره أن يواجه هذ الحشد النابح بذيله وقائمتيه الخلفيتين .إذ أن هذه من الصعب أن تكون أسلحة مناسبة يقابل بها الأنياب الكثيرة التي لا ترحم . لذلك ، انطلق منتهكاً طبيعته وكبرياءه مع كل وثبة كان يقوم بها ، وظل يثب طوال النهار .

لا يمكن للمرء أن ينتهك تعاليم طبيعته دون أن ترتد تلك الطبيعة على ذاتها . هذا الارتداد مثل ارتداد الشعرة التي خلقت لتخرج وتبرز من الجسم ، فتغير اتجاه نموها بشكل غير طبيعي وتنمو إلى داخل الجسم — إنه شيء يسبب قيحاً يعتمل بالألم . وكذلك الأمر مع وايت فانغ . فكل دافع من كيانه كان يحثه على الانقضاض على القطيع الذي كان يصرخ في أعقابه ، لكن إرادة الآلهة كانت تقضي بأن ذلك ينبغي ألا يحدث ، وخلف الإرادة ، ما يعززها ، كان سوط مصران الرنة اللاسع البالغ ثلاثين قدماً . لذلك، لم يكن بوسع وايت فانغ إلا أن يأكل قلبه بمرارة ، ويظهر كرهاً وحقداً يتناسبان مع ضراوة طبيعته وعدم قابليتها للقهر .

لو وجد أي مخلوق عدو لنوعه، لكان وايت فانغ هذا المخلوق . فهو لم يكن يطلب الرحمة من أحد ولا يعطيها لأحد . كان باستمرار مشوهاً ومقروحاً بفعل أسنان القطيع ، وكان باستمرار يترك آثاره الخاصة على القطيع . خلافاً لمعظم القادة الذين كانوا يربضون قريباً من الآلهة لأجل الحماية عندما نُصب المخيم وفُكت الكلاب ، فقد

كان وايت فانغ يحتقر مثل هذه الحماية. صار الآن يتجول بجرأة حول المخيم ، مُنزلاً العقاب ليلاً من أجل ما قاساه نهاراً . في الوقت السابق لتعيينه قائداً للفريق ، كان القطيع قد تعلّم أن يتنحى عن طريقه . لكن الأمر بات مختلفاً الآن . فنظراً لكون الكلاب مستثارة من مطاردته طوال النهار ، ومحكومة بشكل لا واعٍ بالتكرار الملحّ لرؤيته على أدمغتهم وهو يفر أمامها ، ويسيطر عليها الشعور بالسيطرة التي يتمتع بها طوال النهار ، لم يكن بوسعها أن تجبر نفسها على إخلاء الطريق له عندما كان يظهر بينها ، كانت تحدث النزاعات دائماً . فكان مسيره يتميز بالزمجرة والعض والنباح . إن الهواء الذي كان يتنشقه كان مشحوناً بالكراهية والحقد ، ولم يفد ذلك سوى في زيادة الكراهية والحقد بدونه .

عندما أطلق ميت – ساه ايعازه للفريق بأن يتوقف فقد أطاعه وايت فانغ . في البداية سبّب ذلك مشكلة للكلاب الأخرى. فانقضت جميعاً على القائد المكروه إلا أنها وجدت الأمور معكوسة . فوراءه كان ميت – ساه والسوط الكبير يفرقع في يده . وهكذا فهمت الكلاب أنه عندما يتوقف الفريق بالإيعاز فينبغي ترك وايت فانغ وشأنه. ولكن عندما يتوقف وايت فانغ بدون أوامر ، عندئذ كان مسموحاً لها أن تهجم عليه وأن تسحقه إذا استطاعت ذلك . بعد عدة تجارب لم يعد وايت فانغ يتوقف بدون أوامر . كان يتعلم بسرعة . فقد كان من طبيعة الأمور أن عليه أن يتعلم بسرعة ، إذا كان سينجو بروحه من الشروط القاسية بشكل غير عادي التي كانت تواجهه الحياة تحتها .

لكن الكلاب لم يكن بوسعها أبداً أن تتعلم الدرس وتتركه وشأنه في المخيم . ففي كل يوم كانت تلاحقه وتطلق التحدي له ، كان درس الليل السابق يمحى ، ويتعين قضاء الليل في التعلم مرة ثانية لكي يتم نسيانه فوراً . بالإضافة إلى ذلك ، فقد كان ثمة ثبات على المبدأ في كرههم له . كانوا يحسون أن بينهم وبينه يوجد اختلاف في النوع . وهو سبب كافٍ ، بحد ذاته ، من أجل الروح العدائية . فهم ، مثله ، ذئاب مدجنة . ولكنهم ، قد دُجنوا عبر أجيال .

لقد فقدت الكثير من البرية، لذلك أصبحت البرية بالنسبة لها هي المجهول الرهيب ، المنذر بالخطر دائماً ، والخصم الدائم . أما بالنسبة له ، فقد كان لا يزال مرتبطاً بالبرية ، بالمظهر والفعل والدافع . كان يرمز إليها ، كان تشخيصاً لها ، لذلك عندما كانت تكشر له عن أسنانها إنما كانت تدافع عن أنفسها ضد قوى التدمير التي كانت تترصد في ظلال الغابة وفي الظلام خلف موقد المخيم .

بيد أنه كان ثمة درس آخر لم تتعلمه الكلاب وينبغي عليها أن تحفظه سوية . لقد كان وايت فانغ رهيباً، أرهب من أن يواجهه أي واحد منهم بمفرده . فكانت تقابله بالتشكيل الجماعي وإلا فإنه سيقتلها فرداً فرداً في ليلة واحدة . وكما هو الحال ، لم تسنح له الفرصة أبداً ليقتلهم . فقد كان بإمكانه أن يمسك كلباً من أقدامه ، لكن القطيع سوف ينقض عليه قبل أن يتمكن من الإجهاز عليه وتسديد الضربة القاضية إلى حنجرته . عند أول بادرة نزاع كان القطيع بأكمله يتحد ويواجهه . كانت الكلاب تتنازع فيما بينها ، لكن هذه المنازعات كانت تُنسى عندما تحدث مشكلة مع وايت فانغ . من ناحية أخرى،

لقد حاولت، لكنهم لم يتمكنوا ، من قتل وايت فانغ . لقد كان سريعاً جداً ، بالنسبة لها ، وفظيعاً جداً وذكياً جداً . كان يتفادى الأماكن الضيقة المغلقة وكان دائماً يخرج منها عندما تهدد بمحاصرته . في هذه الاثناء ، وفيما يتعلق بشل أقدامه ، لم يكن أي كلب بينهم قادراً على القيام بهذه الحيلة . فقد كانت أقدامه تتشبث بالأرض بالعناد نفسه الذي كان يتشبث به بالحياة . فيما يتعلق بهذه المسألة ، كانت الحياة وتثبيت الأقدام شيئين مترادفين في هذه الحرب اللامنتهية مع القطيع ولا أحد كان يعرفها أفضل مما كان يعرفها وايت فانغ .

هكذا أصبح عدو بني نوعه الذين كانوا ذئاباً مدجنة رمَقتهم نيران الانسان وأصابهم الضعف والوهن في الظل الواقي لقوة الانسان . كان وايت فانغ لدوداً وحقوداً . كان صلصاله مقولباً هكذا. لقد أعلن الثأر ضد كل الكلاب . وقد عاش هذا الثأر بشكل رهيب للغاية بحيث أن غراي بيفر المتوحش الشرس ، لم يكن بمقدوره إلا أن يتعجب لضراوة وايت فانغ . أبداً، أقسم ، لم يوجد شبيه لهذا الحيوان ، وأقسم الهنود في القرى الغربية مثله عندما تأملوا حكاية عمليات القتل التي قام بها بين كلابهم .

عندما كان وايت فانغ في حوالي الخامسة من عمره، أخذه غراي بيفر في رحلة كبيرة أخرى ، وقد ذُكرت طويلاً الفوضى الشديدة التي أحدثها بين كلاب القرى الكثيرة على طول نهر ماكنزي عبر جبال روكي ، نزولاً إلى البوركيوباين إلى نهر يوكون . لقد وجد متعة بالغة في الإنتقام الذي مارسه على بني نوعه . كانوا كلاباً عادية

لا مبالية ، لم يكونوا مهيئين من أجل السرعة والمباغتة ، من أجل هذا الهجوم بدون إنذار ، لم يكونوا يعرفون ماهيته ، فقد كان ومضة برق قاتلة . انتصب شعرهم له ، تصلبت أرجلهم وهم يتحدونه ، في حين أنه لم يضيع وقتاً على المقدمات المتكلفة ، فكان يبادر إلى الفعل مثل نابض فولاذي فينقض على حناجرهم ويسحقها قبل أن يعرفوا ماذا يحدث ، وفي حين يكونون لا يزالون في غمرة المفاجأة .

لقد أصبح ماهراً في القتال . صار يقتصد . فلا يبدد قوته أبداً ، ولا يقوم بالمشادات أبداً . لقد كان أسرع من أن يفعل ذلك ، وإذا أخطأ مرة ، فإنه يخرج من المشادة بسرعة كبيرة . إن كره الذئب للأحياء المتلاصقة كان غير عادي . إذ ليس بوسعه أن يتحمل الاحتكاك طويلاً مع جسم آخر . كانت فيه نكهة تنضح بالخطر . مما كان يجعله مسعوراً . يجب أن يكون بعيداً ، حراً ، واقفاً على أرجله ، لا يلامس أي كائن حي .

كانت البرية لا تزال متشبثة به ، متغلغلة فيه . هذا الشعور كان قد تأكد من الحياة التي قضاها منبوذاً بين أهله منذ طفولته . فالخطر كان متربصاً في الأشخاص والحيوانات المحيطة به . كان الفخ ، الفخ دائماً يكمن الخوف منه عميقاً في حياته وقد تحول إلى نسيج منه .

بالنتيجة ، فإن الكلاب الغريبة التي صادفها لم يكن لديها أية فرصة ضده . كان يراوغ أنيابها . كان ينال منها أو يهرب بعيداً ، دون أن يُمس في الحالتين . في المسار الطبيعي للأشياء كان ثمة استثناءات لذلك . في بعض الحالات كانت تقوم بضعة كلاب مغيرة عليه بمعاقبته

قبل أن يتمكن من الهرب ، وفي بعض الأوقات كان يتغلب عليه كلب مفرد ، بشكل مؤثر . لكن هذه كانت حوادث . على العموم ، كان قد أصبح مقاتلاً كفؤاً للغاية ، فكان يشق طريقه دون أن يصاب بأذى .

ثمة ميزة أخرى كان يمتلكها هي التقدير الدقيق للوقت والمسافة . ليس بمعنى أنه كان يفعل ذلك عن وعي ، مع ذلك . فهو لم يكن يحسب مثل هذه الأشياء . كان ذلك كله تلقائياً . كانت عيناه تريان بشكل صحيح وكانت الأعصاب تنقل الرؤية بشكل صحيح إلى دماغه . كانت أجزاؤه مضبوطة بشكل أفضل من أجزاء الكلب العادي . كانت تعمل مع بعضها بسلاسة وثبات أكثر . كان تنسيقه العصبي والعقلي والعضلي أفضل ، لا بل أفضل بكثير . عندما تنقل عيناه إلى دماغه الصورة المتحركة لفعل ما ، فإن دماغه ، ودون جهدٍ واعٍ ، كان يعرف الفراغ الذي يحد ذاك الفعل والزمن المطلوب لانجازه . لذلك ، كان بوسعه أن يتفادى وثبة كلب آخر ، أو انغراز أنيابه ، وفي اللحظة ذاتها يستطيع أن ينتهز الجزء البالغ الصغر من الزمن ليقوم بهجمته . جسد ودماغ ، هكذا كانت آليته أكثر كمالاً . ليس بمعنى أنه يستحق المديح من أجل ذلك . فالطبيعة أكثر كرماً بالنسبة له مما كانت بالنسبة للحيوان العادي ، هذا كل ما في الأمر .

كان ذلك في الصيف عندما وصل وايت فانغ إلى قلعة يوكون. عبر غراي بيفر المستنقع الكبير الواقع بين نهر ماكنزي ونهر يوكون في أواخر فصل الشتاء وأمضى الربيع في القنص بين الامتدادات

الغربية لجبال روكي . ثم ، وبعد انكسار الجليد على نهر بوركيوباين بنى قارباً وصار يغذف نزولاً في تلك الساقية إلى حيث تتصل مع نهر يوكون تحت الدائرة القطبية تماماً .

هنا كان تتنصب قلعة شركة خليج هدسون القديمة ، وهنا كان الكثير من الهنود والكثير من الطعام والإثارة التي لاسابق لها. كان ذلك في صيف ١٨٩٨ ،وكان الأولون من الباحثين عن الذهب يصعدون نهر يوكون إلى دوسون وكلوندايك . ونظراً لكونهم على بعد مئات الأميال من هدفهم ،لا داعي للقول أن كثيرين منهم قد أمضوا على الطريق عاماً وأقل مسافة قطعها أي واحد منهم للوصول إلى ذاك المكان البعيد كانت خمسة آلاف ميلاً ، في حين أن البعض كان قد جاء من الطرف الآخر من العالم .

هنا توقف غراي بيفر . تناهى إلى مسمعيه همس عن فورة الذهب . كان قد جاء بعدة بالات من الفراء وبالة أخرى من القفازات والموكاسينات . وما كان ليغامر برحلة طويلة بهذا الشكل لو لم يكن يتوقع أرباحاً مجزية . ولكن ما توقعه لم يكن شيئاً بالنسبة لما حققه . إن أكثر أحلامه جموحاً لم يكن قد تجاوز ربحاً قدره مئة بالمئة ، وها هو قد حقق ربحاً قدره ألف بالمئة . ومثل هندي حقيقي قرر أن يتاجر بحذر وببطء ، حتى لو استغرق كل الصيف وبقية الشتاء لتصريف بضاعته .

في قلعة يوكون شاهد وايت فانغ بشراً بيضاً لأول مرة . بالمقارنة مع الهنود الذين عرفهم ، كانوا سلالة أخرى من الكائنات ،

عرقاً آخر من آلهة عليا . أخذ انطباعاً عنهم مفاده أنهم يمتلكون قوة عليا ، وعلى القوة تقوم الألوهية . إن وايت فانغ لم يكتشف ذلك، فهو لم يتوصل في عقله إلى تعميم صارم مفاده أن الآلهة البيض أكثر قوة . لقد كان ذلك شعوراً لا أكثر ، ومع ذلك ، كان شعوراً كامناً . وكما في جرويته كانت كتل الخيام المهددة بالسقوط ، المشادة من قبل الانسان ، قد أثرت فيه كتمظهرات للقوة ، كذلك فقد تأثر الآن بالبيوت والقلعة الهائلة المصنوعة من قطع الخشب الهائلة . هنا كانت القوة . كان هؤلاء الآلهة البيض أقوياء . كانوا يمتلكون سيطرة على المادة أكثر من الآلهة الذين كان قد عرفهم والذين كان غراي بيفر أكثرهم قوة . ومع ذلك ، كان غراي بيفر إلهاً – طفلاً بين هؤلاء الآلهة ذوي البشرة البيضاء .

بالتأكيد ،إن وايت فانغ قد شعر بهذه الأشياء ليس إلا . لم يكن واعياً بها . مع ذلك ، فإن الحيوانات تتصرف اعتماداً على الشعور غالباً أكثر مما تتصرف اعتماداً على التفكير ،وكل فعل يقوم به وايت فانغ الآن يقوم على الشعور بأن البشر البيض هم الآلهة العليا . في المقام الأول ، كان شكاكاً جداً بهم . لم يكن ثمة ما ينبيء بالفظاعات المخيفة المجهولة التي يفعلونها ، والآلام المجهولة التي يمكن أن يسببوها . كان لديه فضول لمراقبتهم وكان يخاف من أن يلاحظوه . في الساعات القلائل الأولى كان راضياً بالتسلل حولهم ومراقبتهم من مسافة آمنة . ثم رأى أن لا أذى يصيب الكلاب القريبة منهم ، فاقترب .

كان هو ، بدوره ، موضوعاً لفضول كبير من قبلهم . فمظهره الذئبي قد لفت أنظارهم فوراً ، وصاروا يشيرون إليه كلٌ للآخر .

إن فعل الإشارة هذا قد وضع وايت فانغ في حالة حذر ،وعندما حاولوا الاقتراب منه كشر عن أسنانه وتراجع مبتعداً . لم ينجح أي واحد منهم في وضع يده عليه ، وكان حسناً أنهم لم يفعلوا .

تعلّم وايت فانغ سريعاً أن عدداً قليلاً جداً من هذه الآلهة — لايتجاوز دزينة — يسكن في هذا المكان . فكل يومين أو ثلاثة كانت تأتي باخرة (تمظهر آخر هائل للقوة) إلى الضفة وتتوقف لعدة ساعات . كان البشر البيض ينزلون منهذه البواخر ثم يصعدون إليها مرة أخرى . كان يبدو أن ثمة أعداد لا تحصى من هؤلاء البشر البيض . في اليوم الأول أو نحوه ، رأى منهم أكثر مما كان قد رأى من الهنود طوال حياته ، ومع مرور الأيام استمروا في صعود النهر ، ثم كانوا يتوقفون ويتابعون صعود النهر إلى أن يختفوا عن الأنظار .

ولكن إذا كان البشر البيض ذوي قدرة كلية ، فإن كلابهم لم تصل إلى هذا القدر الكبير من القوة. وهذا ما اكتشفه وايت فانغ سريعاً بالاختلاط مع تلك الكلاب التي كانت تصل الشاطىء مع أصحابها . فقد كانت ذات أشكال ومقاسات غير منتظمة . فبعضها كان قصير الأرجل أكثر مما ينبغي والبعض الآخر طويل الأرجل أكثر مما ينبغي ، والقليل منهم يمتلك شعراً قليلاً جداً . ولم يكن أي واحد منهم يعرف كيف يقاتل

كعدو لنوعه ،فقد كان من صلب عمل وايت فانغ أن يتعارك معهم ، وهذا ما كان يفعله ، وسرعان ما شكل لهم احتقاراً قوياً . كانوا ليني العريكة وعديمي الحيلة ويطلقون الكثير من الصخب ويتخبطون

على غير هدى ، يحاولون أن يحققوا بالقوة وحدها ما كان يحققه بالحذق والمكر . كانوا يندفعون وهم يجأرون ، فيقفز جانباً . لم يعرفوا ما حل به . في تلك اللحظة كان يضربهم على الكتف مدحرجاً إياهم على أرجلهم ومسدداً ضربته إلى البلعوم .

في بعض الأحيان تكون هذه الضربة موفقة ، فيتدحرج الكلب المضروب في القذارة ، فينقض عليه قطيع الكلاب الهندية المنتظرة وتمزقه إرباً إرباً . كان وايت فانغ ذكياً .

لقد تعلّم منذ زمن طويل أن الآلهة تغضب عندما تقتل كلابها . ولم يكن البشر البيض استثناءً من ذلك . لذلك اكتفى ، عندما هزم وشق حنجرة أحد الكلاب ، بالانسحاب وترك القطيع يتابع ويقوم بالعمل النهائي الفظيع . عندئذ هجم البشر البيض ، صابين جم غضبهم على القطيع ، في حين ذهب وايت فانغ طليقاً . فوقف على مسافة قليلة وصار يتطلع ، في حين كانت الحجارة والعصي والفؤوس وكل أصناف الأسلحة تنهال على زملائه . كان وايت فانغ حكيماً جداً .

لكن زملاءه كانوا يصيرون أذكياء على طريقتهم الخاصة ، وفي هذا كان وايت فانغ يصير ماكراً معهم . لقد تعلموا أن يمرحوا عندما ترسو باخرة لأول مرة إلى الضفة . بعد أن هُزم إثنان أو ثلاثة من الكلاب الغريبة وحُطمت ، قام البشر البيض باحتجاز حيواناتهم على متن الباخرة ، ومارسوا انتقاماً وحشياً على المعتدين . إن أحد البشر البيض وقد رأى كلبه ، من نوع الساطر ، يُمزق إرباً إرباً أمام عينيه،استل مسدساً . أطلق النار بسرعة ــ وهو تمظهر آخر للقوة انحفر عميقاً في وعي وايت فانغ . كان وايت فانغ يستمتع بذلك كله . لم يكن يحب نوعه ، وكان من الدهاء بما يكفي لأن يجنب نفسه الألم .

في البداية ، كان قتل كلاب البشر البيض تسلية . بعد فترة من الزمن أصبح شغله الشاغل . لم يكن لديه عمل ليقوم به . كان غراي بيفر مشغولاً بالتجارة والإثراء . وهكذا كان وايت فانغ يجوب البلاد مع عصابة الكلاب الهندية السيئة الصيت بانتظار البواخر . مع وصول باخرة كان يبدأ المرح . فبعد دقائق قليلة من وصولها ، وفي الوقت الذي يكون فيه البشر البيض قد تجاوزوا مفاجأتهم تتفرق العصابة ، فينتهي المرح إلى أن تصل الباخرة التالية .

بيد أنه يمكن القول بصعوبة أن وايت فانغ كان عضواً في العصابة . فهو لم يكن يتجول معها بل يظل بعيداً ، دائماً لوحده ، وكان يخاف منها . صحيح أنه كان يعمل معها . كان يفتعل المعاركات مع الكلب الغريب فيما العصابة تنتظر . وعندما يكون قد هزم الكلب الغريب تتدخل العصابة وتجهز عليه . ولكن من الصحيح ، بالقدر نفسه ، أنه عندما كان ينسحب بعدئذ تاركاً العصابة لتلقى عقوبة الآلهة المستشيطين غضباً .

إن افتعال هذه المعاركات لم يكن يتطلب جهداً كبيراً . فكل ما عليه القيام به ، عندما تكون الكلاب الغريبة على الشاطىء ، هو أن يكشف عن نفسه . عندما تراه تهاجمه . كان ذلك بدافع من غريزتها . لقد كان هو البرية — إنه الكائن المجهول ، الرهيب ، المهدد دائماً ، الذي يجوس في الظلام حول مواقد العالم البدئي عندما كانوا ، وهم ينكمشون من الخوف قرب النار ، يعيدون تشكيل غرائزهم ، يتعلمون الخوف من البرية التي انبثقوا منها ، وهجروها وخانوها . وجيلاً بعد جيل ، وعبر الأجيال كلها ، انطبع هذا الخوف من البرية في

طبائعهم . لقرون من الزمن أصبحت البرية رمزاً للرعب والتدمير . وخلال كل هذا الوقت كانت لديهم رخص مجانية ، من أسيادهم ، لقتل كائنات البرية . بفعلهم ذلك إنما يقومون بحماية أنفسهم وحماية الآلهة التي كانوا يتقاسمون رفقتها .

هذه الكلاب ، القادمة لتوها من العالم الجنوبي المعتدل الطقس ، التي تخب على العبّارة الخشبية وتخرج إلى شاطىء نهر يوكون،لم يكن أمامها إلا أن ترى وايت فانغ لتجرب الدافع الذي لايقاوم للانقضاض عليه وتدميره . فقد تكون كلاباً ذات نشأة مدينية ، لكن الخوف الغريزي من البرية كان هو نفسه تماماً . يكفيها أن ترى عيونها المخلوق الذئبي في وضح النهار واقفاً أمامها . كانت تراه بعيون أسلافها ، وبذاكرتها الموروثة كانت تعرف أن وايت فانغ هو الذئب ، وكانت تتذكر العداء القديم .كل ذلك أفاد في جعل أيام وايت فانغ سارة . إذا كان منظره يهيج هذه الكلاب الغريبة ضده ، فبقدر ما كان ذلك من الأفضل له كان وبالاً عليهم . كانوا ينظرون إليه على أنه فريسة شرعية ، وبالقدر نفسه كان ينظر إليهم على أنهم فرائس شرعية .

لم يكن سدى أنه رأى ضوء النهار لأول مرة في وجار موحش وخاض معاركه الأولى مع الترمجان وابن عرس والوشق . ولم يكن سدى أن جرويته كانت مُرة بفعل اضطهاد ليب – ليب له وقطيع الجراء بأكمله . كان من الممكن أن يكون الأمر خلافاً لذلك ، ولكان عندئذ خلافاً لذلك لو لم يوجد ليب – ليب لكان قد أمضى جرويته مع الجراء الأخرى ولأصبح أكثر شبهاً بالكلاب ، وأكثر محبة

بالكلاب . لو كان غراي بيفر يمتلك مثقال ذرة من الحنان والحب ، لكان قد سبر أعماق طبيعة وايت فانغ وأبرز إلى السطح كل أنواع الصفات الحميدة . لكن الأمور لم تكن هكذا . فصلصال وايت فانغ قد تقولب حتى أصبح على ما هو عليه ، نكد المزاج ، منعزلاً ، منفراً وشرساً ، عدو كل نوعه .

* * *

الفصل السادس عشر

الإلـــه المجنون

كان ثمة عدد قليل من البشر البيض يسكنون في قلعة يوكون . لقد مضى وقت طويل على وجود هؤلاء البشر في البلاد . وكانوا يطلقون على أنفسهم اسم الخمائر المتخمرة (*) ويفتخرون افتخاراً كبيراً بهذه التسمية . فكانوا ينظرون إلى الناس الجدد القادمين إلى البلاد نظرة احتقار وازدراء . إن الناس الذين يأتون إلى الشاطىء من البواخر كانوا وافدين جدد يعرفون بإسم التشيتشاكوس وكانوا دائماً يذبلون لاستعمال الاسم . كانوا يصنعون خبزهم من ذرور الخبز(**) . كان هذا هو الفرق المثير للحسد بينهم وبين الخمائر المتخمرة الذين كانوا ، في الواقع ، يصنعون خبزهم من الخميرة المتخمرة لأنهم لم يكونوا يمتلكون ذرور الخبز .

الموضوع برمته لا هنا ولا هناك . فالناس الذين في القلعة كانوا يحتقرون القادمين الجدد ويستمتعون برؤيتهم وهم يأتون إلى الأسى .

* الخمائر المتخمرة Sour doughs اسم كان يطلق على المنقبين عن الذهب الذين كانوا يقتاتون على خميرة الخبز . (المترجم)

** أو ما يعرف تجارياً باسم Baking powder (المترجم)

وكانوا يستمتعون بشكل خاص بالفوضى الشديدة التي يحدثها وايت فانغ وعصابته سيئة الصيت بين كلاب القادمين الجدد . عندما تصل باخرة كان أناس القلعة يجعلون منها هدفاً دائماً للنزول إلى الضفة ويشاهدون الهرج والمرج . كانوا يتوقون إليها باستعجال كثير لا يقل عن استعجال الكلاب الهندية لها ، في حين أنهم لم يكونوا يتوانون عن تثمين الدور الوحشي والماكر الذي يلعبه وايت فانغ .

بيد أنه كان ثمة إنسان واحد بينهم يستمتع بهذه الرياضة على نحو خاص . فكان يهرع لدى سماعه لأول صوت لصفارة زورق بخاري ، وعندما تكون آخر معركة قد انتهت وتفرق وايت فانغ والقطيع ،يعود ببطء إلى القلعة ووجهه مثقل بالأسف . في بعض الأحيان ، عندما ينهزم كلب ساوثلاند ضعيف وهو يطلق صرخة الموت تحت أنياب القطيع ، فإن هذا الرجل يصبح عاجزاً عن ضبط نفسه ويقفز في الهواء ويصرخ من الفرح.وكان دائماً يمتلك عيناً حادة ومتشهيةلوايت فانغ. هذا الرجل كان يدعى « بيوتي » (جمال) من قبل الناس الآخرين في القلعة . لا أحد كان يعرف اسمه الأول ، وكان يعرف في البلاد عموماً بإسم « بيوتي سميث » . ولكنه كان يتصف بأي شيء إلا صفة الجمال . كانت تسميته من قبيل المفارقة . كان قبيحاً بشكل بارز . فقد كانت الطبيعة بخيلة عليه . بدايةً ، لقد كان رجلاً صغيراً ، وعلى هيكله الضئيل كان يتوضع رأس أكثر ضآلة بشكل صارخ . يمكن تشبيه ذروة رأسه بالنقطة . في الحقيقة ، كان يطلق عليه في صباه وقبل أن يسمى « بيوتي » من قبل زملائه ، اسم « بينهد » (رأس الدبوس) . من الذروة وإلى الوراء ، كان رأسه ينحدر نزولاً إلى

الرقبة، وإلى الأمام كان ينحدر بشكل متصلب ليلاقي جبهة منخفضة وعريضة بشكل ملحوظ . بدءاً من هنا ، إن الطبيعة، وكما لو كانت نادمة على بخلها ، قد فرشت ملامحه بيد سخية . كانت عيناه كبيرتين وبينهما كانت مسافة عينين . إن وجهه ، بالنسبة لبقيته ، كان ضخماً بشكل غير عادي . لاكتشاف المساحة الضرورية فقد منحته الطبيعة فكاً هائلاً . كان فكاً عريضاً وثقيلاً وناتئاً إلى الخارج وإلى الأسفل حتى يبدو وكأنه يستند على صدره . ربما كان هذا المظهر يُعزى إلى تعب العنق النحيل العاجز عن حمل مثل هذا الحمل الكبير بشكل مناسب .

هذا الفك كان يعطي انطباعاً بالتصميم الشديد جداً . لكن كان ثمة شيء ما ناقص . ربما كان من الإسراف . ربما كان الفك كبيراً أكثر مما ينبغي . بأي حال من الأحوال ، كان كذبة . كان بيوتي سميث يعرف في كل أرجاء البلاد بأنه أضعف الجبناء المترددين المتباكين . لإكمال وصفه ، كانت أسنانه كبيرة صفراء في حين أن سنيه العينيين الأكبر من زملائهما كانتا تبدوان تحت شفتيه الضامرتين مثل النابين . كانت عيناه صفراوتين ومتعكرتين ، كما لو أن الطبيعة قد نفذت لديها الأصباغ واعتصرت حثالة كل عبواتها . وكان الحال نفسه مع شعره الخفيف ، ذي النمو غير المنتظم ، الأصفر الوحلي المتسخ ، النابت على رأسه والمتفرع خارج وجهه في خصلات وجدائل غير متوقعة ، تشبه في منظرها حبات الحنطة المتكومة التي تذروها الرياح .

باختصار ، كان بيوتي سميث كتلة من البشاعة الفائقة . وكان اللوم على ذلك يقع في مكان آخر . لم يكن هو المسؤول . لقد تقولب صلصاله هكذا في أثناء الصنع . كان يطبخ الطعام للرجال الآخرين في القلعة ويقوم بجلي الصحون وبالأعمال الشاقة الحقيرة . لم يكونوا يحتقرونه . بالأحرى أنهم كانوا يتحملونه بالمعنى الإنساني العريض ، كما يتحمل المرء أي مخلوق عولج بشكل سيء أثناء الصنع . كذلك ، كانوا يخافونه . إن نوبات غضبه الجبانة كانت تجعلهم يرتعدون خوفاً من أن يسدد لهم طلقة في الظهر أو يدس لهم السم في القهوة . بيد أنه كان لابد من وجود شخص ما يقوم بالطبخ ، ومهما تكن عيوبه فقد كان بيوتي سميث يجيد الطهي .

هوذا الرجل الذي كان ينظر إلى وايت فانغ، مسروراً ببسالته الضارية وراغباً في امتلاكه.قدم اوايت فانغ عروضاً منذ البداية . بدأ وايت فانغ يتجاهله . فيما بعد،عندما أصبحت العروض أكثر إلحاحاً ، انتصب شعر وايت فانغ وكشر عن أسنانه وتراجع مبتعداً . لم يرق له الرجل . كان شعوره نحوه سيئاً . أحس بالشر فيه وكان يخاف من اليد الممدودة والكلام المعسول . بسبب ذلك كله ، كان يكره الرجل .

مع المخلوقات البسيطة يكون الصالح والطالح شيئين مفهومين ببساطة ؛ فالصالح يمثل كل الأشياء التي تسبب الراحة والإشباع وإيقاف الألم . لذلك ، فإن الصالح يكون محبوباً . أما الطالح فيمثل كل الأشياء التي تكون محفوفة بالإزعاج والتهديد بالخطر واالوجع ويكون مكروهاً وفقاً لذلك .

كان شعور وايت فانغ إزاء بيوتي سميث سيئاً . من جسم الرجل المشوه وعقله « المفتول » بطرق غريبة مثل السديم الصاعد من مستنقعات الملاريا ، كانت تأتي انبثاقات الاعتلال من الداخل . فليس عن طريق المحاكمة العقلية ، وليس بالحواس الخمسة لوحدها ، بل بحواس أخرى مجهولة ، كان يراود وايت فانغ شعور بأن الرجل كان منذراً بالشر، محملاً بالإيذاء، وبالتالي فهو شيء سيء ومن الحكمة أن يكون مكروهاً.

كان وايت فانغ في مخيم غراي بيفر عندما زاره بيوتي سميث لأول مرة . لدى أخفت صوت من أقدامه البعيدة ، وقبل أن يقع في مجال النظر ، عرف وايت فانغ من هو القادم وبدأ شعره ينتصب . كان لا يزال مستلقياً في نوبة راحة ، لكنه نهض بسرعة وعندما وصل الرجل انسل مبتعداً بأسلوب ذئبي حقيقي إلى طرف المخيم . لم يكن يعرف ماذا يقولون ، لكنه استطاع أن يرى الرجل وغراي بيفر يتحدثان معاً . ذات مرة ، أشار الرجل إليه، فرد عليه وايت فانغ بزمجرة كما لو كانت اليد تنزل عليه تماماً بدلاً من كونها ، كما هو الحال ، على بعد خمسين قدماً . ضحك الرجل لذلك وانسل وايت فانغ مبتعداً إلى الغابة الحامية، ورأسه ملتفت ليراقب بينما ينسل بخفة فوق الأرض .

رفض غراي بيفر أن يبيع الكلب . فقد أصبح غنياً من تجارته ولم يعد بحاجة إلى شيء . بالإضافة إلى ذلك، كان وايت فانغ حيواناً ذا قيمة ، إنه أقوى كلب مزلجة سبق له أن امتلكه ، وأفضل قائد . وعلاوة على ذلك ، لم يكن يوجد كلب مثله لا على نهر ماكنزي ولا على نهر يوكون . كان قادراً على القتال . فكان يقتل الكلاب

الأخرى بالسهولة نفسها التي يقتل بها الانسان البعوض (برقت عينا بيوتي سميث لذلك ، ولحس شفتيه الرقيقتين بلسان متلهف) . لا ، إن وايت فانغ ليس للبيع بأي ثمن .

كان بيوتي سميث يعرف أساليب الهنود . وصار في معظم الأحيان يزور مخيم غراي بيفر . وكان دائماً يخبيء تحت معطفه قارورة سوداء أو ما شابه ذلك . إن أحد مفاعيل الويسكي هو أنها تسبب العطش . وقد أصاب غراي بيفر العطش . بدأت أغشيته المحمومة ومعدته المحروقة تطلب المزيد والمزيد من السائل اللاذع ، في حين أن دماغه الموروب كله بفعل المنبه غير المعتاد قد سمح له بالذهاب إلى أي مدى للحصول عليه . إن النقود التي قبضها من الفراء والقفازات والموكاسين قد بدأت تنفذ . فكانت تنفذ أسرع فأسرع ، وكلما ضاق كيس نقوده ضاق خلقه .

في النهاية نفذ كل المال والبضاعة والمزاج . لم يتبق له سوى عطشه ، الملكية الضخمة التي أصبحت أكبر ضخامة مع كل نَفَس مقتصد كان يسحبه .

ثم كان أن تحدث بيوتي سميث معه مرة أخرى حول بيع وايت فانغ ، لكن هذه المرة كان السعر المعروض بالقوارير ، وليس بالدولارات فصارت أذنا غراي بيفر أكثر تلهفاً للاستماع .

« أنت تمسك الكلب فتأخذه تماماً » كانت كلمته الأخيرة .

تم تسليم القوارير ، ولكن بعد يومين .

« أنت تمسك الكلب» كانت كلمات بيوتي سميث لغراي بيفر .

انسل وايت فانغ إلى المخيم ذات مساء وهجع مع تنهيدة رضا . لم يكن الإله الأبيض المخيف موجوداً .

لعدة أيام كانت تمظهرات رغبته في وضع يديه عليه تصبح أكثر إلحاحاً ،وخلال ذاك الوقت كان وايت فانغ مجبراً على تجنب المخيم . لم يكن يعرف أي شر كان يتهدده من قبل تلك اليدين . كان يعرف فقط أنهما تهددان بشر من نوع ما ، وكان من الأفضل له أن يبعد عن متناولهما .

ولكنه كان بالكاد قد استلقى عندما ترنح غراي بيفر نحوه وربط قشاطاً جلدياً حول رقبته . جلس قرب وايت فانغ : ممسكاً طرف القشاط بيده : قشاطاً وباليد الأخرى أمسك قارورة ، كانت من حين لآخر تنقلب فوق رأسه مترافقة بأصوات غرغرة .

مضت ساعة على هذا المنوال ، عندما كانت اهتزازات الأقدام المتصلة مع الأرض تسبق الشخص المقترب .سمع وايت فانغ ذلك أولاً ، فانتصب شعره متعرفاً في حين ظل غراي بيفر يومىء برأسه بغباء . حاول وايت فانغ أن يسحب القشاط بخفة من يد صاحبه.لكن الأصابع المسترخية أطبقت بإحكام فاستثار غراي بيفر .

سار بيوتي سميث بخطى مديدة إلى داخل المخيم ووقف فوق وايت فانغ. زمجر بشكل خافت بهذا الشيء المخيف وهو يراقب بشكل حاد سلوك اليدين .

امتدت يد نحو الخارج وبدأت تنزل على رأسه . صارت زمجرته الخافتة شديدة وأجشة . استمرت اليد بشكل بطيء في النزول في حين

ربض هو تحتها ، ناظراً إليه بمكر ، وزمجرته تصبح أقصر فأقصر إلى أن اقتربت من ذروتها مع تسارع النَفَس . فجأة عض ضارباً بأنيابه مثل الأفعى . انتفضت اليد متراجعة وأطبقت الأسنان على بعضها بشكل فارغ مع طقطقة حادة . كان بيوتي سميث خائفاً وغاضباً . فقام غراي بيفر بتسديد ضربة بقبضته إلى رأس وايت فانغ فتكور على نفسه من الخوف ملتصقاً بالأرض بطاعة تدل على الاحترام .

كانت عينا وايت فانغ الشكاكتان تتبعان كل حركة . رأى بيوتي سميث يذهب ويعود بعصا متينة . ثم قام غراي بيفر بتسليمه طرف القشاط .قاوم وايت فانغ ذلك . صار غراي بيفر يضربه يميناً ويساراً لجعله ينهض ويتبعه . امتثل ، ولكن باندفاع ، منقضاً على الغريب الذي كان يجره . لم يقفز بيوتي سميث مبتعداً . فقد كان منتظراً حدوث ذلك . صار يضرب بالعصا بخفة ،موقفاً اندفاع وايت فانغ في منتصف الطريق وطارحاً وايت فانغ أرضاً.ضحك غراي بيفر وهز رأسه دلالة الاستحسان . شد بيوتي سميث القشاط مرة أخرى،وصار وايت فانغ يدب بشكل أعرج ومشدوهاً نحو قدميه .

لم يهجم مرة أخرى . فقد كانت ضربة واحدة من العصا كافية لإقناعه بأن الإله الأبيض يعرف كيف يمسكها ، وكان أدهى من أن يصارع المحتوم . لذلك فقد سار في أعقاب بيوتي سميث بشكل نكد المزاج ، وذيله بين ساقيه ، مع أنه كان يزمجر بصوت خافت تحت أنفاسه . ولكن بيوتي سميث بقي حذراً منه ، وكانت العصا جاهزة للضرب بشكل دائم .

في القلعة تركه بيوتي سميث موثوقاً وآوى إلى الفراش . انتظر وايت فانغ لمدة ساعة . ثم أطبق بأسنانه على القشاط وفي خلال عشر ثوانٍ كان طليقاً . لم يضيع وقتاً بأسنانه . فليس هناك من قرضة واحدة بدون فائدة . إذ تم قص القشاط قطرياً ، بشكل شبه نظيف كما لو أنه قد تم بسكين. تطلع وايت فانغ إلى القلعة وفي الوقت نفسه كان ينتصب شعره ويجأر . ثم التفت وصار يخب عائداً إلى مخيم غراي بيفر . لم يضمر أي ولاء لهذا الإله الغريب والرهيب . لقد أسلم نفسه إلى غراي بيفر ، وإلى غراي بيفر كان يعتبر نفسه منتمياً .

لكن ما حدث من قبل تكرر مع اختلاف . فقام غراي بيفر مرة أخرى بتثبيته بقشاط ، وفي الصباح قام بتسليمه إلى بيوتي سميث . وهنا كان الاختلاف . فقد سدد بيوتي سميث ضربة له . إن وايت فانغ ، الموثوق بشكل محكم لم يكن بمقدوره إلا أن يستشيط غضباً بدون جدوى وأن يتحمل العقوبة . لقد استخدم النبوت والسوط لضربه ، وعرف أسوأ علقة كان قد تلقاها في حياته . حتى العلقة التي تلقاها في جرويته على يد غراي بيفر كانت معتدلة بالمقارنة مع هذه .

كان بيوتي سميث يستمتع بهذا العمل . كان مسروراً به . صار يحدق في ضحيته وعيناه تومضان بشكل أربد بينما كان ينهال بالسوط أوبالعصا ويصغي إلى صرخات وايت فانغ من الألم وإلى جأراته وزمجراته. لأن بيوتي سميث كان قاسياً بالطريقة التي يكون بها الجبناء قساة . إنه وهو ينكمش خوفاً ويتباكى أمام الضربات أو الكلام الغاضب لإنسان ، انتقم لنفسه ، بدوره ، من مخلوقات أضعف منه . كل

الكائنات الحية تحب القوة وبيوتي سميث لم يكن استثناء . نظراً لكونه محروماً من التعبير عن القوة بين بني نوعه فقد ارتد إلى المخلوقات الأصغر وهناك برهن على أن الحياة موجودة فيه . لكن بيوتي سميث لم يكن هو الذي خلق نفسه ، ولا يقع عليه أي لوم . لقد جاء إلى العالم بجسد مشوّه وعقل بهيمي . إن هذا هو الذي كوّن صلصاله ، وهذا الصلصال لم يقولبه العالم بشكل لطيف .

كان وايت فانغ يعرف لماذا يتعرض للضرب. عندما ربط غراي بيفر القشاط حول عنقه ووضع طرف القشاط في عهدة بيوتي سميث فقد عرف وايت فانغ أن مشيئة إلهه تقضي بأن يذهب مع بيوتي سميث . وعندما تركه بيوتي سميث مربوطاً خارج القلعة ، عرف أن مشيئة بيوتي سميث تقضي بأن عليه أن يظل هناك . لذلك ، خالف إرادة كل من الإلهين وتحمل العقوبة المترتبة على ذلك . كان قد شاهد كلاباً تبدل أصحابها في الماضي ، وكان قد شاهد الهاربين يُضربون مثلما ضرب هو . كان حكيماً مع أن في طبيعته قوى أعظم من الحكمة . إن إحدى هذه القوى هي الإخلاص . لم يكن يحب غراي بيفر ، مع ذلك ، حتى ضد إرادته وغضبه ، لقد كان مخلصاً له . لم يكن بوسعه إلا أن يفعل ذلك . هذا الوفاء كان صفة للصلصال الذي شكله . صفة هي بشكل خاص ملك لنوعه ، الصفة التي تميز نوعه عن كافة الأنواع الأخرى ، الصفة التي مكنت الذئب والكلب البري من المجيء من فسحة الغابة وأن يصبحا رفيقين للإنسان . بعد العلقة سُحب وايت فانغ إلى القلعة . لكن بيوتي سميث، هذه المرة ، تركه مربوطاً بعود . لايتخلى المرء عن إلهه بسهولة،وهكذا كان الأمر مع وايت فانغ .

لقد كان غراي بيفر إلهه الخاص به وبرغم إرادة غراي بيفر كان وايت فانغ لايزال متمسكاً به ولن يتخلى عنه . كان غراي بيفر قد خانه ونبذه ، لكن ذلك لم يكن له أي تأثير عليه . ليس بدون جدوى أنه قد أسلم نفسه ، جسداً وروحاً ، لغراي بيفر . لم يكن هناك أي تحفظ من طرف وايت فانغ ،ولم يكن من السهل أن تكسر الرابطة بينهما .

وهكذا ، في الليل ، عندما كان الرجال في القلعة نائمين ، أطبق وايت فانغ أسنانه على العصا التي تثبته . كان الخشب منشفاً وجافاً وكان مثبتاً بشكل وثيق ومحكم للغاية حتى عنقه بحيث كان يستطيع بشق النفس أن يصل إليه بأسنانه . ولم ينجح إلا بأشد جهد عضلي وتقوس في العنق في وضع الخشب بين أسنانه ، وبشق النفس نجح في وضعه بين أسنانه ، ولم ينجح إلا بالصبر الهائل الذي امتد لعدة ساعات ، في قضم العصا . كان ذلك شيئاً لا يفترض أن تفعله الكلاب . كان شيئاً لا سابق له . لكن وايت فانغ فعله، وهو يخب مبتعداً عن القلعة في الصباح الباكر مع نهاية العصا المعلقة إلى رقبته .

كان داهية . ولكنه لو كان داهية فحسب لما كان قد عاد إلى غراي بيفر الذي خانه مرتين . لكنه كان يمتلك الوفاء . وعاد لكي يُخان مع ذلك ، للمرة الثالثة . مرة أخرى استسلم لربط القشاط حول عنقه من قبل غراي بيفر ، ومرة أخرى جاء بيوتي سميث لكي يطالب به . وهذه المرة ضُرب حتى بأشد من ذي قبل .

كان غراي بيفر ينظر ببلاهة بينما كان الرجل الأبيض يسوطه . لم يقدم له أية حماية . فهو لم يعد كلبه . عندما انتهت العلقة كان

وايت فانغ قد أصبح عليلاً . لو كان كلباً جنوبياً ضعيفاً لمات تحتها، ولكنه ليس هو من يموت بسبب ذلك . كانت مدرسته في الحياة أشد صرامة وكان هو نفسه من مادة أشد صرامة . كان يمتلك حيوية أكثر مما ينبغي . كان تعلقه بالحياة أقوى مما ينبغي . لكنه كان مريضاً جداً . في البداية كان عاجزاً عن جر نفسه ، وكان على بيوتي سميث أن يسهر عليه نصف ساعة . ثم سار في أعقاب بيوتي سميث إلى الحصن وهو أعمى ومترنح .

بيد أنه قد رُبط الآن بسلسلة تتحدى أسنانه ، وصار يجاهد عبثاً عن طريق اللطم لسحب الرزة من الدف الذي كانت مغروزة فيه . بعد أيام قليلة غادر غراي بيفر ، وقد أصبح مقتصداً ومفلساً ، نهر البوركيوباين في رحلة طويلة إلى نهر ماكنزي .ظل وايت فانغ على نهر يوكون ، ملكاً لإنسان أكثر من نصف مجنون وكله وحشية وقسوة . ولكن ما الذي يعرفه الكلب في وعيه عن الجنون ؟ بالنسبة لوايت فانغ كان بيوتي سميث إلهاً حقيقياً ، ولو أنه إله رهيب . كان في أفضل الأحوال إلهاً مجنوناً ،لكن وايت فانغ لم يكن يعرف شيئاً عن الجنون ، كان يعرف فقط أن عليه أن يخضع لمشيئة هذا السيد الجديد ، أن يطيع كل نزواته ورغباته .

* * *

الفصل السابع عشر

سلطان الكراهية

في ظل وصاية الإله المجنون أصبحوايت فانغ شيطاناً شريراً فقد أبقي مسلسلاً في حظيرة تقع في مؤخرة القلعة ، وهنا كان بيوتي سميث يعذبه بالتشويق ويثيره ويدفعه إلى الحالة الوحشية بوسائل تعذيب حقيرة. اكتشف الرجل باكراً حساسية وايت فانغ تجاه الضحك فجعله هدفاً للضحك بعد الاحتيال عليه بشكل مؤلم . هذا الضحك كان صاخباً وساخراً ، وفي الوقت نفسه كان الإله يشير بإصبعه بشكل ساخر إلى وايت فانغ. في مثل هذه الحالات كان العقل يهرب من وايت فانغ ، وفي نوبات غضبه كان أكثر جنوناً حتى من بيوتي سميث .

فيما سبق كان وايت فانغ مجرد عدو لنوعه ،وفوق ذلك عدواً شرساً . لقد أصبح الآن عدواً لكل الكائنات وأكثر ضراوة مما سبق . فبقدر ما تلقى من العذاب صار يكره بشكل أعمى وبدون أوهى ذرة من العقل : كان يكره السلسلة التي كانت تقيده ، والبشر الذين يتلصصون

عليه من خلال شقوق الزريبة ، والكلاب التي كانت ترافق البشر والتي كانت تزمجر به ، بشكل حقود في يأسه .

كان يكره كل خشبة من خشبات الحظيرة التي كانت تحصره .

أولاً وأخيراً وقبل كل شيء كان يكره بيوتي سميث . لكن بيوتي سميث كان له غرض من كل ما كان يفعله لوايت فانغ. ذات يوم تجمع عدد من البشر حول الحظيرة . دخل بيوتي سميث وفي يده عصا وانتزع السلسلة من رقبة وايت فانغ . عندما خرج صاحبه صار طليقاً وراح يجوس حول الحظيرة محاولاً الوصول إلى البشر الذين في الخارج . كان مخيفاً بشكل هائل . كان طوله خمسة أقدام كاملة ويبلغ قدمين ونصف عند الكتف ، وكان يفوق في وزنه ذئباً يماثله في الحجم . من أمه ورث أشد صفات الكلب ، فهو بدون شحم ، وبدون أونصة واحدة من اللحم الزائد يبلغ وزنه تسعين باونداً . كان كله عضلات وعظم وعضل — كان لحماً مقاتلاً في أنقى حالاته.

فُتح باب الحظيرة مرة أخرى . توقف وايت فانغ. شيء ما غير عادي كان يحدث . انتظر . فتح الباب بشكل أوسع . ثم دفع كلب ضخم إلى الداخل وأغلق الباب وراءه.لم يكن وايت فانغ قد رأى مثل هذا الكلب فقد كان من نوع الدرواس (*) لكن الحجم والمظهر الشرس للدخيل لم يردعاه . هنا كان ثمة شيء ما ، ليس خشباً ولا حديداً ، ليصب عليه كراهيته . قفز إلى الداخل بضربة أنياب شقت جانباً من عنق الدرواس . هز الدرواس رأسه وهو يجأر

* الدرواس : كلب ضخم من كلاب الحراسة . (المترجم)

بصوت أجش وانقض على وايت فانغ . لكن وايت فانغ كان هنا، هناك، وفي كل مكان ، دائماً يروغ ويتملص ، ودائماً يقفز إلى الداخل ويضرب بأنيابه ثم يقفز إلى الخارج فوراً لينجو من العقاب .

كان البشر في الخارج يصيحون ويصفقون في حين كان بيوتي سميث، في نشوة الفرح يتأمل في الشق والتشويه الذين سببهما وايت فانغ لم يكن للدرواس أي أمل منذ البداية . فقد كان ثقيلاً تعوزه الرشاقة وبطيئاً أكثر مما ينبغي . في النهاية، بينما كان بيوتي سميث يرد وايت فانغ بالعصا ، كان الدرواس يسحب من قبل صاحبه . ثم كان هناك دفع الرهانات وكانت النقود تخشخش في يد بيوتي سميث .

جاء وايت فانغ ليتطلع بلهفة إلى تجمع الرجال حول حظيرته . فقد كان ذلك يعني معاركة ، وكانت هذه هي الطريقة الوحيدة المتاحة له الآن للتعبير عن الحياة التي كانت تمور في داخله . فلكونه قد خضع للتعذيب ، وحُرّض على الكراهية ، ظل حبيساً بحيث لم تكن هناك أي طريقة لإشباع تلك الكراهية إلا في الأوقات التي كان يجدها سيده مناسبة لتهويش كلب ضده . كان بيوتي سميث قد حسب قدراته جيداً ، لأنه كان المنتصر بشكل دائم .

ذات يوم تناوبت عليه ثلاثة كلاب على التوالي . وفي يوم آخر ، أُدخل ذئب بالغ اصطيد حديثاً من البرية ، عبر باب الحظيرة . وفي يوم آخر أطلق كلبان ضده في وقت واحد . كانت هذه أقسى معاركاته ومع أنه في النهاية صرعهما فقد كان هو نفسه شبه مقتول أثناء قيامه بذلك .

في خريف العام ، عندما كانت طلائع الثلج تهطل وكان الجليد المتكسر يجري في النهر، انطلق بيوتي سميث مع وايت فانغ في رحلة

على متن زورق بخاري في نهر يوكون إلى دوسون . كان وايت فانغ قد حقق سمعة طيبة في البلاد .

فقد كان معروفاً في طول البلاد وعرضها باسم « الذئب المقاتل » وكان القفص الذي حبس فيه على متن الزورق البخاري محاطاً عادة بالبشر الفضوليين .

كان يغضب ويزمجر بهم ، أو يستلقي بهدوء ويتأملهم بكراهية باردة فلماذا لا يفترض به أن يكرههم ؟ لم يطرح هذا السؤال على نفسه . لم يكن يعرف سوى الكراهية وأضاع نفسه في الولع بها . أصبحت الحياة جحيماً بالنسبة له . لم يكن قد خلق من أجل الحجز الشديد الذي تلقاه الوحوش البرية على أيدي البشر . ومع ذلك كان يُعامل بهذه الطريقة تحديداً .

كان البشر يحملقون فيه ، يدخلون العصي بين القضبان لجعله يزمجر ثم يضحكون عليه .

كان هؤلاء البشر هم بيئته ، فكانوا يقولبون صلصاله إلى مخلوق أشرس مما كانت الطبيعة تقصد أن تجعله . لا داعي للقول أن الطبيعة قد منحته اللدانة . فحيثما كان من المفروض بكثير من الحيوانات الأخرى أن تموت أو تنكسر روحها ، كان يكيف نفسه ويعيش دون أن يكون ذلك على حساب الروح . ربما كان بيوتي سميث كبير الشياطين، وهو المعذِّب . قادراً على تحطيم روح وايت فانغ، بيد أنه حتى حينه لم يكن هناك أي مؤشر على نجاحه في ذلك .

لو كان في داخل بيوتي سميث شيطان ، لامتلك وايت فانغ شيطاناً

آخر ، ولكان الإثنان ينقضان على بعضهما البعض بدون توقف . في الأيام السابقة ، كان وايت فانغ قد امتلك الحكمة الكافية لأن يتذلل ويمتثل لإنسان يحمل عصاً في يده ، لكن هذه الحكمة قد غادرته الآن . إن مجرد رؤية بيوتي سميث كانت كافية لإدخاله في نوبات الغضب . وعندما كانا يأتيان إلى الأحياء القريبة ويرد على أعقابه بالعصا ، كان يستمر في الجأر والزمجرة والتكشير عن أنيابه . إن آخر جأرة لم يكن من الممكن إخراجها منه أبداً . بغض النظر عن الطريقة الفظيعة التي كان يضرب بها فقد كان لديه دائماً جأرة أخرى ، وعندما كان بيوتي سميث يكف يده عنه وينسحب كانت الجأرة المتحدية تتبعه أو يثب وايت فانغ على قضبان القفص لينفث كراهيته .

عندماوصل الزورق البخاري إلى دوسون صعد وايت فانغ إلى الشاطىء لكنه كان لا يزال يحيا حياة علنية، في قفص ، محاطاً بالبشر الفضوليين .

كان معروضاً باعتباره « الذئب المقاتل » وكان الناس يدفعون خمسين سنتاً بغبار الذهب لمشاهدته . لم يُعطَ أي استراحة . فإذا استلقى لينام كان يُنخس بعصا حادة — بحيث يمكن للجمهور أن ينال قيمة نقوده . لجعل العرض ممتعاً كان يُبقى في حالة استنفار معظم الوقت . ولكن الأسوأ من ذلك كله هو الجو الذي كان يعيش فيه فقد كان يعتبر الأكثر إثارة للرعب من بين الوحوش البرية ، وكان هذا الاعتبار ينقل إليه عبر قضبان القفص . كل كلمة ، كل فعل محترس من جانب البشر كان يخلق لديه انطباعاً بضراوته الرهيبة . فكان ذلك يصب مزيداً من الزيت على نار شراسته . ولم يكن من الممكن أن توجد سوى نتيجة واحدة وهي أن ضراوته كانت تغذي

نفسها بنفسها وتتعاظم . كان ذلك مثالاً آخر على لدانة صلصاله على قابليته لأن يقولب بواسطة ضغط البيئة .

بالإضافة إلى كونه مادة للعرض ، فقد كان حيواناً مقاتلاً محترفاً . ففي أوقات غير منتظمة ، وكلما أمكن تدبير معاركة كان يتم إخراجه من القفص ويُساق إلى الغابة على بعد أميال قليلة من المدينة . كان يحدث هذا عادة في الليل وذلك تفادياً لتدخل الشرطة الخيالة التابعة للمنطقة . بعد ساعات قليلة من الانتظار ، عندما يكون ضوء النهار قد انبلج ، يكون الجمهور والكلب الذي سيتعارك معه (أي مع وايت فانغ) قد وصلا . بهذه الطريقة حصل له أن عارك كل حجوم وأصناف الكلاب . كانت بلاداً همجية وكان البشر همجيين ، وكانت المعاركات تستمر عادة حتى الموت .

بما أن وايت فانغ استمر في المعاركة فمن الواضح أن الكلاب الأخرى هي التي كانت تموت . إنه لم يعرف الهزيمة أبداً . إن تدريبه المبكر ، عندما كانت يتعارك مع ليب – ليب وقطيع الجراء بكامله ، كان عوناً كبيراً له وكان هناك العناد الذي كان يتشبث به بالأرض . فلم يفلح أي كلب في جعله يفقد موضع أقدامه . فكانت الحيلة المفضلة لدى أصناف الذئاب هي أن تهجم عليه إما بشكل مباشر أو بانحراف غير متوقع أصلاً في ضرب كتفه وطرحه أرضاً . إن كلاب الصيد الماكنزية وكلاب الاسكيمو واللابرادور والمالوت كلها قد جربت ذلك عليه وكلها أخفقت . لم يعرف عنه أنه يفقد موطىء أقدامه . كان الناس يتناقلون ذلك فيما بينهم وينظرون في كل مرة ليروا ذلك يحدث ، لكن وايت فانغ كان يخيب آمالهم دائماً .

ثم كانت هناك سرعته الخاطفة كالبرق . فقد كانت تعطيه ميزة هائلة على خصومه . بغض النظر عن خبرتهم القتالية ، لم يصادفوا أبداً كلباً يتحرك بسرعة كما كان يفعل هو . كذلك فإن ما ينبغي أن يحسب حسابه هو فورية هجومه . فالكلب العادي كان معتاداً على المقدمات التمهيدية من زمجرة وانتصاب شعر وجأر قبل أن يبدأ العراك أوقبل أن يستفيق من المباغتة . وهذا ما كان يحدث غالباً . لذلك فقد صار من المعتاد أن يتم احتجاز وايت فانغ إلى أن يتجاوز الكلب الآخر المهمدات ويصبح صالحاًومستعداً للعراك لا بل حتى يقوم بهجمته الأولى .

لكن أعظم هذه الميزات قاطبة لصالح وايت فانغ كانت خبرته. كان يعرف عن المعاركة أكثر مما يعرف أيٌ من الكلاب الأخرى التي كانت تواجهه . فقد سبق له أن خاض معاركات أكثر ، وكان يعرف كيف يواجه حيلاً وأساليب أكثر ، وكان هو نفسه يمتلك حيلاً أكثر ، في حين أن أسلوبه كان نادراً ما يجري عليه أي تحسين .

مع مرور الوقت كانت تقل معاركاته شيئاً فشيئاً . لقد يئس الناس من مضاهاته بمكافىء له . وكان بيوتي سميث مجبراً على أن يهوش عليه الذئاب . كانت هذه الذئاب تصطاد من قبل الهنود لهذا الغرض وكان من المؤكد أن المعاركة بين وايت فانغ وذئب ستجذب حشداً من المتفرجين . ذات مرة ، جيء بوشقة بالغة ، وكان على وايت فانغ هذه المرة أن يقاتل دفاعاً عن حياته. كانت سرعتها تضاهي سرعته وضراوتها تساوي ضراوته ، وفي حين كان هو يعارك بأنيابه فقط ، فقد كانت هي تعارك بأقدامها ذات البراثن الحادة أيضاً .

ولكن بعد الوشقة توقف كل العراك بالنسبة لوايت فانغ . لم تعد هناك حيوانات ليتعارك معها – على الأقل لم يكن هناك حيوان واحد جدير بالمعاركة معه . وهكذا ظل في العرض حتّى فصل الربيع عندما وصل المدعو تيم كينان ، وهو لاعب فرعونية (*) ، إلى البلاد . ومعه جاء أول بلدوغ (**) سبق له أن دخل الكلونذايك . كان من المحتّم أن يلتقي هذا الكلب ووايت فانغ ،ولمدة اسبوع كانت المعاركة المرتقبة هي الحديث الرئيسي في أحياء المدينة .

* * *

* الفرعونية : لعبة قمار بورق الشدة . (المترجم)

** البلدوغ : كلب قوي جريء ضخم الرأس قصير الشعر . (المترجم)

الفصل الثامن عشر

الموت المعلق

قام بيوتي سميث بحل السلسلة من عنقه وخطا متراجعاً . لوهلة من الزمن لم يقم وايت فانغ بهجوم فوري.فقد لبث ساكناً وأذناه مشرئبتان إلى الأمام ، مستنفراً ومستطلعاً يقيس بنظراته الحيوان الغريب الذي كان في مواجهته . لم يسبق له أبداً أن رأى كلباً كهذا من قبل .

دفع تيم كينان بكلب البلدوغ إلى الأمام وهو يتمتم « رُحْ له » .

صار الحيوان يتهادى باتجاه مركز الدائرة هزيلاً جاثماً وتعوزه البراعة ، توقف وصار ينظر بعينين طارفتين إلى وايت فانغ .

كانت هناك صرخات آتية من الحشد من قبيل « رح له ، ياتشيروكي ! اسحقه يا تشيروكي ! التهمه ! » .

لكن تشيروكي لم يكن يبدو مهتماً بالمعاركة . فتل رأسه وصار ينظر بعينين طارفتين إلى البشر الذين كانوا يصيحون ، وفي الوقت نفسه كان يهز رأس ذيله بطيب خاطر . لم يكن خائفاً بل متكاسلاً فحسب . بالإضافة إلى ذلك ، لم يكن يبدو أن المقصود أن عليه أن

يتعارك مع الكلب الذي يراه أمامه . لم يكن معتاداً على المعاركة مع ذاك النوع من الكلاب . وكان بانتظارهم لكي يحضروا الكلب الحقيقي.

دخل تيم كينان وانحنى فوق تشيروكي مداعباً إياه على جانبي كتفيه بيدين تفركان خصلة الشعر وتقومان بحركات طفيفة إلى الأمام . كان ثمة ايحاءات كثيرة . كذلك ، كان تأثيرهما مهيجاً لأن تشيروكي بدأ يجأر بصوت خافت جداً ، ومن أعماق حنجرته . كان ثمة توافق في الإيقاع بين الجأرات وحركات يدي الرجل . فكان الجأر يرتفع في الحلقوم مع تأوج كل حركة دفع إلى الأمام ، ويهبط ليقلع من جديد مع انتهاء الحركة بشكل مفاجىء وارتفاع الجأر مع نخعة .

لم يكن هذا بدون تأثير على وايت فانغ. فقد بدأ الشعر ينتصب على عنقه عبر كتفيه . أعطاه تيم كينان دفعة أمامية أخيرة وتراجع عائداً مرة أخرى . عندما تلاشى الزخم الذي كان يدفع تشيروكي إلى الأمام ، استمر في التقدم بإرادته بهرولة سريعة وهو مقوّس الأرجل . ثم ضرب وايت فانغ ضربته.فصدرت عنه صرخة إجفال . كان قد قطع المسافة ومضى أشبه بالقط وبالسرعة القطية نفسها كان قد ضرب بأنيابه ووثب هارباً .

كان البلدوغ ينزف خلف إحدى أذنيه من شق في عنقه الثخين . لم يبدِ أية إشارة،لم يزمجر ، بل استدار ولحق بوايت فانغ . هذا العرض من الجانبين ، سرعة أحدهما وثبات الآخر ، أثار الروح المحازبة لدى الجمهور فصار الناس يقومون بمراهنات جديدة ويزيدون على المراهنات الأصلية .

مرة أخرى ، مع ذلك ، وثب وايت فانغ ، ضرب وابتعد

دون أن يتأذى ، ولا يزال عدوه الغريب يتبعه ، بدون سرعة كبيرة أكثر مما يجب ، ولا ببطء ، بل بشكل مدروس ، وبتصميم ، وفق أسلوب فعّال . لقد كان ثمة غرض من أسلوبه ـ شيء ما لأجله ليقوم به كان يتقصد عمله ولا شيء يمكن أن يصرفه عنه .

إن سلوكه برمته ، كل فعل من أفعاله ، كان مطبوعاً بهذا الهدف . مما أربك وايت فانغ . لم يسبق له أبداً أن شاهد مثل هذا الكلب. إذ أنه لم يكن يمتلك حماية شعرية . كان ناعماً ، وينزف بسهولة ، لم يكن ثمة طبقة سميكة من الفرو لتصد أسنان وايت فانغ ،كما كانت تصد غالباً لدى الكلاب من سلالته . في كل مرة كانت أسنانه تضرب كانت تغوص بسهولة في اللحم المطاوع ، وفي حين أن الحيوان لم يكن يبدو قادراً على الدفاع عن نفسه فقد كان ثمة شيء محبط آخر هو أنه لم يكن يطلق صراخاً ، كتلك الصرخة التي اعتاد إطلاقها مع الكلاب الأخرى التي عاركها . بعد الجأر أو النخر كان يتلقى عقوبته بصمت . ولم يتوان عن مطاردته له .

ليس معنى هذا أن تشيروكي كان بطيئاً . فقد كان بمقدوره أن يدور ويلتف بسرعة كافية،ولكن وايت فانغ لم يكن هناك . احتار تشيروكي أيضاً . لم يسبق له أبداً أن تعارك مع كلب لا يستطيع الالتحام به . كانت الرغبة في الالتحام متبادلة دوماً . ولكن كان ثمة كلب يبقى على مسافة ، يرقص ويراوغ هنا وهناك وفي كل الاتجاهات . وعندما يحدث أن يغرز أسنانه فيه ، فإنه لا يثبت في مكانه بل يفلت حالاً ويبتعد مرة أخرى .

لكن وايت فانغ لم يقدر على الوصول إلى الجانب السفلي اللين من الحنجرة . كان البلدوغ يقف على مسافة أقصر مما ينبغي في حين أن الفكين الضخمين كانا بمثابة حماية إضافية . كان وايت فانغ ينقض رائحاً غادياً دون أن يمس بأذى ، في حين كانت جراح تشيروكي تزداد . لقد جرح وشق عنقه ورأسه من الجانبين . كان ينزف بغزارة ، لكنه لم يظهر أي علامة من علامات الإحباط ، واستمر في مطاردته المتثاقلة مع أنه ذات مرة ، وقد صُدّ للحظة ، توقف وصار ينظر بعين طارفة إلى البشر الذين كانوا يتفرجون عليه ، وفي الوقت نفسه كان يهز رأس ذيله كتعبير عن رغبته في العراك .

في تلك اللحظة كان وايت فانغ ينقض عليه جيئة وذهاباً، وهو في مروره يخزق البقية المشرومة من أذنه . بمظهر طفيف من مظاهر الغضب استأنف تشيروكي المطاردة مرة أخرى وهو يجري ضمن الدائرة التي كان يرسمها وايت فانغ، ويجاهد لإحكام قبضته القاتلة على حنجرة وايت فانغ . إن البلدوغ الذي أخطأ قيد شعرة،وصرخات المديح التي كانت تتصاعد قدجعلتوايت فانغ يضاعف بشكل مفاجىء من دائرة الخطر في الاتجاه المعاكس .

مر الوقت . وكان وايت فانغ لا يزال يرقص ويراوغ ويضاعف سرعته ويقفز رائحاً غادياً ولا يسبب الأذى أبداً ، وكان البلدوغ لا يزال يكد في أثره بعزيمة لا تلين .فعاجلاً أم آجلاً سوف يحقق غرضه ، وسيحوز على القبضة التي تجعله يكسب المعركة . في هذه الأثناء كانت خصلات شعر أذنيه قد أصبحت شُرَابات ، ورقبته

وكتفيه مضروبة في عشرين مكاناً ، وشفتاه بالذات كانتا تنزفان — كل ذلك من تلك العضات الخاطفة التي كانت أبعد من قدرته على التنبؤ والاحتراس .

مرة أخرى كان وايت فانغ قد حاول أن يطرح تشيروكي أرضاً، لكن الفرق بينهما في الارتفاع كان أكبر مما ينبغي . كان تشيروكي قصيراً وثخيناً أكثر مما ينبغي ، وقريباً من الأرض أكثر مما ينبغي . فكان وايت فانغ غالباً ما يجرب الحيلة مرة أخرى أيضاً. جاءه الحظ في واحدة من قلباته السريعة ودوراناته المعاكسة . فأمسك تشيروكي ورأسه ملتفت نحو البعيد بينما كان يلتف بشكل أبطأ . كان كتفه مكشوفاً . فانقض وايت فانغ عليه ، لكن كتفه هو كان عالياً، بينما ضرب بقوة جعلت عزمه يدفعه ليتجاوز جسم الآخر . لأول مرة في تاريخه العراكي يشاهد الناس وايت فانغ وهو يفقد موطىء أقدامه . انقلب جسمه نصف شقلبة في الهواء ، وكان سيقع على ظهره لو لم ينفتل ، مثل القط ، وهو لا يزال في الهواء ، محاولاً جعل أقدامه على الأرض . وبينما هو يفعل ذلك سقط بشدة على جنبه . في اللحظة التالية كان واقفاً على أقدامه ، ولكن في تلك اللحظة أطبقت أسنان تشيروكي على حنجزته .

لم تكن مسكة موفقة لكونها منخفضة جداً باتجاه الصدر ، لكن تشيروكي تشبث به.انتفض وايت فانغ على أقدامه وصار يتخبط بشكل مسعور محاولاً أن يؤرجح جسم البلدوغ . وهذا ما جعله مسعوراً بفعل هذا الوزن المعلق المجرجر. لقد قيد حركاته وحد من حريته . كان مثل الفخ ، وكل غريزته كانت تستاء منه وتثور ضده . كانت

ثورة مجنونة . على مدى بضع دقائق أصبح مجنوناً بكل المعاني . إن الحياة الأساسية التي كانت في داخله هي التي تولت مسؤوليته . لقد تغلبت عليه إرادة جسمه في البقاء . كان خاضعاً لسيطرة هذا الحب اللحمي للحياة فحسب . لقد ذهب الذكاء كله .

كان الأمر كما لو أنه كان بلا دماغ . كان عقله قد خُلع وعُزل بالتوق الأعمى للحم إلى العيش والحركة ، إلى الحركة برغم كل المخاطر ، للاستمرار في الحركة ، لأن الحركة هي التعبير عن وجوده .

صار يدور ويدور ، ملتفاً ومرتداً ، محاولاً نتر وزن الخمسين باونداً المعلق بحنجرته . إن البلدوغ لم يفعل سوى القليل للحفاظ على قبضته . في بعض الأحيان ونادراً ، كان ينجح في وضع أقدامه على الأرض وإلصاق نفسه للحظة بوايت فانغ. لكنه في اللحظة التالية كان يفقد موطيء أقدامه ويتجرجر دائراً في دوامة من التدويمات المجنونة لوايت فانغ. إن تشيروكي قد ماهى نفسه بغريزته . كان يعرف أنه يفعل الصواب بالتشبث ، فراودته رعشات سعيدة أكيدة من الرضا ، في مثل هذه اللحظات كان يغمض عينيه ويسمح لجسمه بأن ينقذف هنا وهناك ، طوعاً أو كرهاً ، غير مبالٍ بأي ألم يمكن أن ينجم عن ذلك فهذا لم يكن يهمه . إن القبضة هي الشيء المهم ، وعلى القبضة ظل محافظاً.لم يكف وايت فانغ إلا عندما أنهك نفسه . لم يقدر على فعل أي شيء ولم يكن بمقدوره أن يفهم . أبداً ، في كل معاركاته ، لم يحدث له هذا الشيء . فالكلاب التي كان قد عاركها لم تكن تعارك بهذه الطريقة . كان العراك معها عضاً وضرباً وقفزاً ، عضاً وضرباً

وقفزاً . استلقى على جنبه جزئياً طلباً للشهيق . إن تشيروكي الذي كان لا يزال ممسكاً به قد استثير ضده محاولاً قلبه كلياً على جنبه . قاوم وايت فانغ واستطاع أن يشعر بالفكين ينقلان قبضتهما، فيرتخيان قليلاً ويعاودان الانطباق ثانية في حركة مضغية . وكل نقلة كانت تقرب القبضة إلى حنجرته . كان أسلوب البلدوغ هو أن يتمسك بكل ما لديه ، وعندما تسنح له الفرصة يتقدم من أجل المزيد . وقد سنحت له الفرصة عندما ظل وايانغ ساكناً . عندما كان وايت فانغ يصارع كان تشيروكي يكتفي بالتشبث .

إن الانتفاخ الخلفي لعنق تشيروكي كان الجزء الوحيد من جسمه الذي كان بمقدور أسنان وايتفانغ أن تطاله . زحزح القبضة نحو القاعدة حيث يبرز العنق من الكتفين ، لكنه لم يكن يعرف الأسلوب المضغي في العراك ولا كان فكاه مهيئين لذلك . فصار يندفع بعنف ويشد بقوة بأنيابه من أجل فراغ . ثم إن تبدلاً في وضعيتهما ألهاه عن ذلك . فنجح البلدوغ في دحرجته على ظهره ، وأصبح فوقه وهو لا يزال ممسكاً بحنجرته . ومثل القط قوّس وايت فانغ قسمه الخلفي، وبأقدامه التي كانت تحفر في بطن عدوه الذي فوقه ، بدأ يضرب بمخلبيه ضربات طويلة ممزقة . كان من الممكن أن تكون أحشاء تشيروكي قد نزعت لو لم يتمحور سريعاً على قبضته ويبعد جسم وايت فانغ ويصبح بعيداً عنه بزاويا قائمة .

لم يكن هناك مفر من تلك القبضة . كانت مثل القدر ذاته ، وكانت عنيدة لا ترحم . صارت تتزحزح ببطء على امتداد الوريد الوداجي .

إن ما أنقذ وايت فانغ من الموت هو الجلد الرخو لعنقه والفراء الثخين الذي كان يغطيه . وقد خدم هذا بأن شكل لفافة كبيرة في فم تشيروكي الذي كان فراؤه يتحدى أسنانه تقريباً . ولكن شيئاً فشيئاً ، وكلما سنحت له الفرصة ، كان يقبض على مزيد من الجلد الرخو والفراء في فمه . النتيجة أنه كان يخنق وايت فانغ تدريجياً . فكان شهيق هذا الأخير يسحب بمشقة أكثر فأكثر مع إنقضاء اللحظات .

بدأ الأمر يبدو كما لو أن المعركة قد انتهت . إن مؤيدي تشيروكي صاروا شديدي الابتهاج وقد أبدوا تحيزاً مثيراً للسخرية . أما مؤيدوا وايت فانغ ، بالمقابل ، فقد همدوا ورفضوا الرهانات بعشرة إلى واحد ومراهنات العشرين إلى واحد ، مع أن أحد الرجال كان متهوراً كفاية إلى درجة أنه قد أقفل المزاد على خمسين إلى واحد . هذا الرجل هو بيوتي سميث . تقدم خطوة نحو الحلبة وأشار بأصبعه إلى وايت فانغ . ثم بدأ يضحك بشكل ساخر وهازىء . وهو ما أحدث التأثير المطلوب . صار وايت فانغ مجنوناً من الحنق . فقد قام باستدعاء كل قواته الاحتياطية وثبت أقدامه . وبينما كان يصارع حول الحلبة ، والخمسين باونداً ، وزن عدوه ، تنجر معلقة على حلقه ، تحول غضبه إلى هلع . إن حياته الأساسية قد سيطرت عليه مرة أخرى ، وهرب ذكاؤه أمام إرادة لحمه في العيش . صار يدور ويدور ويعاود الدوران مرة أخرى ، فيترنح ويسقط ثم ينهض ، حتى أنه كان ينتصب على قائمتيه الخلفيتين ويرفع خصمه عن الأرض ، فصار يصارع عبثاً لإبعاد الموت المعلق .

وأخيراً سقط وهو ينقلب إلى الوراء منهكاً ، وفجأة نقل البلدوغ

قبضته مقترباً أكثر ، تالفاً المزيد من اللحم الملفوف بالفراء ، خانقاً وايت فانغ بشدة أكثر من السابق. تصاعدت هتافات الاستحسان للمنتصر وكان الكثيرون يصيحون « تشيروكي ! تشيروكي ! » . فكان يرد على هذه الصيحات بهزة عنيفة من رأس ذيله. لكن صخب الاستحسان لم يردعه.

لم تكن ثمة علاقة تعاطفية بين ذيله وفكيه الكبيرين . إذ يمكن للواحد منهما أن يهتز فيما الآخران يقبضان بشكل رهيب على حنجرة وايت فانغ. في هذا الوقت بالضبط حدث التحول بالنسبة للمتفرجين . كان ثمة جلجلة أجراس . كانت تُسمع صيحات مشجعي الكلاب . كان الجميع ، ما عدا بيوتي سميث ، ينظرون بقلق ؛ فقد كان الخوف من الشرطة مهيمناً عليهم بقوة ولكنهم شاهدوا ، في أعلى الدرب ، وليس في أسفله ، رجلين يركضان مع زلاجات وكلاب . من المؤكد أنهما كانا يهبطان إلى النهر قادمين من رحلة تنقيب . لدى رؤية الحشد أوقفا كلابهما وصعدا وانضما إليه لرؤية سبب الاهتياج . كان سائس الكلاب ذا شارب ، أما الآخر الأطول والأصغر سناً ، فكان حليقاً ، متورد الجلد من احتباس دمه والسير في الهواء الصقيعي .

كان وايت فانغ قد توقف عملياً عن الصراع. من حين لآخر كان يقاوم بشكل تشنجي وبدون جدوى . استطاع أن يستنشق قليلاً من الهواء ، وصار هذا القليل يقل شيئاً فشيئاً تحت القبضة التي لا ترحم التي كانت تشتد عليه . بالرغم من درعه الفروي فإن الوريد الكبير لحنجرته كان من الممكن أن يكون قد تمزق وانفتح منذ زمن طويل لو لم تكن القبضة الأولى للبلدوغ منخفضة جداً بحيث كانت تقع عملياً على الصدر . لقد احتاج تشيروكي إلى وقت طويل لكي ينقل

القبضة نحو الأعلى ، وهذا كان له دور أكبر في جعل فكيه يغصان بالفرو وطيات الجلد .

في هذه الأثناء ، كان الوحش السحيق لدى بيوتي سميث يرتفع إلى دماغه ويسيطر على الجزء الصغير من العقل الذي كان يمتلكه في أحسن الأحوال .

عندما رأى عيني وايت فانغ وقد بدأتا تكتسيان غشاوة الموت عرف بما لا يدع مجالاً للشك أن المعركة قد خسرت . فانفرط عقده . انقض على وايت فانغ وبدأ يرفسه بوحشية . كان ثمة هسهسات من الجمهور وصرخات احتجاج . ولكن هذا كل شيء . في أثناء ذلك ، استمر بيوتي سميث في رفس وايت فانغ ، فحدث اهتياج لدى الجمهور . كان الوافد الجديد الطويل القامة يشق طريقه مبعداً الرجال بكتفيه ذات اليمين وذات الشمال بدون كياسة أو تهذيب . عندما اخترق الحلبة ، كان وايت فانغ مقلباً بتسديد رفسة أخرى . كان كل وزنه واقعاً على قدم واحدة ، وكان في حالة من التوازن اللامستقر . في تلك اللحظة نزلت قبضة الوافد الجديد بلكمة ساحقة في وجهه . فبرحت ساق بيوتي سميث المتبقية على الأرض وبدا أن جسمه بكاحله يرتفع في الهواء بينما انقلب على ظهره وارتطم بالثلج . التفت الوافد الجديد إلى الجمهور .

« أنتم جبناء » صاح « أنتم وحوش ! » .

كان هو نفسه في حالة غضب شديد ـ غضب عاقل . كانت عيناه الرماديتان تبدوان معدنيتين مثل الفولاذ عندما تلمعان للجمهور .

استعاد بيوتي سميث قدميه وتقدم نحوه بتذلل وجبن . لم يفهم القادم الجديد . لم يكن يعرف كم كان الآخر خسيساً واعتقد أنه كان عائداً بقصد القتال . لذلك ، ومع كلمة « أنت بهيم » أطاح بيوتي سميث بلكمة ثانية في وجهه . قرر بيوتي سميث أن الثلج هو أكثر الأماكن أماناً بالنسبة له ، واستلقى حيث سقط دون أن يبذل أي جهد للنهوض .

« هيا ، تعال يا مات ، اعطني يدك » نادى الوافد الجديد على سائس الكلاب الذي كان قد تبعه إلى الحلبة .

انحنى الرجلان فوق الكلاب . أمسك مات بوايت فانغ ، وهو مستعد لسحبه عندما يرخي تشيروكي فكيه . وهذا ما كان الفتى يسعى إليه . وذلك بأن أمسك فكي البلدوغ بيديه محاولاً فتحهما عن بعضهما . كان عملاً بدون جدوى . وبينما كان يشد بقوة وينتر ، ظل يصرخ بكل ما أوتي من قوة « وحوش ! » .

بدأ الحشد يصبح مهتاجاً وكان بعض الرجال يحتجون ضد إفساد اللعبة ، لكنهم أسكتوا عندما رفع الوافد الجديد رأسه عن عمله للحظة وحدق فيهم .

« أنتم وحوش ! » انفجر أخيراً ، وعاد إلى عمله .

ــ « لا فائدة ، يا سيد سكوت ، لا يمكنك أن تفكه بهذه الطريقة » قال مات أخيراً .

توقف الإثنان ومسحا الكلبين المتشابكين بنظراتهما .

« إنه ينزف كثيراً » أعلن مات « لكنه لم يستسلم بعد »

« لكنه معرّض لذلك في أية لحظة » أجاب سكوت .

« هاك ، إنك ترى ذلك ! لقد نقل عضته قليلاً نحو الداخل »

كان اهتياج الفتى وقلقه على وايت فانغ يتناميان. ضرب تشيروكي على رأسه بوحشية المرة تلو الأخرى . لكن ذلك لم يرخِ الفك .

كان تشيروكي يهز رأس ذيله معلناً أنه فهم مغزى الضربات ، سوى أنه كان يعرف أنه هو نفسه على حق وأنه يقوم بواجبه بالإبقاء على قبضته .

« ألن يقدم أحد منكم مساعدة ؟ » صرخ سكوت في الحشد .

لكن أحداً لم يعرض أية مساعدة . بدلاً من ذلك ، بدأ الناس المحتشدون يهتفون بالتشجيع له بشكل ساخر ويمطرونه بالنصائح الفكهة .

ـ « سيكون عليك أن تحصل على فحل » أشار مات .

مد الآخر يده إلى قراب المسدس في وركه . استل مسدسه وحاول أن يحشر بوزه بين فكي البلدوغ . فصار يقحمه أكثر فأكثر إلى أن أصبح بالإمكان سماع احتكاك الفولاذ بالأسنان المقفلة بشكل مميز .

كان الرجلان جاثيين على ركبهما ، منحنيين فوق الكلبين . صار تيم كينان يتبختر إلى داخل الحلبة . توقف قرب سكوت ولمسه على الكتف وهو يقول له بشكل منذر بالشر :

« لا تكسر أسنانه أيها الغريب »

« إذاً ، سأكسر عنقه » أجاب سكوت وهو يستمر في الإقحام والتسفين ببوز المسدس .

« قلت لا تكسر أسنانه » كرر لاعب الفرعونية بشكل منذر بالشر أكثر من السابق .

ولكن لو كان ما يقصده خداعاً فلن ينجح . إذ أن سكوت لم يكف عن محاولاته مع أنه تطلع إلى فوق ببرود وسأل :

« كلبك ؟ »

نخر لاعب الفرعونية .

« إذاً ادخل هنا واكسر قبضته »

« حسناً ، أيها الغريب » تشدق الآخر مستفزاً ، « لا أعرف كيف أقوم بهذه الحيلة »

« إذاً ، تنحى جانباً » كان الرد « ولا تضايقني ، أنا مشغول »

استمر كينان في الوقوف فوقه ، لكن سكوت لم يعد يلاحظ وجوده . كان قد نجح في حشر بوز المسدس بين الفكين من جانب واحد وكان يحاول أن يخرجه من بين الفكين على الجانب الآخر. فتم ذلك . قام بالتسفين بلطف وحذر مؤدياً إلى فك الفكين قليلاً دفعة واحدة، في حين قام مات دفعة واحدة بتحرير عنق وايت فانغ المشوّه .

« قف جانباً لتستلم كلبك » كان أمر سكوت القاطع لصاحب تشيروكي . انحنى لاعب الفرعونية ممتثلاً وقبض على تشيروكي قبضة محكمة .

« الآن » حذّر سكوت ، وهو يدق الإسفين الأخير .

انفصل الفكان عن بعضهما ، حيث كان البلدوغ يصارع بشكل عنيف .

« ابعده » أمر سكوت وقام تيم كينان بسحب تشيروكي إلى داخل الحشد .

قام وايت فانغ بعدة محاولات غير فعالة للنهوض . في إحدى المرات وقف على أقدامه ، لكن أرجله كانت أضعف من أن تحمله فمال ببطء وغاص في الثلج . كانت عيناه نصف مغمضتين وسطحهما زجاجياً . كان فكاه متباعدين ، ومن خلالهما برز اللسان وصار مدلفاً ورخواً . كان بكل المقاييس يشبه كلباً مخنوقاً حتى الموت . قام مات بفحصه .

– « لقد انتهى تماماً » أعلن ، « لكنه يتنفس جيداً »

كان بيوتي سميث قد وقف على قدميه وجاء ليلقي نظرة على وايت فانغ .

« مات ، كم يساوي كلب المزلجة الجيد ؟ » سأل سكوت .

قام سائس الكلاب ، الذي كان لا يزال جاثياً على ركبتيه ومنكباً فوق وايت فانغ بإجراء الحساب لبرهة . وأجاب :

« ثلاثمائة دولار »

« وكم يساوي ثمن كلب معروك كهذا الكلب ؟ »

سأل سكوت ، وهو يلكز وايت فانغ بقدمه

« نصف هذا المبلغ » كان رأي سائس الكلاب

التفت سكوت إلى بيوتي سميث

« هل سمعت أيها السيد الوحش ؟ سآخذ كلبك منك وسأعطيك مئة وخمسين دولاراً ثمناً له »

فتح دفتر الجيب وأخرج الفواتير

وضع بيوتي سميث يديه خلف ظهره رافضاً أن يلمس المال المعروض عليه .

« أنا لا أبيع » قال :

« أوه ، نعم ، ستبيع » أكد له الآخر . « لأنني اشتري . هاك نقودك والكلب لي »

بدأ سميث يتراجع مبتعداً ويداه لا تزالان خلف ظهره .

وثب سكوت نحوه ، وهو يسحب قبضته إلى الوراء استعداداً للضرب فتكور بيوتي سميث ترقباً للضربة .

« لقد نلت حقوقي » وصار يئن ويتذمر .

« لقد رهنتَ حقوقك لتمتلك هذا الكلب » كان الرد .

— « هل ستأخذ النقود ؟ أم هل عليّ أن أضربك مرة أخرى ؟ »

— « حسناً » قال بيوتي سميث بخفة الخوف .

« لكنني آخذ النقود تحت الاحتجاج » أضاف . « فالكلب يساوي مبلغاً كبيراً وأنا لا أريد أن أنهب . كل إنسان ينال حقوقه » .

« صحيح » أجاب سكوت ممرراً النقود إليه « الإنسان ينال حقوقه لكنك لست إنساناً ، إنك بهيمة » .

« انتظر إلى أن أعود إلى دوسون » هدد بيوتي سميث « سأحكمك بالقانون »

« إذا فتحت فمك عندما تعود إلى دوسون . سأطردك من البلدة ، هل تفهم ؟ » أجاب بيوتي سميث بنخرة .

« مفهوم ؟ » هدر الآخر بشراسة مفاجئة

« نعم » نخر بيوتي سميث وهو ينكمش مبتعداً .

« نعم ، ماذا ؟ »

« نعم ، يا سيدي » زمجر بيوتي سميث

« انظروا ! إنه سيعض ! » صاح أحدهم ، وانطلقت قهقهة عالية .

أدار سكوت ظهره له وعاد ليساعد سائس الكلاب الذي كان ينقلب فوق وايت فانغ كان بعض الرجال يغادرون فيما وقف آخرون في جماعات يتفرجون ويتحدثون .

انضم تيم كينان إلى إحدى الجماعات .

« من هو ذاك المغفل ؟ » سأل .

« ويدون سكوت » أجابه أحدهم

« ومن هو ويدون سكوت ؟ » سأل لاعب الفرعونية .

« أوه ، إنه أحد خبراء المناجم البارعين ، إنه بارع في كل الأشياء الكبيرة .

إذا أردت الخروج من ورطة فما عليك إلا أن تقصده . هذا هو رأيي .

إنه داخل في علاقات مع كل المسؤولين . فمفوض الذهب صديق خاص له »

« ظننت أنه شخص ما » كان تعليق لاعب الفرعونية . هذا هو السبب في أنني بقيت مكتوف اليدين غالباً منذ البداية » :

* * *

الفصل التاسع عشر

الـذي لايقهـر

ـ « إنه شيء ميؤوس منه » اعترف ويدون سكوت .

جلس على درجة مقصورته وحدق في سائس الكلاب ، الذي رد بهزة كتف مستهجنة ومتشائمة بالقدر ذاته .

نظرا سوية إلى وايت فانغ وهو مربوط إلى طرف هذه السلسلة المطوطة ، منتصب الشعر ، مزمجراً ، غاضباً ، يشد ليصل إلى كلاب المزلجة . إن كلاب المزلجة ، نظراً لكونها قد تلقت دروساً عديدة من مات ، الدروس المنطوقة التي تُلقّن بالعصا ، قد تعلمت أن تترك وايت فانغ وشأنه ،حتى عندما كانت مستلقية على بعد ، ناسية وجوده ظاهرياً .

ـ « إنه ذئب ولا فائدة من ترويضه » . أعلن ويدون .

ـ « أوه ، لا أعرف شيئاً عن ذلك » اعترض مات « ربما كان فيه الكثير من الكلاب مما يمكنك أن تتحدث عنه . لكن ثمة شيء واحد أعرفه بشكل مؤكد ولا مفر منه » . توقف سائس الكلاب وأومأ برأسه واثقاً نحو جبل موزهايد .

– « حسناً ، لا تكن بخيلاً بما تعرفه » قال سكوت بحدة ، بعد انتظار فترة معينة من الزمن « ابصقها ، ما هي ؟ »

أشار سائس الكلاب إلى وايت فانغ بدفعة من إبهامه إلى الخلف .

« ذئب أم كلب ، كله سواء – فهو قد تروَّض تماماً »

« لا ! »

« أقول لك نعم ، وقد تعوّد على السرج والعدة . انظر هناك تماماً . هل ترى تلك العلامات على الصدر ؟ »

« أنت على حق ، يا مات . لقد كان كلب مزلجة قبل أن يقبض عليه بيوتي سميث » .

– « ولا يوجد مبرر كبير لئلا يكون كلب مزلجة مرة أخرى » .

– « ما رأيك ؟ » سأل سكوت بلهفة . ثم تلاشى الأمل عندما أضاف قائلاً وهو يهز رأسه«لقد مضى عليه اسبوعان وهو بحوزتنا، وإذا حدث أي شيء ، فقد أصبح في الوقت الحاضر أكثر ضراوة من ذي قبل » .

– « اعطه فرصة » اقترح مات « أفلته لفترة من الزمن » .

نظر إليه الآخر بشكل شكوكي .

– « نعم » تابع مات ، « أنا أعرف أنك حاولت ، لكنك لم تأخذ عصا »

– « جربه ، إذاً »

قام سائس الكلاب بتأمين عصا ومضى إلى الحيوان المسلسل .

كان وايت فانغ يراقب النبوت على طريقة الأسد المحبوس في قفص يراقب سوط مدربه .

« انظر ! إنه يبقي عينه على تلك العصا » قال مات .

« تلك إشارة جيدة . إنه ليس غبياً . لا يتجرأ على الإمساك بي طالما كانت العصا في يدي . إنه ليس مخبولاً تماماً ، بالتأكيد » .

بينما كانت يد الرجل تقترب من عنقه، انتصب شعر وايت فانغ وزمجر وأقعى . ولكن عندما أبصر اليد المقتربة ، خطط لملاحقة العصا في اليد الأخرى ، المعلقة بشكل مهدد فوقه . قام مات بنزع السلسلة من الياقة وخطا إلى الوراء .

استطاع وايت فانغ بشق النفس أن يتحقق من كونه حراً . انقضت أشهر عديدة منذ أن انتقل إلى ملكية بيوتي سميث ، وطوال تلك الفترة لم يكن قد عرف أبداً لحظة من الحرية باستثناء المرات التي كان يُفلت فيها ليتعارك مع كلاب أخرى وبعد هذه المعاركات كان يُعاد فوراً إلى السجن مرة أخرى .

لم يكن يدري ماذا يفعل . ربما كانت شيطنة جديدة من شيطنات الآلهة على وشك أن ترتكب بحقه . سار ببطء وبحذر ، مستعداً لأن يتلقى هجوماً في أية لحظة . لم يكن يعرف ماذا يفعل ، كان ذلك شيئاً لم يسبق له مثيل أبداً . اتخذ احتياطاته لكي يبتعد عن الإلهين المراقبين ، وسار بحذر إلى زاوية المقصورة . لم يحدث شيء . كان محتاراً ببساطة ،

فعاد مرة أخرى ، وتوقف على بعد عدة أقدام وصار يتمعن في الرجلين بشكل مركز .

« ألن يهرب ؟ » سأل صاحبه الجديد .

هزمات كتفيه دلالة على الاستهجان « لتكن مقامرة . الطريقة الوحيدة للاكتشاف هي أن تكتشف » .

« شيطان بائس » تمتم سكوت بشكل معبر عن الإشفاق . « إن ما يحتاج إليه هو إظهار بعض اللطف الإنساني » أضاف وهو يلتفت ثم يدخل إلى المقصورة .

خرج بقطعة من اللحم ، وقذف بها إلى وايت فانغ . فوثب بعيداً عنها ، ومن مسافة بعيدة صار يتفحصها بارتياب .

« هاي يو ماجور ! » صاح مات محذراً ، ولكن بشكل متأخر جداً .

كان ماجور قد وثب من أجل اللحمة . وفي اللحظة التي أطبق فكاه عليها ضربه وايت فانغ . فانطرح أرضاً . هجم مات ، لكن وايت فانغ كان أسرع منه . ترنح ماجور على أقدامه ، لكن الدم المنبثق من حنجرته قد لوّن الثلج بلون أحمر في طريق يزداد اتساعاً .

« إنه سيء جداً ، ولكنه أفاده تماماً » قال سكوت بسرعة .

لكن قدم مات كانت قد بدأت لتوها برفس وايت فانغ . فكان هناك وثوب ، تكشيرة أسنان ، صراخ . إن وايت فانغ الذي كان يزمجر بضراوة تراجع مذعوراً إلى الوراء بضعة ياردات بينما انحنى مات وصار يتفحص ساقه .

– « لقد نال مني تماماً » أعلن مشيراً إلى البنطلون والثياب الداخلية الممزقة ، وبقعة اللون الأحمر المتزايدة .

– « لقد قلت لك أن لا أمل منه ، يا مات » قال سكوت بصوت مثبط الهمة .

« لقد فكرت بالأمر مراراً وتكراراً ، دون أن يخطر ذلك ببالي ، ولكننا قد وقعنا فيه الآن . إنه الشيء الوحيد الذي سوف نفعله » .

بينما كان يتكلم ، استل مسدسه بحركات ممانعة وفتح السبطانة وتأكد من محتوياتها .

« انظر هنا ، يا سيد سكوت » اعترض مات « ليذهب هذا الكلب إلى الجحيم ، لا يمكنك أن تتوقع منه أن يصبح ملاكاً أبيض ساطعاً . اعطه وقتاً » .

« انظر إلى ماجور » رد الآخر .

مسح سائس الكلاب الكلب المضروب بنظراته . كان قد غاص في الثلج في دائرة دمه وكان ببساطة في النزع الأخير .

« لقد أفاده تماماً . أنت قلت ذلك بنفسك يا سيد سكوت . حاول أن يأخذ لحمة وايت فانغ وهو ميت – اوه . وهذا ما كان متوقعاً .

وأنا ما كنت لأدفع مثقال ذرتين ثمناً لكلب لا يقاتل من أجل لحمته » .

« ولكن انظر إلى نفسك ، يا مات . كل شيء على ما يرام بخصوص الكلاب ، ولكن يجب أن نرسم الحظ في مكان ما » .

« لقد خدمني تماماً » حاول مات بعناد . لماذا أردت أن أرفسه ؟ أنت قلت بنفسك أنه قد تصرف بشكل صحيح ، ثم أنه لم يكن لدي حق في رفسه » .

« سيكون من الرحمة أن أقتله » أصر سكوت « إنه غير قابل للترويض » .

« الآن انظر هنا ، يا سيد سكوت ، امنح الشيطان البائس فرصة قتال . فهو لم ينل أية فرصة حتى الآن . لقد مر بجحيم ، وهذه هي المرة الأولى التي يطلق فيها سراحه . امنحه فرصة عادلة ، وإذا لم يبل بلاءاً حسناً ، سأقتله بنفسي ، هناك ! »

« الله يعلم أنني لا أريد أن أقتله أو أريده مقتولاً » أجاب سكوت ، مبعداً المسدس . « سندعه يفلت ونرى أي فضل يمكن أن نقدمه له » .

مضى إلى وايت فانغ وبدأ يتحدث إليه بلطف وبشكل مهدىء .

« من الأفضل أن تحمل في يدك عصا » حذّر مات .

هز سكوت رأسه وتابع محاولة كسب ثقة وايت فانغ .

كان وايت فانغ شكوكاً . شيء ما كان على وشك الحدوث. فهو الذي قتل كلب هذا الإله ، وعض رفيق هذا الإله، فما الذي يتوقعه غير العقاب الرهيب ؟

ولكنه في مواجهة ذلك كان لا يقهر . فقد انتصب شعره وكشر عن أسنانه ، وعيناه يقظتان ، وجسمه بكامله مستنفر ومستعد لأي شيء . لم يكن الإله يمتلك أي عصا ، لذلك فقد آلمه أن يقترب تماماً .

كانت يد الإله قد خرجت وصارت تهبط على رأسه . انكمش وايت فانغ على نفسه وأصبح متوتراً بينما كان يجثم تحتها . هنا كان ثمة خطر ، خيانة أو شيء ما . كان يعرف أيدي الآلهة ، سيادتهم المؤكدة ، مكرهم إلى حد الإيذاء . بالإضافة إلى ذلك ، فقد كان هناك كرهه القديم لأن يُلمس .زمجر بشكل متوعد أكثر ، وكان لا يزال جاثماً بشكل أخفض ، وكانت اليد لا تزال تهبط عليه . لم يكن يريد أن يعض اليد وتحمل خطرها إلى أن فارت غريزته لديه،مسيطرة عليه بتوقها الذي لا يشبع إلى الحياة .

كان ويدون سكوت يظن أنه سريع بما يكفي لتجنب أية عضة أو ضربة مخلب .

ولكنه كان عليه مع ذلك أن يتعلم السرعة الملحوظة لوايتفانغ الذي كان يضرب بثقة وسرعة أفعى ملتفة .

أطلق سكوت صرخة حادة من المفاجأة ، وهو يمسك يده المجروحة بإحكام في يده الأخرى . أطلق مات قسماً معظماً ووثب على جنبه . جثم وايت فانغ وتراجع مبتعداً،وهو منتصب الشعر مكشراً عن أنيابه وعيناه تهددان بالشر . الآن كان بمقدوره أن يتوقع ضربة مرعبة مثل أية ضربة كان قد تلقاها من بيوتي سميث .

« هنا ! ماذا تفعل » صرخ سكوت فجأة .

اندفع مات إلى داخل المقصورة وخرج ببارودة .

« لا شيء » قال ببطء ، بهدوء لا مبالٍ كان مفروضاً »

إنني سأفي بذاك الوعد الذي قطعته فحسب . أعتقد أنه يعود إليّ أمر قتله كما قلت أنني سأفعل » .

« لا ، أنت لا تفعل ذلك ! »

« لا بل سأفعل ، راقبني ! »

كما كان مات قد دافع عن وايت فانغ عندما تعرض للعض، فقد جاء دور ويدون سكوت الآن لكي يدافع .

« أنت قلت اعطه فرصة . حسناً ، اعطه هذه الفرصة . فنحن قد بدأنا فقط ، ولا يمكننا أن ننسحب منذ البداية . لقد أفادني تماماً ، هذه المرة . و — انظر إليه ! »

إن وايت فانغ ، القريب من زاوية المقصورة وعلى بعد أربعين قدماً منه ، كان يزمجر بضراوة مخيفة ، ليس لسكوت بل لسائس الكلاب .

« حسناً ، سأكون دائماً gosh-swogged ! كان تعبير سائس الكلاب عن اندهاشه —

« انظر إلى ذكائه » تابع سكوت بسرعة .

« إنه يعرف معنى الأسلحة النارية جيداً كما تعرف أنت . إنه يمتلك الذكاء . ويجب أن نمنح هذا الذكاء فرصة . ارفع تلك البندقية » .

« حسناً ، أنا مصمم » وافق مات ، وهو يسند البارودة إلى كومة الحطب .

« ولكن هل ستنظر إلى ذلك » هتف في اللحظة التالية .

كان وايت فانغ قد هدأ وكف عن الزمجرة .

« هذا يستدعي تحرياً ، راقب » .

تناول مات البارودة،وفي اللحظة ذاتها زمجر وايت فانغ . ابتعد عن البارودة ، فهبطت شفتا وايت فانغ مغطيتين أسنانه .

أخذ مات البارودة وبدأ يرفعها ببطء إلى كتفه . بدأت زمجرة وايت فانغ مع الحركة وصارت تزداد مع اقتراب الحركة من ذروتها .

ولكن في تلك اللحظة وقبل أن تصل البارودة إلى مستوى واحد معه وثب جانباً إلى ما وراء زاوية المقصورة . وقف مات وصار يحدق على امتداد نظره إلى فسحة الثلج الفارغة التي كان يشغلها وايت فانغ .

أنزل سائس الكلاب البارودة بوقار ثم استدار ونظر إلى معلمه .
« اتفق معك ، يا سيد سكوت . الكلب أذكى من أن يقتل » .

* * *

الفصل العشرون

سيد الحب

بينما كان وايت فانغ يراقب ويدون سكوت وهو يقترب ،انتصب شعره وزمجر معلناً أنه لن يرضخ للعقاب . كانت قد مرت أربع وعشرون ساعة منذ أن شق اليد التي صارت الآن مضمدة ومربوطة بمعلاق(*) لمنع الدم من النزف منها . في الماضي كان وايت فانغ قد مر بتجربة العقوبات المؤجلة ، وكان يخشى أن تكون مثل هذه العقوبة على وشك أن تنزل به . وهل كان من الممكن أن يكون غير ذلك ؟ لقد ارتكب ما كان بالنسبة له انتهاكاً للمقدسات ، فقد أنشب أنيابه في لحم الإله المقدس ، وفي لحم إله أسمى أبيض البشرة تحديداً . بطبيعة الأشياء،وطبيعة الاتصال مع الآلهة ، كان ثمة شيء رهيب ينتظره .

جلس الإله على بعد عدة أقدام. لم ير وايت فانغ أي خطر في ذلك . فعندما تنزل الآلهة عقاباً تقف على أرجلها . بالإضافة إلى ذلك ، فإن هذا الإله ليس معه عصا ولا سوط ولا سلاح ناري . والأهم من

---

* المعلاق : عصابة مدلاة من العنق لـ مل الذراع المضمدة . (المترجم)

ذلك ، أنه هو نفسه كان طليقاً . لا جنزير ولا عود يقيده . كان بإمكانه أن يفر بأمان فيما الإله يندفع لينهض على قدميه ، وفي هذه الأثناء سينتظر ويرى .

بقي الإله ساكناً لايأتي بأي حركة وهمدت زمجرة وايت فانغ متحولة إلى نخرة كانت تختنق في حلقه ثم تتوقف . لكن الإله لم يقم بأي حركة عدوانية وتابع حديثه بهدوء . لوهلة، نخر وايت فانغ انسجاماً معه ، ثم حدث توافق في الإيقاع بين النخر والصوت . لكن الإله استمر في الكلام بشكل لامتناه . تحدث إلى وايت فانغ كما لم يتحدث إليه أحد من قبل . كان يتكلم بلطف وبشكل مهدىء ، بلطف لامس وايتفانغ بشكل ما وفي مكان ما .

لقد بدأ يثق بهذا الإله رغماً عن نفسه وبالرغم من كل التحذيرات الواخزة لغريزته . تولّد لديه شعور بالأمان كانت تكذبه تجربته مع البشر .

بعد وقت طويل ، نهض الإله ودخل إلى المقصورة . مسحه وايتفانغ بنظرة متوجسة لدى خروجه . لم يكن معه لا سوط ولا عصا ولا سلاح . ولم تكن يده المصابة الموضوعة خلف ظهره تخفي شيئاً . جلس كما من قبل ، في المكان نفسه ، على بعد بضعة أقدام . أخرج قطعة صغيرة من اللحم . اشرأبت أذنا وايتفانغ فصار يتفحصها بارتياب محاولاً في الوقت ذاته أن ينظر إلى اللحمة وإلى الإله ، متيقظاً لأي فعل خفي ، جسده متوتر ومستعد للقفز بعيداً عند أول إشارة دالة على العدوانية .

لا زال العقاب مؤجلاً . إن الإله قد اكتفى بتقريب قطعة اللحم من أنفه . لم يكن ثمة عيب في اللحمة . ولا زال وايت فانغ مرتاباً ، مع أن اللحمة قد قدمت إليه بدفعات داعية قصيرة من اليد ، لكنه رفض أن يلمسها . كانت الآلهة عليمة بكل شيء ، ولم يكن هناك ما يشي بأية خيانة بارعة تتربص خلف قطعة اللحم اللامؤذية ظاهرياً . في الخبرة الماضية ، وخصوصاً في التعامل مع النساء الهنديات ، غالباً ما كان اللحم والعقاب مرتبطين بشكل كارثي .

في النهاية، قام الإله بطرح اللحمة على الثلج عند أقدام وايت فانغ . تشمم اللحمة بحذر لكنه لم ينظر إليها . بينما كان يشمها أبقى نظره على الإله . لم يحدث شيء . تناول اللحمة في فمه وابتلعها ومع ذلك لم يحدث شيء . كان الإله يقدم له في الواقع قطعة أخرى من اللحم . مرة أخرى رفض أن يأخذها من يده . ومرة أخرى رُميت إليه . وقد تكرر هذا عدداً من المرات . بيد أنه جاء وقت رفض فيه الإله أن يرميها أرضاً . بل أبقاها في يده وقدمها له بثبات .

كانت اللحمة جيدة وكان وايت فانغ جائعاً . شيئاً فشيئاً وبحذر لا حدود له دنا من اليد . أخيراً جاء وقت قرر فيه أن يأكل اللحمة من اليد . لم يغب نظره عن الإله ، دافعاً برأسه إلى الأمام وأذناه مزمومتان إلى الوراء وشعره منتصب بشكل لا إرادي متحولاً إلى عرفٍ على عنقه . كذلك فإن نخرة خفيضة قد دمدمت في حنجرته كإنذار بأنه لن يسخر منه . أكل اللحمة ، ولم يحدث شيء . وأكل اللحمة قطعة قطعة ولم يحدث شيء . ولا يزال العقاب مؤجلاً .

لحس خديه وانتظر . استمر الإله في الحديث . كان في صوته لطف – شيء ما لم يكن لوايت فانغ أية خبرة به مهما تكن. وفي داخله أثار مشاعر لم يكن بالمثل قد عرفها من قبل أبداً . كان مدركاً لوجود رضا غريب معين ، كما لو أن حاجة ما كانت تُشبع ، كما لو أن بعض الفراغ في وجوده كان يملأ . ثم جاء منخس غريزته مرة أخرى وجاء إنذار الخبرة الماضية . كانت الآلهة شديدة المكر ، وكانت تمتلك وسائل لا يمكن تخمينها لتحقيق غاياتها .

آه ، هيهات لو أنه فكر هكذا ! لقد حدث ذلك الآن . فها هي يد الإله البارعة في الإيلام تندفع إليه وتهبط على رأسه . لكن الإله استمر في الكلام . كان صوته رقيقاً ومهدئاً . برغم اليد المنذرة بالشر فإن الصوت كان يوحي بالثقة . وبرغم الصوت المطمئن فإن اليد كانت توحي بعدم الثقة. كان وايت فانغ ممزقاً بمشاعر ودوافع متصارعة . كان يبدو أنه سوف يتفتت ، كان رهيباً ذاك الضبط الذي كان يمارسه وهو يستجمع ، بفعل تردد غير مألوف ، القوى المعاكسة التي تصارع في داخله من أجل السيطرة .

قبل بتسوية مذلة . فزمجر وانتصب شعره وتسطحت أذناه . لكنه لم يعض ولم يثب مبتعداً . نزلت اليد . اقتربت شيئاً فشيئاً . لمست رؤوس شعره المنتصب . انكمش تحتها . فنزلت معه تباعاً وهي تضغط عليه بشكل أكثر التصاقاً . كان لا يزال موفقاً في تجميع نفسه منكمشاً وشبه مرتعش . كانت مصدر عذاب وإزعاج هذه اليد التي كانت تلمسه وتنتهك غريزته . لم يكن بمقدوره أن ينسى في يوم

واحد كل الشر الذي حل به على أيدي البشر . لكنها كانت إرادة الإله . وكان يكافح لكي يخضع .

ارتفعت اليد وهبطت مرة أخرى في حركة مربتة مداعبة . واستمرت في ذلك ، ولكنها في كل مرة كانت اليد تهبط فيها ، كانت الأذنان تنسبلان إلى الأسفل وتمور في حلقه جأرة كهفية . جأر وايتفانغ وزأر بإنذار ملح . بهذه الوسيلة كان يعلن أنه مستعد للانتقام لأي أذى يمكن أن يقع عليه . لم يكن هناك ما ينبيء بمتى يمكن للدافع الأعلى للإله أن ينفضح. في أية لحظة كان من الممكن لذاك الصوت الخافت الموحي بالثقة أن ينفجر في زأرة غضب ، وتلك اليد اللطيفة والمداعبة أن تتحول إلى قبضة ملزمية تمسك به بشكل لا مفر منه وتنزل به العقاب .

لكن الإله استمر في الكلام بلطف ، وحتى اليد بقيت ترتفع وتنخفض بتربيتات لا عدوانية . كان وايتفانغ يعبر عن مشاعر مزدوجة. كان ذلك بغيضاً على غريزته . كان ذلك يكبله ، يعارض إرادته إزاء الحرية الشخصية . مع أنه لم يكن مؤلماً من الناحية الجسدية ، بل على العكس من ذلك كان ساراً ، من الناحية الجسدية . إن حركة التربيت قد تغيرت ببطء وتجذر متحولة إلى فرك للأذنين عند قاعديتهما فزادت اللذة الجسدية قليلاً . مع ذلك فقد استمر في الخوف وصار محترساً ، متوقعاً حدوث شر غير محسوب ، وهو يتألم ويستمتع بشكل تبادلي كلما انتابه هذا الشعور أو ذاك واجتاحه .

« حسناً ، سأكون gosh-swoggled ! »

هكذا تكلم مات وهو خارج من المقصورة وأكمامه مرفوعة وفي يديه مقلاة من ماء الصحون القذر ، استوقفه ، وهو يهم بالقيام بإفراغ المقلاة، فنظر ويدون سكوت وهو يربت على وايت فانغ .

سرعان ما خرق صوته الصمت، فقفز وايت فانغ متراجعاً وهو يزمجر به بشراسة .

نظر مات إلى إجيره باستهجان متأسف .

« إذا لم يكن يهمك تعبيري عن مشاعري يا سيد سكوت ، سأسمح لنفسي بالقول أنك سبعة عشر نوعاً من المغفلين وكلهم مختلفون ، ثم إنك بعض منهم » .

ابتسم ويدون سكوت بتَنَفّس متعال ووقف على قدميه ومضى نحو وايت فانغ، وتكلم إليه بشكل مهديء ، ولكن ليس طويلاً ، ثم أخرج يده ببطء وأسندها على رأس وايت فانغ واستأنف التربيت المتقطع . تحمل وايت فانغ ذلك مبقياً عينيه ثابتتين بارتياب، ليس على الرجل الذي كان يربت عليه بل على الرجل الذي وقف بالباب .

« قد تكون خبير مناجم ممتازاً من الطراز الأول » قدم سائس الكلاب نفسه بشكل مهيب ، « لكنك أضعت فرصة حياتك عندما كنت صبياً ولم تنضم إلى السيرك » .

زمجر وايت فانغ لسماع صوته، لكنه هذه المرة لم يثب بعيداً من تحت اليد التي كانت تداعب رأسه وقفا عنقه بتمسيدات طويلة مهدئة . كانت بداية النهاية بالنسبة لوايت فانغ — نهاية الحياة القديمة وسلطان

الكراهية . فقد كانت تنبلج حياة جديدة وأكثر عدلاً بشكل لايمكن فهمه . كانت تتطلب كثيراً من التفكير وصبراً لا حد له من طرف ويدون سكوت لتحقيق ذلك أما من طرف وايت فانغ فلم تكن تتطلب أقل من ثورة . كان عليه أن يتجاهل دوافع وضرورات الغريزة والعقل وأن يتحدى التجربة وأن يكذب الحياة نفسها .

إلى الحياة ، كما عرفها ، لم يكن فيها موضع لأجل الكثير مما كان يفعله الآن فحسب ، بل إن كل التيارات تسير بشكل معاكس لتلك الأشياء التي تخلى عن نفسه من أجلها . باختصار ، عندما درست كل الأشياء كان عليه أن يحقق توجهاً أوسع من ذاك التوجه الذي حققه عندما جاء طوعاً من البرية وقبل بغراي بيفر سيداً له . في ذاك الوقت كان مجرد جرو طري العود ، لا شكل له ، جاهزاً للظروف لكي تترك بصمتها عليه .

لكنه الآن مختلف . إن بصمة الظروف قد فعلت فعلها بشكل جيد أكثر مما ينبغي . فبواسطتها تشكّل وتصلب متحولاً إلى ذئب مقاتل ، شرس عنيد ، كاره ومكروه . إن إنجاز التغير كان مثل دفقة وجود ، وحصل هذا عندما لم تعد لدانة الشباب لديه ، عندما أصبح ليفه قاسياً ومليئاً بالعقد ، عندما كان أساسه قد جعل منه نسيجاً صلباً، خشناً وغير مطواع . عندما أصبح وجه الروح حديداً وتبلورت كل غرائزه وبديهياته متحولة إلى قواعد ثابتة واحتراسات وكراهيات ورغبات .

مع ذلك ، مرة أخرى ، وضمن هذا التوجه الجديد ، فإن بصمة الظروف هي كانت تضغط عليه وتنخسه ، مليّنة ما كان قد أصبح

قاسياً ومعيدة قولبته بشكل أجمل . كان ويدون سكوت ، في الحقيقة ، هو هذه البصمة . لقد غاص إلى جذور طبيعة وايت فانغ ، وبلطف لامس طاقات الحياة التي ضعفت وكادت أن تفنى . إحدى هذه الطاقات هي الحب .

لقد حلت محل الميل الذي كان ثاني أسمى شعور يثيره في تواصله مع الآلهة .

ـ لكن هذ الحب لم يأت في يوم واحد . لقد بدأ مع الميل ومنه تطور بطيئاً . لم يهرب وايتفانغ ، مع أنه كان مسموحاً له البقاء طليقاً ، لأنه كان يميل إلى هذا الإله الجديد . كان هذا بالتأكيد أفضل من الحياة التي عاشها في قفص بيوتي سميث ، وكان من الضروري أن يكون له إله ما . كانت الألوهية حاجة من حاجات طبيعته . كانت حلقة اعتماده على الإنسان قد ضيقت عليه في ذاك اليوم المبكر عندما أدار ظهره للبرية وزحف إلى عند قدمي غراي بيفر ليتلقى الضربة المنتظرة . هذه الحلقة قد بُصمت عليه مرة أخرى وبشكل يتعذر استئصاله عند عودته الثانية من البرية عندما انتهت المجاعة الطويلة وكان هناك سمك ، مرة أخرى ، في قرية غراي بيفر .

وهكذا ، ولأنه كان بحاجة إلى إله ولأنه كان يفضل ويدون سكوت على بيوتي سميث ، فقد ظل وايت فانغ .

اعترافاً بالولاء ، بادر إلى الأخذ على عاتقه حراسة أملاك سيده . صار يتجول حول المقصورة بينما كانت كلاب المزلجة نائمة ، فقام أول زائر ليلي إلى المقصورة بطرده بالعصا إلى أن جاء ويدون سكوت لإنقاذه .

لكن وايت فانغ تعلم سريعاً أن يفرق بين البشر اللصوص والبشر الشرفاء وأن يقدر القيمة الحقيقية للخطوة والمشية . إن الرجل الذي اجتاز وهو يخطو بصوت مرتفع الخط المستقيم المؤدي إلى باب المقصورة هو الذي تركه وشأنه مع أنه كان يراقبه بحذر إلى أن انفتح الباب وتلقى موافقة السيد . لكن الرجل الذي مضى بخفة في طرق غير مباشرة ، وهو يتلصص بحذر ، توخياً للسرية — هذا الرجل هو الذي لم يلق تأجيلاً للمحاكمة من قبل وايت فانغ وهو الذي ابتعد فجأة وبسرعة وبدون كرامة .

كان ويدون سكوت قد حدد لنفسه مهمة إصلاح وايتت فانغ — أو بالأحرى ، إصلاح الجنس البشري من الخطأ الذي ارتكبه بحق وايتفانغ . كانت المسألة مسألة مبدأ وضمير. كان يشعر أن وايت فانغ السيء التكوين هو دَين جلبه الإنسان على نفسه ويجب أن يدفع . ولذلك، فقد خرج عن أسلوبه ليكون لطيفاً بشكل خاص مع الذئب المقاتل . في كل يوم كان هدفه هو أن يداعب ويدلل وايت فانغ وأن يقوم بذلك مطولاً .

إن وايت فانغ ، الشكوكي والعدواني في البداية، صار يحب هذا التدليل . لكن كان ثمة شيء واحد لم يتجاوزه أبداً — إنه هذا الجأر . فقد كان يجأر منذ اللحظة التي يبدأ فيها التربيت إلى أن ينتهي . لكنه كان جأراً فيه نغمة جديدة . لم يكن بوسع الغريب أن يسمع هذه النغمة ، وكان جأر وايتفانغ بالنسبة لهذا الغريب استعراضاً للوحشية البدئية مثيراً للأعصاب ومزعجاً. لكن حنجرة وايت فانغ كانت قد

أصبحت خشنة الألياف من إصدار الأصوات الغاضبة عبر السنوات العديدة وذلك منذ فورة غضبه الصغيرة الأولى في عرين جرويته ، ولم يستطع أن يخفف أصوات الحنجرة لكي يعبر الآن عن اللطف الذي كان يشعر به . لا داعي للقول أنأذن وايت فانغ وعاطفته كانا مرهفين بما يكفي لالتقاط النغمة الجديدة برمتها إلا ما ضاع منها في الضراوة – النغمة التي كانت أضعف أثر لدندنة الرضا والتي لم يكن بمقدور أحد سواه أن يسمعها .

مع رور الأيام تسارع تطور الميل إلى حب . إ وايت فانغ نفسه قد بدأ يعي ذلك مع أنه ، في وعيه ، لم يكن يعرف ما هو الحب . فقد تكشف له كفراغ في وجوده – جوع ، توجّع ، فراغ تواق يطلب الامتلاء . كان ألماً وقلقاً ، ولم يلق الراحة إلا بملامسة حضور الإله الجديد . في مثل هذه الأوقات كان الحب فرحاً بالنسبة له ، كان إشباعاً جامحاً شديد الإثارة . ولكن عندما يكون بعيداً ع إلهه يعود الألم والقلق ، ويثب الفراغ في داخله ويعصره بخوائه ويصير الجوع يقضه ويقضه دون توقف .

كان وايت فانغ في خضم العثور على ذاته . بالرغم من نضج سنواته والصلابة الوحشية للقالب الذي شكله فإن طبيعته كان خاضعة للتوسع ، كان ثمة في داخله تبرعم للمشاعر الغريبة والنزعات اللامألوفة . كان نظام سلوكه القديم يتغير . في الماضي كان يحب الراحة ويضع حداً للألم ، كان يكره الإزعاج والألم ، وكان قد كيّف أفعاله وفقاً لذلك . ولكنه كان الآن مختلفاً . فبسبب هذا الشعور الجديد في داخله

كان في أغلب الأحيان يختار الإزعاج والألم في سبيل إلهه . لذلك ، في الصباح الباكر وبدلاً من التجوال والتطواف بحثاً عن الطعام ، أو الاضطجاع في زاوية محمية ، كان ينتظر لساعات على شرفة المقصورة الكئيبة من أجل رؤية وجه الإله .

في الليل ، وعندما كان الإله يعود إلى البيت ، كان وايت فانغ يغادر المرقد الدافىء الذي حفره في الثلج لكي يتلقى نقرة أصابع ودية وكلمة التحية . إن اللحم ، حتى اللحم نفسه ، يمتنع عنه ليكون مع إلهه ، ليتلقى مداعبة منه أو ليرافقه إلى المدينة .

استبدل الميل بالحب . وكان الحب هو الفادن (*) الذي يهبط إلى أعماقه حيث لا يصل الميل أبداً . ولكونه حساساً فقد خرج من أعماقه هذا الشيء الجديد — الحب . إن ما أعطي له كان يعيده . كان هذا إلهاً حقاً . إله حب ، إلهاً دافئاً ومشرقاً ، تفتحت في ضوءه طبيعة وايت فانغ كزهرة تحت الشمس .

لكن وايت فانغ لم يكن من النوع الذي يعبر عن عواطفه علناً وبدون تحفظ . كان عجوزاً أكثر مما ينبغي ، مقولباً بشكل صارم أكثر مما ينبغي بحيث لم يكن بوسعه أن يصبح قادراً على التعبير عن نفسه بوسائل جديدة . كان رابط الجأش أكثر من اللازم ، متوازناً بقوة أكثر من اللازم في عزلته . كان قد هذب لديه التكتم والتحفظ والنكد لفترة أطول من اللازم . لم يكن قد نبح في حياته أبداً ولم يكن بوسعه

(*) الفادن : أو الشاقول هو أداة مؤلفة من خيط في طرفه قطعة رصاص يسير بها غور الماء أو تفحص استقامة الجدار . (المترجم)

الآن أن يتعلم النباح ترحيباً عندما يدنو إلهه . لم يكن أبداً متهوراً ولا أحمق في التعبير عن حبه . لم يكن يجري أبداً للقاء إلهه . كان ينتظر على بعد ، ولكنه كان دائم الانتظار ، دائم الحضور . كان حبه ينضح بطبيعة العبادة ، كان افتتاناً أخرس عصياً على التعبير ، صامتاً . لم يكن بمقدوره أن يعبر عن حبه إلا بالنظرة الثابتة من عينيه والمتابعة الحثيثة بعينيه لكل حركة من حركات إلهه . كذلك ، في بعض الأحيان ، عندما كان إلهه ينظر إليه ويتحدث إليه ، كان ينم عن وعي للذات أخرق ، ناجم عن صراع حبه للتعبير عن ذاته وعن عجزه الجسدي عن التعبير عنه .

تعلّم أن يضبط نفسه بوسائل عديدة على نمط حياته الجديد ـ فانطبع في ذهنه أن عليه أن يترك كلاب سيده وشأنها . مع ذلك فإن طبيعته المهيمنة كانت تفرض نفسها ، وكان عليه أولاً أن يجبرهم على الاعتراف بتفوقه وبقيادته . وقد تم له ذلك وكانت له مشاكل صغيرة معهم . فكانوا يخلون له الطريق عندما يأتي ويذهب أو يسير فيما بينهم ، وعندما كان يفرض مشيئته كانوا يمتثلون .

بالطريقة نفسها صار يتحمل مات ـ كواحد من أملاك سيده . كان سيده نادراً ما يطعمه أما مات فقد كان يفعل ذلك . كان ذلك شغله ، مع أن وايتغانغ اكتشف بالحدس أن الطعام الذي يأكله هو طعام سيده وأن سيده هو الذي يطعمه هكذا بالنيابة . كان مات هو الذي يضعه تحت العدة واالسرج ويجعله يجر الزلاجة مع الكلاب الأخرى . لكن مات أخفق . فلم يحدث ذلك قبل أن يضع ويدون سكوت

العدة على وايت فانغ ويشغله، هذا ما فهمه . كان يعتبر أن مشيئة سيده تقضي بأن على مات أن يسوقه وأن يشغله تماماً مثلما كان يسوق ويشغل كلاب سيده الأخرى :

كانت زلاجات الكلوندايك مختلفة عن مزلقات ماكنزي ذات القطعتين الطولانيتين تحتها . وكان أسلوب قيادة الكلاب مختلفاً . فلم يكن التشكيل المروحي للفريق موجوداً . كانت الكلاب تسير في رتل واحد ، الواحد خلف الآخر تجر على سيور مزدوجة . وهنا ، في الكلوندايك ، كان القائد قائداً بالفعل . فقد كان الكلب الأذكى إضافة إلى كونه الأقوى ، هو الذي يقود ، وكان الفريق يطيعه ويخافه. لقد كان محتماً أن يستلم وايتفانغ هذا الموقع بسرعة . لقد انتزع هذا الموقع لنفسه ودعم مات الحكم عليه بلغة قوية بعد إجراء الاختبار . ولكن مع أنه كان يعمل على المزلجة نهاراً فإن وايت فانغ لم يمتنع عن حراسة أملاك سيده ليلاً . وهكذا كان يقوم بواجبه طوال الوقت دائم اليقظة والإخلاص ، إنه أثمن الكلاب قاطبة .

قال مات ، ذات يوم « إذا سمحت لي بأن أتفوه بما يدور في خلدي فإنني أطلب الأذن بأن أصرح بأنك كنت رجلاً حكيماً تماماً عندما دفعت الثمن الذي دفعته من أجل هذا الكلب . لقد وجهت لبيوتي سميث صفعة على وجهه بقبضتك هذه » .

لمعت استشاطة غضب جديدة في عيني ويلدون سكوت الرمادتين . وصار يربر بشكل مسعور ، « الوحش ! »

في أواخر الربيع حصلت لوايت فانغ مشكلة . لقد اختفى سيد الحب بدون سابق انذار . كانثمة إنذار لكن وايت فانغ لم يكن ضليعاً

في مثل هذه الأمور ولم يكن يفهم معنى رزم حقيبة السفر . تذكر فيما بعد أن هذا الرزم قد سبق اختفاء السيد لكنه في الوقت ذاته لم يشك في شيء . في تلك الليلة انتظر السيد لكي يعود . وفي منتصف الليل دفعته الريح التي كانت تهب إلى الملجأ إلى داخل خلفية المقصورة .

وهناك أصابه النعاس وكان نصف نائم وأذناه متيقظتان تحسباً لأول صوت لخطوة مألوفة . ولكن ، في الساعة الثانية صباحاً ، دفعه القلق إلى الخروج إلى المصطبة الأمامية الباردة حيث ربض وانتظر .

لكن السيد لم يأت . في الصباح انفتح الباب وخرج منه مات . حدق إليه وايت فانغ بتوق . لم يكن هناك أي حديث مشترك يمكنه بواسطته أن يتعلم ما يريد معرفته . جاءت الأيام ومضت لكن السيد لم يأت . إن وايتفانغ الذي لم يكن قد عرف المرض في حياته أصبح الآن مريضاً . اشتد مرضه لدرجة أن مات وجد نفسه مجبراً في النهاية على إدخاله إلى المقصورة .

كذلك ، فإن مات ، في رسائله إلى رب عمله ، قد خصص ملحقاً لأجل وايت فانغ .

بينما كان ويدون سكوت يقرأ الرسالة في مدينة سيركل وقع على العبارات التالية :

« هذا الذئب اللعين لا يريد العمل ، لا يريد الأكل . لم يتبق فيه حيل . كل الكلاب تلحسه . يريد أن يعرف ماذا حل بك ولا أدري كيف أخبره ربما كان على وشك الموت » .

لقد حصل كما قال مات . فقد امتنع وايت فانغ عن الأكل وفقد قوته وسمح لكل كلب من الفريق بأن يضربه . في المقصورة تمدد على الأرض قرب المدفأة دون اكتراث لا بالطعام ولا بمات ولا بالحياة. فكان مات يتحدث إليه بلطف أو يشتمه . وكان ذلك كله سواء ، فهو لم يفعل أكثر من أن يدوّر عينيه الغائمتين وهو ينظر إلى الرجل ثم يسقط رأسه إلى الوراء إلى الوضعية المعتادة وقوفاً على كفيه الأماميين.

ثم ، ذات ليلة ، وبينما كان مات يقرأ لنفسه بشفتين متحركتين وأصوات مغمغمة أجفله أنين منخفض من وايتفانغ . كان قد وقف على أرجله وأذناه مشرئبتان نحو الباب وكان يصغي بانتباه . بعد لحظة سمع مات وقع قدم . انفتح الباب ودخل ويدون سكوت . تصافح الرجلان . ثم نظر سكوت حول الغرفة .

« أين الذئب ؟ » سأل .

ثم اكتشفه وهو يقف حيث كان وايت فانغ مستلقياً قرب المدفأة . لم يهجم على طريقة الكلاب الأخرى . وقف يراقب وينتظر .

« دخان مقدس ! » هتف مات « انظر إليه إنه يهز ذيله ! » ترنح ويدون سكوت مفرشخاً نحوه عبر الغرفة وهو يناديه في الوقت نفسه . جاء وايت فانغ إليه،بدون وثبة كبيرة مع أنه كان مسرعاً . كان صعب المراس من اعتزازه بذاته ، ولكن عيناه كانتا تتخذان مع اقترابه تعبيراً غريباً . ثمة شيء ما ، اتساع في الشعور غير قابل للإيصال ، صعد إلى عينيه مثل النور وشع نحو الأمام .

« لم ينظر إليّ بهذه الطريقة طوال غيابك » علّق مات .

لم يسمع ويدون سكوت . كان يقرفص على كفليه وجهاً لوجه مع وايت فانغ وهو يداعبه – يفرك عند جذري أذنيه بتمسيدات طويلة أسفل العنق إلى الكتفين » وهو يضرب ضرباً خفيفاً برؤوس أصابعه على العمود الفقري. وكان وايت فانغ يجأر مستجيباً وقد أصبحت النغمة المدندنة للجأر أكثر وضوحاً من ذي قبل .

لكن هذا ليس كل شيء . فمن فرحته ، نجح الحب الكبير لديه الذي كان دائم التمور والصراع للتعبير عن ذاته ، في ايجاد نمط جديد للتعبير . فجأة دفع رأسه إلى الأمام وشق طريقه بين ذراع السيد وجسمه . وهنا ، حيث كان محصوراً ، مخفياً عن النظر برمته عدا أذنيه لم يعد يجأر ، بل استمر يلكز بمرفقه ويدنو التماساً للدفء

نظر الرجلان إلى بعضهما بعضاً . كانت عينا سكوت تشعان . « غوش ! » قال مات بصوت مفعم بالرهبة .

بعد لحظة وعندما كان قد تمالك نفسه ، قال « كنت دائماً أصر على أن الذئب هو كلب . انظر إليه ! »

مع عودة سيد الحب، كان شفاء وايت فانغ سريعاً . أمضى ليلتين ونهاراً واحداً في المقصورة . ثم انطلق في رحلة . كانت كلاب المزلجة قد نسيت شجاعته . لم تكن تذكر سوى آخر شيء منه ألا وهو ضعفه ومرضه . لدى رؤيته وهو خارج من المقصورة انقضت عليه الكلاب .

« نتحدث حول شجاراتكم » تمتم مات بمرح وهو يقف بالباب ويتطلع .

« إعطه إياه ، أيها الذئب ، أعطه إياه ! – ثم بعضاً . – ! »

لم يكن وايت فانغ بحاجة إلى تشجيع. فقد كانت عودة سيد الحب كافية .

كانت الحياة تتدفق عبره مرة أخرى ، رائعة لا تقاوم . كان يعارك بدافع من الفرح المحض واجداً فيه تعبيراً عن الكثير مما كان يشعر به والذي كان خلافاً لذلك لا يحتاج لكلام . لم تكن ثمة سوى نهاية واحدة .

لقد تشتت الفريق في هزيمة منكرة ولم تعد الكلاب منسلّة إلا بعد حلول الظلام واحداً تلو الآخر وهي تعبر عن ولاءها لوايت فانغ عن طريق الخنوع والاتضاع .

ولما كان قد تعلّم كيف يتمسّح طلباً للدفء فقد كان وايت فانغ متلبساً بفعله غالباً . لم يكن بمقدوره أن يتجاوزه لشيء الوحيد الذي كان يغار عليه بشكل خاص دوماً هو رأسه . كان يكره دائماً أن يُلمس . كانت البرية فيه ، وكان لديه خوف من الألم وخوف من المصيدة ، هذا الخوف الذي أوجد الدوافع المذعورة إلى تجنب التماس . كانت أوامر غريزته تقضي بأن يكون الرأس حراً . والآن ، مع سيد الحب ، فإن تمسحه والتزازه هو الفعل المتعمد لوضع نفسه في موقع العجز المتشائم . لقد كان ذلك تعبيراً عن الثقة التامة ، عن الاستسلام المطلق ، كما لو كان يقول :

« إنني أضع نفسي بين يديك فافعل بي ما تشاء » .

ذات ليلة ، بعد العودة بوقت ليس طويلاً ، جلس سكوت ومات يلعبان لعبة الكريبيج قبل الذهاب إلى الفراش .

« خمسة عشر – إثنان ، خمسة عشر – أربعة وزوج يساويان ستة » كان مات يندفع إلى الأمام بعزم واستعجال ، عندما انطلقت صرخة وصوت زمجرة . نظرا إلى بعضهما وهما يهمان بالوقوف على أقدامهما .

« لقد أوقف الذئب أحداً ما » قال مات :

عاجلتهما زعقة خوف وألم مسعورة . « هاتوا مصباحاً » صرخ سكوت بينما كان يثب إلى الخارج .

لحق به مات بالمصباح وعلى ضوئه شاهد رجلاً ممدداً على ظهره على الثلج .

كان ذراعاه مثنيين الواحد فوق الآخر ، عبر وجهه وبلعومه . وكان بذلك يحاول أن يحمي نفسه من أنياب وايت فانغ. وكان ثمة حاجة لذلك. فقد كان وايت فانغ في حالة غضب شديد مركزاً هجومه بشكل بارع على المناطق المكشوفة . فمن الكتف إلى معصمي الذراعين المتصالبين ، إلى كم المعطف ، وقميص الفلانيل الأزرق والقميص الداخلي ، كانت الثياب ممزقة إرباً إرباً ، في حين أن الذراعين قد جرحا بشكل فظيع وصار الدم يسيل منهما . كل ذلك شاهده الرجلان في اللحظة الأولى . في اللحظة التالية أمسك ويدون سكوت بوايت فانغ من حنجرته وسحبه بعيداً . قاوم وايت فانغ وزمجر ،لكنه لم يقم بأية محاولة للعض في حين هدأ بسرعة بكلمة نابية من السيد .

ساعد مات الرجل على الوقوف على قدميه . عندما نهض أنزل ذراعيه المتصالبين كاشفاً عن الوجه البهيمي لبيوتي سميث . أفلته

سائس الكلاب بسرعة ، بحركة مشابهة لحركة إنسان التقط جمرة مشتعلة . صار بيوتي سميث يرفرف عينيه في ضوء المصباح ويتطلع حواليه . وقع بصره على وايت فانغ فطفح الرعب على وجهه .

في اللحظة ذاتها لاحظ مات جسمين ممددين على الثلج . قرَّب المصباح منهما مشيراً لمستخدمه إليهما بأصبع قدمه . كانا جنزير كلاب فولاذي وعصا حريفة . نظر ويدون سكوت وهز رأسه . لم ينطق بكلمة . وضع سائس الكلاب يده على كتف بيوتي سميث وفتل وجهه . لم تكن هناك حاجة لكلمة واحدة، فانطلق بيوتي سميث .

في هذه الأثناء كان سيد الحب يربت على كتف وايت فانغ ويتحدث إليه .

« لقد حاول أن يسرقك ، ايه ؟ وأنت ما كنت تريد ذلك ! حسناً ، لقد ارتكب خطأً ، أليس كذلك »

« كان عليه أن يحسب حساباً لسبعة عشر أبليساً » .

ضحك سائس الكلاب ضحكة خفيفة. إن وايت فانغ الذي كان لا يزال مستنفراً ومنتصب الشعر جأر وجأر وصار شعره يرتخي ببطء وصارت النغمة المدندنة بعيدة ومبهمة ، لكنها لا تزال تجأر في حلقه .

* *

الفصل الحادي والعشرون

الـدرب الطويـــل

كان ذلك في العرين . أحس وايت فانغ بالكارثة القادمة حتى قبل أن تكون هناك أدلة ملموسة عليها . تولد لديه شعور ، بوسائل غامضة بأن تغيراً كان وشيك الحدوث . لم يعرف كيف ولماذا ، مع انه انتابه الشعور بالحدث القادم من الآلهة أنفسهم . لقد أفصحوا عن نواياهم للكلب – الذئب الذي كان يسكن مصطبة المقصورة ، وذلك بوسائل أحذق مما كانوا يعرفون ، ومع أنه لم يدخل إلى المقصورة أبداً فقد كان يعرف ما الذي يدور في أذهانهم .

– « اصغ إلى ذاك ، ألا تصغي ! » هتف سائس الكلاب على العشاء ، ذات ليلة . فأصغى ويدون سكوت . من خلال الباب كان يأتي أنين منخفض متلهف مثل نشيج تحت الشهيق الذي صار الآن مسموعاً . ثم نشقة طويلة عندما اطمأن وايت فانغ إلى أن إلهه كان لا يزال في الداخل ولم ينطلق بعد في فرار غريباً ومتوحداً .

قال سائس الكلاب « اعتقد أن الذئب يعوي عليك »

نظر ويدون سكوت إلى رفيقه بعينين شبه مدافعتين مع أن كلماته كانت تكذبه

« ماذا استطيع أن أفعل بذئب في كاليفورنيا ؟ سأل :

« هذا ما أقوله » أجاب مات « ماذا تستطيع أن تفعل بذئب في كاليفورنيا ؟ »

لكن هذا لم يقنع ويدون سكوت . فقد بدا أن الآخر يحكم عليه بأسلوب ملتبس .

« إن كلاب الرجل الأبيض ما كانت لتظهر أمامه » تابع سكوت .

« فهو سيقتلها عند أول نظرة . لو لم يفلسني بدعاوى الضرر لأبعدته السلطات عني وأعدمته بالصدمة الكهربائية .

« إنه قاتل بكل معنى الكلمة ، أنا أعرف ذلك » كان تعليق سائس الكلاب . نظر إليه ويدون سكوت بارتياب .

« لن يحصل ذلك أبداً » قال جازماً .

« لن يحصل أبداً » وافقه مات الرأي « لماذا ، سيتعين عليك أن تستأجر رجلاً مخصصاً للعناية به »

هدأت شكوك الآخر . هز رأسه مبتهجاً .

في الصمت الذي تلى ذلك ، كان الأنين الخافت نصف الناشج مسموعاً عند الباب ثم انطلقت النشقة الملتمسة الطويلة .

« مما لا يمكن نكرانه أنه يشكرك كثيراً » قال مات :

حدق الآخر فيه بغضب مفاجىء .

« اخرس ! أنا أعرف قراري ، وما هو الأفضل ! »

ـذ أنا أتفق معك ، إلا ـــــ »

« إلا ـــــ ماذا ؟ رد سكوت بحدة :

« إلا ـــــ » بدأ سائس الكلاب بلطف ، ثم غيّر موقفه وكشف عن غضبه المتزايد .

« حسناً ، لا داعي لكل هذا الحماس حوله . بالحكم على تصرفاتك يعتقد المرء أنك لم تكن تعرف رأيك » :

ناقش ويدون سكوت المسألة مع نفسه لوهلة ثم قال بلطف أكثر .

« أنت على حق ، يا مات ، أنا لا أعرف رأيي ، وهذه هي المشكلة »

« لماذا ، سيكون ذلك مسخرة بكل معنى الكلمة بالنسبة لي أن أخذ هذا الكلب »

تابع القول بعد توقف آخر .

« أنا أوافقك » كان جواب مات ،ومرة أخرى لم يكن سيده راضياً تماماً عنه » .

« ولكن كيف بإسم السارد انابالوس يعرف أنك ذاهب ؟ هذا ما يحيزي »

تابع سائس الكلاب ببراءة .

« هذا يتجاوز فهمي يا مات » أجاب سكوت بهزة رأس دالة على الحزن ثم جاء اليوم الذي رأى فيه وايت فانغ ، من خلال باب

المقصورة المفتوح ، حقيبة السفر المشؤومة على الأرض وسيد الحب يرزم الأغراض فيها . كذلك . كان ثمة قادمون وذاهبون ، وتعكر الجو الرائق بإقلاقات وإزعاجات غريبة كان ثمة هنا دليل لا سبيل إلى الشك به.لقد أحس به وايت فانغ تماماً وها هو الآن قد استنتجه ، فقد كان إلهه يستعد لرحلة أخرى . وبما أنه لم يأخذه معه قبلئذ ، لذلك ، يبدو الآن أنه سيتركه وحيداً .

في تلك الليلة أطلق عواءة الذئب الطويلة ، مثلما عوى في أيام جرويته عندما هرب عائداً من البرية إلى القرية ليجدها قد اختفت تماماً ولم يعد فيها شيء سوى كومة من القمامة تدل على موقع خيمة غراي بيفر . كذلك الآن ، فقد وجّه خطمه نحو النجوم الباردة وأبلغها محنته . في داخل المقصورة كان الرجلان قد خلدا إلى النوم .

« لقد نفذ طعامه مرة أخرى » علق مات من سريره .

كان ثمة نخرة من سرير ويدون سكوت وتحريك للبطانيات

« من الطريقة التي كان يتصرف بها في المرة الأخيرة التي ابتعدت فيها فلا عجب أن يموت هذه المرة » .

تحركت البطانيات في السرير الآخر بنزق .

« اوه ، اخرس ! » صرخ سكوت عبر الظلام

« إنلك تنق أسوأ من إمرأة »

« أنا أتفق معك » أجاب سائس الكلاب ولم يكن ويدون سكوت متأكداً تماماً ما إذا كان الآخر قد ضحك ضحكاً مكتوماً أم لا .

في اليوم التالي كان قلق وايت فانغ وانزعاجه أكثر وضوحا حتى . فكان يسير في أعقاب سيده كلما برح المقصورة ويرقد على المصطبة الأمامية عندما يبقى في الداخل . من خلال الباب المفتوح استطاع أن يسترق النظرات إلى الحقائب الموضوعة أعلى الأرض .

كانت حقيبة السفر مربوطة بحقيبتي شادر كبيرتين وصندوق : كان مات يلف بطانيات السيد ومئزر الفراء في داخل تربولين(*) صغير .

كان وايت فانغ يئن بينما كان يراقب العملية . فيما بعد،وصل هندیان . صار يراقبهما عن كثب وهما يحملان الأمتعة على أكتافهما ثم قادهما مات إلى أسفل التل وقد حمل بلوره الفراش وحقيبة السفر . لكن وايت فانغ لم يلحق بهما. كان السيد لا يزال في المقصورة . بعد فترة من الزمن عاد مات.جاء السيد إلى الباب ونادى على وايت فانغ إلى الداخل .

« أنت شيطان بائس » قال بلطف وهو يفرك أذني وايت فانغ وينقر على عموده الفقري . « إنني اسلك الدرب الطويل . أيها العجوز ، حيث لا يمكنك أن تتبعني . والآن اعطني نبحة — نبحة الوداع الجيدة الأخيرة » لكن وايت فانغ رفض أن ينبح،بدلاً من ذلك ، وبعد نظرة مدققة حزينة صار يتململ مخفيا رأسه بين ذراع السيد وجسمه .

« إنها هناك تهدر » صاح مات . من نهر يوكون تصاعد الهدير الأجش لزورق بخاري نهري .

---

* التربولين : كيس من القماش المشمع أو المقير . (المترجم)

« عليك أن تلاقيه . كن متأكداً وأقفل الباب الآخر . سوف أخرج من الباب الخلفي . تحرك ! »

انصفق البابان في اللحظة نفسها وانتظر ويدون سكوت من أجل مات لكي يلتف حول واجهة المقصورة . من داخل الباب وردت أنّة خافتة مصحوبة بنشيج . ثم صدرت شهقات طويلة عميقة .

« يجب عليك أن تعتني به عناية جيدة يا مات » قال سكوت بينما كانا ينطلقان إلى أسفل التل .

« اكتب لي ودعني أعرف كيف تسير أحواله » .

« بالتأكيد » أجاب سائس الكلاب

« ولكن ، اصغ إلى ذلك الصوت ، هلا أصغيت ! »

توقف الرجلان. كان وايت فانغ يعوي كما تعوي الكلاب عندما يموت أصحابها .

كان يطلق تفجّعاً صرفا ، فكانت صرخته تنفجر نحو الأعلى باندفاع كبير ، صرخة تقطّع القلب ، ثم تتخامد متحولة إلى ألم مرتجف ، وتنفجر صاعدة مرة أخرى بنوبة أسى تلو الأخرى .

كانت الأورورا أول سفينة بخارية لهذا العا تغادر إلى الخارج ، وكان متنها مزدحماً بالمغامرين الأثرياء والباحثين عن الذهب المفلسين ، وكلهم بالقدر نفسه من الجنون للوصول إلى الخارج مثلما كانوا في حالة جنون أصلاً للوصول إلى الداخل . كان سكوت يصافح مات الذي كان يستعد للخروج إلى الشاطىء قرب العبّارة الجماعية . لكن

يد مات صارت رخوة في قبضة الرجل الآخر عندما زاغ نظره وبقي مثبتاً على شيء ما خلفه . التفت سكوت ليرى. كان وايت فانغ جالساً على ظهر السفينة على بعد عدة أقدام وهو يراقب بتوق .

كان سائس الكلاب يشتم بصوت خافت ، وبكلمات مفعمة بالرهبة لم يكن بوسع سكوت إلا أن ينظر بتعجب .

« هل أقفلت الباب الأمامي ؟ » سأل مات :

هز الآخر رأسه وسأل « ماذا عن الباب الخلفي ؟ »

« تراهن على أنني قد أغلقته » كان الرد المتحمس .

زم وايت فانغ أذنيه بشكل متملق، لكنه بقي حيث هو دون أن يقوم بمحاولة للاقتراب .

« سوف يتعين عليّ أن آخذه معي إلى الشاطىء »

تقدم مات خطوتين باتجاه وايت فانغ ، لكن الأخير انسل مبتعداً عنه . فهجم عليه سائس الكلاب وصار وايت فانغ يراوغ بين أرجل مجموعة من الرجال . فكان يبطبط ، يلتف ، يدور ، ثم انسل حول ظهر السفينة وهو يتملص من محاولات الآخرين الإمساك به ، ولكن عندما تكلم سيد الحب ، جاء وايت فانغ إليه بانصياع فوري

« لن يأتي إلى اليد التي أطعمته كل هذه الشهور » تمتم سائس الكلاب بامتعاض « وأنت — أنت لم تطعمه أبداً بعد الأيام الأولى من تعارفكما .أنا الملام إذا كنت استطيع رؤيته يستنتج أنك السيد » .

إن سكوت الذي كان لا يزال يربت على وايت فانغ، انحنى فجأة مقترباً أكثر وأشار إلى جروح طرية على خطمه وإلى جرح بليغ بين عينيه . انحنى مات ومرر يده على امتداد بطن وايت فانغ .

« لقد نسينا النافذة تماماً . كله جروح وقد قلعت عينه مباشرة . يجب تنظيف الجرح وإخاطته ، ـــــ ! »

لكن ويدون سكوت لم يكن يصغي . كان يفكر بسرعة . أطلقت صفارة الباخرة الإعلان النهائي عن الانطلاق . كان الرجال يعدون بسرعة على العبارة المؤدية إلى الشاطىء . فك مات المنديل الكبير المزين بالرسوم عن عنقه وبدأ يضعه حول عنق وايت فانغ. أمسك سكوت يد سائس الكلاب

« وداعاً يا مات العجوز ، فيما يتعلق بالذئب ـ لا داعي للكتابة . أنت ترى ، إنني قد ـــــ ! »

« ماذا ! » انفجر سائس الكلاب « أنت لا تقصد أن تقول ـــ؟ »

« الشيء ذاته أقصد . ها هو منديلك . سأكتب إليك عنه »

توقف مات في منتصف العبارة .

« إنه لن يتحمل المناخ » هتف مجيباً « ما لم تجزه في الطقس الدافىء ! »

سُحبت العبّارة ، وصارت الأورورا تتأرجح مبتعدة عن الضفة . لوّح ويدون سكوت تلويحة الوداع الأخيرة . ثم عاد وانحنى فوق وايت فانغ الذي كان واقفاً بقربه .

« والآن اعوِ ، اللعنة عليك اعوِ ! » قال بينما كان يربت على الرأس المستجيب ويفرك الأذنين المزمومتين .

الفصل الثاني والعشرون

بـــلاد الجنوب

نزل وايت فانغ من الباخرة في سان فرانسيسكو . كان مذعوراً. ففي أعماقه ، تحت أي عملية من عمليات التفسير أو فعل من أفعال الوعي كان يربط القوة بالألوهية . ولم يسبق للبشر البيض أن ظهروا بمظهر هذه الآلهة العجيبة كما كانوا يظهرون الآن عندما وطىء الرصيف الموحل لسان فرانسيسكو . فالمقصورات الخشبية التي كان يعرفها قد حلت محلها العمارات البرجية . والشوارع كانت مكتظة بالأخطار — المركبات ، العربات ، السيارات ، الخيول الكادحة الكبيرة التي تجر مقطورات هائلة والسيارات الكابلية والكهربائية الهائلة تطلق هديراً شديداً وهي ترن عبر منتصف الشارع وهي تصرخ مطلقة تهديدها الملحّ على طريقة الوشقات التي عرفها في الغابات الشمالية .

كل ذلك كان تمظهراً للقوة . فمن خلال ذلك كله ، وخلف ذلك كله ، كان ثمة إنسان يحكم ويتحكم ، يعبر عن ذاته ، كما في القديم ، بسيادته على المادة .

كان ذلك شيئاً هائلاً ، مدوخاً . كان وايت فانغ مجفلاً . كان الخوف مسيطراً عليه . كما في جرويته ، كان قد بدأ يشعر بصغره

وضآلته في اليوم الذي جاء فيه لأول مرة من البرية إلى قرية غراي بيفر ، كذلك الآن ، كان بقامته المكتملة واعتزازه بقوته ، قد بدأ يشعر بأنه صغير وضئيل . وكان ثمة آلهة كثر للغاية ! لقد أصيب بالدوار من احتشادهم . كان هدير الشوارع يضرب على أذنيه بقوة . لقد أربكه الزحام والحركة الهائلين واللانهائيين للأشياء . لقد شعر ، كما لم يشعر من قبل أبداً ، بإتكاله على سيد الحب ، الذي كان هو لصيقاً بعقبيه لايغيب عن نظره مهما حدث .لكن وايت فانغ لم يكن عليه أن يمتلك أكثر من رؤية كابوسية للمدنية – تجربة تشبه حلماً سيئاً ، لا حقيقياً وفظيعاً تلاحقه بعد وقت طويل في أحلامه . وضعه السيد في عربة أمتعة ، ربطه بجنزير في ركن وسط صناديق الثياب وحقائب السفر المكوّمة . هنا كان ثمة إله قصير وثخين ومفتول العضلات يترنح بكثير من الصخب ، يقذف حواليه بالصناديق والعلب ، يجرها عبر الباب ويكومها أو يزج بها خارج الباب ، فتدفع على نحوٍ مدوٍّ وصاخب إلى آلهة آخرين ينتظرونها .

هنا ، في هذا الجحيم من الحقائب ، تُرك وايتفانغ . أو على الأقل ، ظن وايتفانغ أنه قد تُرك ، إلى أن تشمم رائحة حقائب سيده المشمعية بقربه فبادر إلى حراستها .

« منذ مجيئك » جأر إله من السيارة ، بعد ذلك بساعة ، عندما ظهر ويدون سكوت بالباب « لم يدعني كلبك هذا أضع اصبعاً على أمتعتك » .

برز وايت فانغ من السيارة ، كان مذهولاً . إن مدينة الكوابيس قد ولّت . كانت السيارة ، بالنسبة له ، ليست أكثر من غرفة في

بيت ، وعندما دخلها كانت المدينة كلها حوله . في هذه الأثناء كانت المدينة قد اختفت . لم يعد هديرها يطن في أذنيه . كان ثمة بلد باسم ، يفيض بأشعة الشمس ، كسولاً مسترخياً بهدوء . لكنه كان يملك الوقت القليل لكي يتعجب من التحول . فقد تقبله مثلما تقبل كل أفعال وتمظهرات الآلهة اللاحصر لها . لقد كانت هذه هي وسيلتها .

كانت ثمة مركبة منتظرة . اقترب رجل وإمرأة من السيد . امتد ذراعا المرأة والتفا حول عنق السيد ـ فعل عدواني ! في اللحظة التالية كان ويدون سكوت قد أفلت من العناق واشتبك مع وايت فانغ الذي أصبح شيطاناً غاضباً مزمجراً .

« كل شيء على ما يرام ، يا أماه » قال سكوت بينما أمسك وايت فانغ بإحكام وثبته .

« لقد ظن أنك ستؤذيني ولم يتحمل ذلك . خيراً ، خيراً . سوف يتعلم بالسرعة الكافية » .

« في هذه الأثناء يسمح لي بأن أحب إبني عندما لا يكون كلبه حواليه » ضحكت ، مع أنها كانت شاحبة وخائرة القوى من الخوف .

نظرت إلى وايت فانغ الذي زمجر وانتصب شعره وحملق بشكل حاقد .

« سيكون عليه أن يتعلم ، وسوف يتعلم بدون تأخير » قال سكوت : صار يتكلم بلطف إلى وايت فانغ إلى أن هدأه ثم أصبح صوته حازماً .

« اجلس يا سيد ، فلتسقط أرضاً ! »

كان ذلك أحد الأشياء التي علمه إياها السيد، فانصاع وايت فانغ ، مع أنه اضطجع على مضض وبنكد .

« الآن ، يا أمي »

فتح سكوت ذراعيه لها ، لكنه أبقى عينيه على وايت فانغ

« إلى الأسفل ! » أنذره « إلى الأسفل ! »

إن وايت فانغ الذي كان ينتصب شعره بصمت ، وهو نصف رابض عندما هم بالنهوض ، قد تراجع إلى الوراء وراقب الفعل العدواني وهو يتكرر . لكن لم يصدر أي أذى عنه ولا عن عناق الإله — الانسان الغريب الذي تلاه . ثم أدخلت حقائب الثياب إلى المركبة ولحق بها الإلهان الغريبان وسيد الحب ،ولحق بهم وايت فانغ وهو يجري الآن خلفهم بحذر ، ويشب نحو الأحصنة السائرة محذراً إياها بأنه موجود وهناك لكي يرى أنه لم يحل الأذى بالإله الذي تجره بسرعة شديدة عبر الأرض .

بعد خمسة عشر دقيقة ، كانت المركبة تتمايل عبر بوابة حجرية وهي تتقدم بين صفين مزدوجين من أشجار الجوز المقنطرة والمتشابكة . وعلى كل جانب كانت تمتد المروج التي تقطع امتدادها العريض ، هنا وهناك ، أشجار البلوط الكبيرة ذات الأغصان القوية . وفي البعد القريب ، في مقابل الخضرة الفتية للعشب المخدوم كانت حقول القش المسفوع بالشمس تكشف عن لون ذهبي وأسمر ضارب إلى الصفرة . في حين كانت ترتفع خلفها التلال السمراء المصفرة ومروج المرتفعات .

من رأس المرج ، وعلى أول بروز رقيق عن مستوى الوادي بدا البيت الكثير النوافذ العميق الرواق .

مُنح وايتفانغ فرصة صغيرة ليرى كل ذلك . كانت العربة بالكاد قد دخلت الأراضي المحيطة بالبيت عندما هاجمه كلب رعاة لامع العينين ، حاد الخطم ، ساخط بشكل مبرر وغاضب . كان بينه وبين السيد فاصلاً إياه عنه . لم يزمجر وايت فانغ بأي إنذار ، لكن شعره انتصب عندما قام بهجومه الصامت والقاتل . هذه الهجمة لم تكتمل . فقد توقف بمفاجأة غير ملائمة ، وقائمتاه الأماميتان المتصلبتان اللتان كانتا تثبطان عزمه وهو شبه جالس على كفليه ، كان شديد الرغبة في تجنب الاحتكاك مع الكلب الذي كان متلبساً بجرم الهجوم . كانت أنثى ، وكان قانون نوعه يقيم حاجزاً بينهما . بالنسبة له ، فإن مهاجمتها لم تكن تتطلب أقل من انتهاك غريزته .

لكن مع كلب الرعاة كان الأمر مختلفاً . فلكونها أنثى ، لم تكن تمتلك مثل هذه الغريزة . ومن ناحية أخرى ، لكونها كلب رعاة ، فإن خوفها الغريزي من البرية ، وخصوصاً من الذئب ، كان خوفاً شديداً بشكل غير عادي . كان وايت فانغ بالنسبة لها ذئباً ، السلاّب الوراثي الذي افترس قطعانها منذ أن انتظمت الأغنام لأول مرة في قطعان وقام على حراستها أحد أسلافها المجهولين . وهكذا ، عندما تراجع عن هجومه عليها وأمسك نفسه – تفادياً للاحتكاك انقضت هي عليه . زمجر بشكل لا إرادي عندما أحس بأسنانها في كتفه ، ولكنه لم يقم بعدئذ بأي تهديد بإيذائها . تراجع مبتعداً ، متصلب الأرجل بوعي لذاته وحاول أن يلتف حولها . راوغ بهذه الطريقة ،

في هذا الاتجاه وذاك ، وانحنى ودار ، ولكن بدون جدوى . لقد ظلت دائماً تحول بينه وبين الطريق الذي كان يريد أن يسلكه .

« هنا ، كولي ! » نادى الرجل الغريب الذي في المركبة .

ضحك ويدون سكوت .

« لابأس ، لا تهتم يا أبي . إنه انضباط جيد . سوف يكون على وايت فانغ أن يتعلم أشياء كثيرة وهو أيضاً لا يزال في بدايته الآن . سوف يضبط نفسه بشكل جيد » .

سارت المركبة،وكولي لا تزال تسد طريق وايت فانغ . حاول أن يتجاوزها بالتخلي عن الطريق والالتفاف عبر المرج . لكنها سارت في الدائرة الداخلية الأصغر وكانت هناك تواجهه دائماً بصفين من الأسنان اللامعة . ومرة أخرى رسم دائرة عبر الطريق إلى المرج الآخر ، ومرة أخرى قطعت عليه الطريق .

كانت المركبة تحمل السيد بعيداً . لمحها وايتفانغ وهي تختفي بين الأشجار .

كان الوضع ميؤوساً منه . جرّب دائرة أخرى . فلحقت به وهي تعدو بسرعة . ثم التفت إليها فجأة . كانت تلك حيلته القتالية القديمة .

فضربها كتفاً بكتف بشكل محكم . فلم يؤد ذلك سوى لانقلابها على الأرض . إذ سرعان ما كانت تعدو بحيث صارت تتدحرج تارة على ظهرها وتارة أخرى على جنبها بينما كانت تصارع لتقف

ممسكة الحصى بأقدامها وهي تبكي بشكل حاد كبرياءها المجروح وسخطها .

لم ينتظر وايت فانغ. كان الطريق واضحاً وكان ذلك كل ما يريده . لحقت به دون أن تكف عن صراخها الشديد . كان الجزء المستقيم من الطريق مباشراً الآن ، وعندما أصبح جرياً حقيقياً ، استطاع وايت فانغ أن يعلمها أشياء . جرت بشكل مسعور، بشكل هستيري باذلة أقصى جهدها ، كاشفة عن الجهد الذي كانت تبذله مع كل قفزة، وطوال هذا الوقت كان وايت فانغ ينسل بسلاسة مبتعداً عنها بصمت ، ودون جهد ، وهو ينزلق مثل الشبح فوق الأرض .

عندما دار حول البيت نحو الا parte cochére صادف المركبة . كانت قد توقفت وكان السيد يترجل منها . في هذه اللحظة،ووايت فانغ لا يزال يعدو بأقصى سرعة ، أدرك بشكل مفاجيء أن ثمة هجوم من الجانب . كان ثمة كلب صيد غزلان ينقض عليه . حاول وايت فانغ أن يواجهه.ولكنه كان يجري بشكل أسرع من اللازم ، وكان الكلب قريباً جداً منه . فضربه على الجنب وكان هذا بمثابة العزم الأمامي وعنصر المفاجأة له .

طُرح وايت فانغ أرضاً فصار يتدحرج. خرج من ورطة مشهد الطبيعة الشريرة . فزم أذنيه إلى الوراء ، وافترت شفتاه ، وتجعّد أنفه ، وكزت أسنانه على بعضها عندما أخطأت الأنياب ، وبشق النفس ، الحنجرة اللينة للكلب .

كان السيد يجري صاعداً ، ولكنه كان بعيداً جداً ، وكانت

كولي هي التي أنقذت حياة كلب صيد الغزلان . فقبل أن يتمكن وايت فانغ من الانقضاض وتسديد الضربة القاضية، وعندما كان يهم بالانقضاض تماماً ، وصلت كولي . إن مناوراتها قد هُزمت بمناورات أبرع ، وتم تجاوزها ، ناهيك عن كونها قد تعثرت بالحصى بشكل فظ ، وكان وصولها مثل وصول الإعصار — قوامه الشرف المنتهك والغضب الشديد المبرر والكره الغريزي لهذا السلاب القادم من البرية . فقامت بضرب وايت فانغ عمودياً بزوايا قائمة في منتصف قفزته ، ومرة أخرى انقلب على أقدامه وصار يتدحرج .

في اللحظة التالية وصل السيد، وبيد واحدة أمسك وايت فانغ في حين قام الأب بطرد الكلاب الأخرى .

« أقول ، هذا استقبال دافىء جميل من أجل ذئب وحيد ضعيف من المنطقة القطبية » قال السيد ، في حين هدأ وايت فانغ تحت يده المداعبة .

« في كل حياته لم يُعرف عنه أنه انقلب على أقدامه سوى مرة واحدة ، وها هو قد انقلب مرتين في خلال ثلاثين ثانية » .

كانت المركبة قد ابتعدت ، وظهر آلهة غرباء آخرون من خارج البيت . وقف بعض هؤلاء على مسافة بشكل يدل على الاحترام ، لكن إثنان منهم ، إمرأتان ، ارتكبا جرم الإمساك بعنق السيد . مع ذلك فإن وايت فانغ كان قد بدأ يطيق هذا الفعل . لم يبد أن ثمة أذى ينجم عن ذلك ، في حين أن الأصوات الصاخبة التي أطلقتها الآلهة لم تكن مهددة بالتأكيد . قدّم هؤلاء الآلهة أيضاً مبادرات لوايت فانغ ،

لكنه أبعدهم محذراً بزمجرة ، وفعل السيد الشيء نفسه بكلمة من فمه . في مثل هذه الأوقات كان وايت فانغ يستند ملتصقاً بساقي السيد ويتلقى تربيتات مطمئنة على رأسه .

إن كلب الغزلان رهن الايعاز ، « ديك ! استلقِ ! »

كان قد صعد السلم واستلقى إلى جانب واحد على الرواق ، وهو لا يزال يجأر محتفظاً بمراقبته العنيدة الغاضبة للدخيل . كانت إحدى الإلهات ـ النساء قد تولت أمر كولي ، لكن كولي كانت مرتبكة وقلقة جداً ، وهي تئن متضايقة ، وقد أثار غضبها الوجود الشرعي لهذا الذئب وهي واثقة أن الآلهة كانت ترتكب خطأً بذلك .

بدأ الآلهة جميعاً يصعدون السلم لدخول البيت. كان وايت فانغ يسير في أعقاب السيد ملتصقاً به . أما ديك ، الذي كان على الرواق ، فقد جأر ورد عليه وايت فانغ ، على الدرج ، بجأرة وقد انتصب شعره .

« خذ كولي إلى الداخل ، ودعهما يهزمانه » . اقترح والد سكوت .

« بعد ذلك سيكونون أصدقاء »

ثم إن وايت فانغ ، ولكي يبدي صداقته ، سيكون عليه أن يكون النائح الرئيسي في الجنازة » ضحك السيد .

نظر سكوت الكبير غير مصدق ، أولاً إلى وايت فانغ ، ثم إلى ديك ، وأخيراً إلى ابنه

« أنت تقصد أن ـــــ ؟ »

هز ويدون سكوت رأسه دلالة الموافقة . « أنا أقصد ذلك تماماً . سيكون ديك ميتاً في الداخل خلال دقيقة – دقيقتين على الأكثر » . التفت إلى وايت فانغ « هيا،أنت أيها الذئب . أنت الذي سيكون عليه أن يأتي إلى الداخل »

سار وايت فانغ متصلب الأرجل صاعداً السلم عبر الرواق ، بذيل منتصب بشكل صلب ، مبقياً عينيه على ديك توقياً لهجمة من الخاصرة ، وفي الوقت نفسه استعداداً لأي تمظهر شرس من تمظهرات المجهول الذي يمكن أن ينقض عليه من داخل البيت . لكن شيئاً مخيفاً لم يبرز ، وعندما ضمن الداخل استكشف حوله بحذر باحثاً عنه دون أن يجده . ثم استلقى وهو يطلق نخرة رضا عند قدمي السيد مراقباً كل ما يجري ، دائم الاستعداد للوثوب على أقدامه والقتال من أجل الحياة مع المخاوف التي كان يشعر أنها لابد أن تكون متربصة تحت السقف الفخي للمنزل

* * *

الفصل الثالث والعشرون

مجال الإلـــه

لم يكن وايت فانغ متكيفاً مع الطبيعة فحسب ، بل كان أيضاً قد ارتحل كثيراً وعرف معنى وضرورة الضبط . هنا ، في سييرافيستا ، اسم محل القاضي سكوت، بدأ وايت فانغ سريعاً باعتبار نفسه وكأنه في بيته . لم يكن يعاني من أية مشاكل خطيرة مع الكلاب . فقد كانوا يعرفون عن أساليب آلهة بلاد الجنوب أكثر مما كان يعرف هو ، وقد أصبح في نظرهم مؤهلاً عندما رافق الإله إلى داخل البيت . كان ذئباً وبشكل لا سابق له ، كانت الآلهة قد أقرت بوجوده ، ولم يكن بوسعهم هم ، كلاب الآلهة ، إلا أن يعترفوا بهذا الإقرار .

كان على ديك ، بحكم الظروف والضرورة ، أن يمر بقليل من الشكليات القاسية ، في البداية، ليتقبل وايت فانغ بهدوء كملحق بالمبنى والأراضي التابعة له . لو كان ديك قد شق طريقه لأصبحا صديقين جيدين؛ لكن وايت فانغ كان نفوراً من الصداقة . فكل ما كان يطلبه من الكلاب الأخرى هو أن يدعوه وشأنه . لقد ظل طوال حياته بعيداً عن أفراد نوعه ولا زال يرغب في البقاء بعيداً . أزعجته مفاتحات ديك . لذلك فقد زجر به مبعداً إياه عنه . في الشمال تعلم الدرس

بأن عليه أن يدع كلاب السيد وشأنها ولم ينس ذاك الدرس ، الآن . لكنه أصر على خصوصيته وعزلته الذاتية ، لذلك تجاهل ديك كلياً بحيث أن ذلك المخلوق ذي الطبيعة الجيدة قد تخلى عنه أخيراً ، ونادراً ما كان يهتم به كثيراً كما كان يفعل في المربض قرب الاسطبل .

لم يكن الأمر كذلك مع كولي . ففي حين أنها قبلته لأنه كان مفروضاً من الآلهة ، لم يكن ثمة أي سبب يلزمها بأن تتركه بسلام . لقد دخلت في نسيج وجودها تلك الجرائم التي لا حصر لها التي ارتكبها هو ونوعه ضد أسلافها . ولن تُنسى لا في يوم ولا في جيل قطعان الغنم المتلوفة . كان ذلك كله حافزاً لها يدفعها إلى الانتقام . لم يكن بمقدورها أن تفر في وجه الآلهة الذين سمحوا له ، لكن ذلك لم يمنعها من جعل حياته تعيسة بوسائل تافهة .

إن العداء ، الذي يعود إلى عصور خلت ، القائم بينهما ، كواحدة ، كانت ترى أنه يذكرها به .

وهكذا استفادت كولي من جنسها في مضايقة وايت فانغ . إن غريزته لم تكن تسمح له بمهاجمتها في حين أن إلحاحها لم يسمح له بتجاهلها . عندما هجمت عليه أدار كتفه المحمي بالفراء لأسنانها الحادة وسارا بعيداً بصلابة وجلال .

وعندما أجبرته بقسوة شديدة ، وجد نفسه مرغماً على الالتفاف في دائرة وكتفه مكشوف لها ورأسه محوّل عنها وفي عينيه وعلى وجهه تعبير صابر وضجر . في بعض الأحيان ، مع ذلك ، فإن عضة منها على أجزائه الخلفية كانت تعجل تراجعه وتجعله أي شيء إلا أن يكون

وقوراً . ولكن ، كقاعدة عامة ، نجح في المحافظة على وقارٍ كان شبيهاً بالإجلال . كان يتجاهل وجودها كلما كان ذلك ممكناً ، وجعل الهدف الأساسي له هو أن يخرج عن طريقها . فعندما كان يرى أو يسمع قدومها كان ينهض ويتنحى بعيداً .

كان ثمة الكثير لأجل وايت فانغ لكي يتعلمه في أمور أخرى . فالحياة في أرض الشمال كانت البساطة ذاتها إذا ما قورنت بالشؤون المعقدة ليير افيستا .فقبل كل شيء كان عليه أن يتعرف على أسرة السيد . كان مستعداً لذلك بطريقة ما . فكما كان ميت – ساه وكلوكوتش ينتميان إلى غراي بيفر يتقاسمان طعامه وناره وبطانياته كذلك الآن في سييرافيستا ، كان ينتمي إلى سيد الحب جميع ساكني المنزل :

بيد أنه في هذه المسألة كان ثمة اختلاف ، واختلافات كثيرة . فقد كانت سييرافيستا شأناً أوسع بكثير من خيمة غراي بيفر . كان ثمة أشخاص كثيرون يجب أخذهم بالاعتبار . كان هناك القاضي سكوت ، وزوجته . كان هناك شقيقا السيد ، بيث وماري . وهناك زوجته آليس ، وطفلاه ، ويدون ومود ، في الرابعة والسادسة من العمر . لم يكن ثمة مجال لأي شخص لكي يخبره عن هؤلاء الناس وعن روابط الدم والقرابة التي لم يكن يعرف شيئاً عنها ولن يكون قادراً أبداً على معرفتنا . مع أنه استنتج سريعاً أنهم جميعاً ينتمون إلى السيد . ثم ، وبالملاحظة ، كلما سنحت الفرصة . وعن طريق تأمل الفعل والكلام وطبقات الصوت ، تعلم بشكل بطيء حميمية ودرجة التفضيل الذي يتمتعون به لدى السيد . بهذا المعيار الموثوق ووفقاً

له كان وايت فانغ يعاملهم . فما كان ذا قيمة للسيد كان يقيمه، وما كان عزيزاً على السيد كان معززاً من قبل وايتفانغ ومحروساً بعناية .

وهكذا كان الأمر مع الطفلين . كان طوال حياته يكره الأطفال . كان يكره أيديهم ويخاف منها . لم تكن لطيفة تلك الدروس التي تعلمها من استبدادهم وفظاظتهم في أيام القرى الهندية . عندما اقترب منه ويدون ومود لأول مرة ، جأر محذراً ونظر نظرة شريرة . لكنه أُجبر بصفعة وكلمة نابية من السيد على السماح لهما بمداعبته ، مع أنه جأر وجأر تحت أيديهم الصغيرة ، وفي جأره لم يكن ثمة أي نغمة مدندنة . فيما بعد ، لاحظ أن الصبي والبنت كانا ذوي قيمة كبيرة في نظر السيد . ثم أصبحت لاالصفعة ولاالكلمة النابية ضروريتين لكي يكون بوسعهما أن يربتا عليه .

مع ذلك لم يكن وايتفانغ محباً بشكل مسرف . كان يستسلم لطفلي السيد بمنة صادقة ولكن على مضض ، وتحمل حماقاتهما كما يتحمل المرء عملية مؤلمة . عندما لم يعد بمقدوره أن يتحمل كان ينهض ويبتعد عنهما بشكل متعمد . ولكن بعد فترة ، أصبح يحب الأطفال حتى . كان لا يزال كتوماً في التعبير عن عواطفه . فلم يكن ينهض لهما . ومن ناحية أخرى ، بدلاً من السير مبتعداً على مرمى منهما ، صار ينتظر قدومهما إليه . وفيما بعد أيضاً لوحظ أن إشراقة فرح كانت ترد إلى عينيه عندما يراهما يقتربان . وصار يلاحقهما بنظرة الأسف المثير للفضول عندما يتركانه من أجل تسليات أخرى .

كل هذا كان مسألة تطور يستغرق وقتاً . ثم جاء القاضي سكوت

بعد الأطفال في اعتباره . كان ثمة سببان لذلك ، ربما . أولهما ، من المؤكد أنه كان ملكية ذات قيمة من أملاك سيده ، وثانيهما أنه كان كتوماً في عواطفه .

كان وايت فانغ يحب الاضطجاع عندقدميه في الرواق العريض عندما يقرأ الصحيفة متفضلاً على وايتفانغ بنظرة أو كلمة من وقت لآخر ،وهي علامات مريحة تدل على أنه يعترف بحضور وايت فانغ ووجوده . لكن ذلك يحدث فقط عندما لا يكون السيد في الجوار . فعندما يظهر السيد ، تكف كل الكائنات الأخرى عن الوجود طالما أن الأمر يعني وايت فانغ .

كان وايت فانغ يسمح لكل أفراد العائلة بمداعبته وملاطفته،لكنه لم يمنحهم ما كان يمنحه للسيد . لم يكن بمقدور أية مداعبة من مداعباتهم أن تضع في حلقه دندنة الحب ، وعبثاً حاولوا ، لكنهم لم يستطيعوا إقناعه بأن يتمسح بهم طلباً للدفء . هذا التعبير عن التنازل والاستسلام ، وعن الثقة المطلقة احتفظ به للسيد وحده . في الحقيقة، إنه لم ينظر إلى أفراد الأسرة بأي منظار آخر سوى كونهم أملاكاً لسيد الحب .

كذلك فقد توصل وايت فانغ مبكراً إلى التمييز بين أفراد الأسرة وبين خدم التدبير المنزلي ، فقد كان الأخيرون يخافون منه في حين كان يمتنع فقط عن مهاجمتهم . وذلك لأنه كان يعتبرهم بالمثل أملاكاً للسيد . كان بينهم وبين وايت فانغ حياد لا أكثر. كانوا يطبخون للسيد ويغسلون الأطباق ويقومون بأشياء أخرى ، تماماً كما كان مات يرتب المنزل في الكلونديك . كانوا ، باختصار ، ملحقات بأهل البيت .

خارج أهل البيت كان ثمة أكثر من ذلك من أجل وايت فانغ لكي يتعلمه . كان مجال السيد عريضاً ومعقداً مع أنه كانت له حدوده وقيوده .

إن الأرض ذاتها كانت تنتهي عند الطريق الريفي . أما خارجها فقد كان المجال المشترك لكل الآلهة — الطرقات والشوارع . ثم وفي داخل السياجات كانت الحقول الخاصة بآلهة آخرين . ثمة عدد كبير من القوانين التي تحكم كل هذه الأشياء وتقرر السلوك ، مع أنه لم يكن يعرف كلام الآلهة ، ولم يكن هناك أي مجال بالنسبة له للتعلم سوى الخبرة . لقد كان يستسلم لنزواته الطبيعية إلى أن توقعه في صدام مع قانون ما . عندما تكرر ذلك عدة مرات كان يتعلم القانون وبعد ذلك يلتزم به .

لكن الشيئين الأكثر فعالية في تعليمه كانا يد السيد وتقريع صوت السيد . بسبب حب وايت فانغ الكبير جداً، فإن صفعة من السيد كانت تؤلمه أكثر بكثير من أية ضربة وجهها له غراي بيفر أو بيوتي سميث . فهما كانا يؤلمان اللحم منه فقط . أما تحت اللحم فكانت الروح لا تزال متقدة مشرقة وكؤودة . ولكن مع السيد كانت الصفعة دائماً أخف من أن تؤلم اللحم ، مع أنها كانت تغوص أكثر عمقاً . كانت تعبيراً عن استهجان السيد . فكانت روح وايت فانغ تذوي تحتها .

في الحقيقة ، لم تكن الصفعة تُكال له إلا نادراً . فقد كان صوت السيد كافياً : بواسطته كان يعرف وايت فانغ ماإذا كان قد فعل صواباً أم لا . وبواسطته كان يشذب سلوكه ويضبط أفعاله . كان البوصلة

التي بواسطتها يتوجه ويتعلم أن يرسم الخطط لسلوك بلاد جديدة وحياة جديدة .

في بلاد الشمال ، كان الحيوان الداجن الوحيد هو الكلب . أما الحيوانات الأخرى فكانت تعيش في البرية وكانت غنيمة شرعية لأي كلب عندما لا تكون مرعبة جداً. طوال أيامه كان وايت فانغ قد طاف بين الكائنات الحية من أجل الطعام . لم يدر في خلده أن يكون الأمر خلافاً لذلك في بلاد الجنوب .

لكنه كان عليه أن يتعلم ذلك مبكراً أثناء إقامته في وادي سانتا كلارا . بينما كان يمشي الهوينى حول زاوية البيت في الصباح الباكر صادف صوصاً كان قد هرب من حظيرة الدجاج . كانت الدافع الطبيعي لوايت فانغ يقول له أن يأكله . وثبتان،تكشيرة أسنان وزعقة حادة وكان قد أطاح بالطائر المغامر . كان هذا الطائر مستولداً في المزرعة ، وبالتالي كان سميناً وغضاً . ولحس وايت فانغ خديه وأقر بأن هذا الطعام جيد .

في وقت لاحق من ذاك النهار وقع على صوص شارد آخر قرب الاسطبلات . فسارع أحد السائسين إلى إنقاذه . لم يكن يعرف سلالة وايت فانغ ، لذلك فقد تسلّح بسوط بوجي(*) خفيف . لدى أول ضربة سوط ترك وايت فانغ الصوص للرجل. كان من الممكن ايقاف وايت فانغ بعصا وليس بسوط. ثم تلقى ضربة ثانية بصمت ودون

* البوجي : سائق البوجية ، هي عربة خفيفة وحيدة المقعد يجرها عادة جواد واحد (المترجم)

إجفال بينما كان يندفع نحو الأمام ، وبينما كان يثب على البلعوم صرخ السائس « يا إلهي ! » وترنح إلى الوراء .

أفلت السوط وطوّق بلعومه بيديه ، وبالنتيجة كان ذراعه مشقوقاً حتى العظم . كان الرجل مرعوباً بشكل فاضح . لم تكن شراسة وايت فانغ التي أفقدت السائس شجاعته بقدر ما كان صمته . حاول أن يتراجع إلى الحظيرة وهو لا يزال يحمي بلعومه ووجهه بذراعه الممزق والنازف . وكان الأمر صعباً عليه لو لم تظهر كولي على مسرح الأحداث . فكما أنقذت حياة ديك انقذت الآن حياة السائس . فانقضت على وايت فانغ بغضب محموم . كانت على حق . فهي تعرف أفضل من الآلهة المتخبطين . كانت كل شكوكها مبررة . فها هو السلاب القديم يعود إلى حيله القديمة مرة أخرى .

هرب السائس إلى الاسطبلات وتراجع وايت فانغ مبتعداً أمام الأسنان الشريرة لكولي ، أو أدار كتفه لها وصار يدور ويدور . لكن كولي لم تكف عنه كما هي عادتها ، بعد فاصل تأديبي مقبول . بل ، على العكس من ذلك ، كانت في كل لحظة تزداد غضباً وإثارة إلى أن قذفت بكرامته إلى الريح وفي النهاية هرب منها بشكل مفضوح عبر الحقول .

« سيتعلم أن يدع الصيصان وشأنها » قال السيد .

« لكن لا يمكنني أن أعطيه الدرس قبل أن أمسكه بالجرم المشهود » .

بعد ليلتين جاء الجرم المشهود ولكن على مستوى أكثر كرماً مما كان يتوقع السيد .

كان وايت فانغ قد راقب بدقة أخمام الدجاج وعادات الصيصان . في فترة المساء ، وبعد أن ذهبوا إلى مجثمهم، صعد إلى أعلى تلة من سقط المتاع المكوم حديثاً . ومن هناك وصل إلى سقف بيت الدجاج ومر من فوق الرافدة السقفية ونزل إلى الأرض في الداخل . بعد لحظة كان في داخل البيت ، وبدأت المذبحة .

في الصباح عندما خرج السيد إلى الرواق تبدت لعينيه خمسون دجاجة ليغهورن بيضاء وضعها السائس في صفوف . فأطلق صفرة خافتة ، أولاً باندهاش ثم بإعجاب في النهاية . وتبدّى لعينيه أيضاً وايت فانغ ، لكن هذا الأخير لم تكن تظهر عليه أية علامة من علامات العار أو الذنب . لقد تملكه الغرور كما لو أنه في الواقع قد حقق مأثرة يستحق عليها الثناء ويستأهل التقدير .

لم يكن لديه أي شعور بالذنب . تيبّست شفتا السيد عندما رأى هذا العمل الكريه . ثم تحدث بقسوة إلى المتهم غير العالم بجريمته ، وفي صوته لم يكن سوى الغضب الربوبي . كذلك ، فقد قام بانزال أنف وايت فانغ إلى الدجاجات المذبوحات وقام في الوقت نفسه بصفعه بقوة .

لم يهاجم وايت فانغ مجثم الدجاج مرة أخرى . كان ذلك منافياً للقانون ، وقد تعلّم ذلك . بعدئذ أدخله السيد إلى أخمام الدجاج . كان الدافع الطبيعي لوايت فانغ يقول له أن ينقض على الطعام الحي عندما رآه يرفرف حوله وتحت أنفه . لقد امتثل للدافع ، لكن صوت سيده ردعه . بقيا في الساحة لمدة نصف ساعة . ومن حين لآخر كان

الدافع يتغلب على وايتفانغ ، وفي كل مرة ، عندما يستسلم له ، كان يردعه صوت السيد . وهكذا تعلّم القانون ، وقبل أن يغادر مجال الصيصان تعلم أن يتجاهل وجودها .

« ليس بوسعك أن تشفي قاتل الدجاج أبداً » هز القاضي سكوت رأسه بأسف وهو جالس إلى مائدة الغداء عندما قص على ابنه الدرس الذي لقنه لوايت فانغ .

« عندما يكتسبون العادة ويتذوقون طعم الدم ... » وهز رأسه مرة أخرى بأسف .

لكن ويدون سكوت لم يتفق مع أبيه .

« سأخبرك بما سأفعل » قال متحدياً في النهاية .

« سوف أحبس وايت فانغ مع الدجاج طوال فترة بعد الظهر » .

« ولكن فكرّ بالدجاج » اعترض القاضي .

« وعلاوة على ذلك » تابع الابن قائلاً « مقابل كل صوص يقتله سأدفع لك دولاراً ذهبياً في الحقل »

« ولكن ينبغي عليك أن تعاقب الأب ، أيضاً » تدخلت بيث . أيدتها شقيقتها ، وصعدت جوقة من أصوات الاستحسان من حول المائدة ، هز القاضي سكوت موافقاً .

« حسناً » ، تفكرّ ويدون سكوت للحظة . « في نهاية فترة العصر إذا لم يؤذِ وايت فانغ صوصاً واحداً،سيكون عليك أن تقول له ، مقابل كل عشر دقائق قضاها في الساحة ، بكل وقار وتأنٍ ، تماماً لو كنت تجلس على قوس المحكمة وتطلق حكماً مستوفياً للشروط القانونية:

« وايت فانغ ، إنك أذكى مما كنت أظن »

من نقاط مخفية ذات مواقع أفضلية كانت العائلة تراقب الأداء. لكن ذلك كان مبشراً بالفشل. إن وايت فانغ المحبوس في الساحة والمهجور من قبل السيد اضطجع واستسلم للنوم. ذات مرة نهض وسار إلى الجرن لكي يأخذ شربة ماء. تجاهل صيصان الدجاج بهدوء. فهي لم تكن موجودة طالما أن ذلك يعنيه. في الساعة الرابعة قام بقفزة سريعة ووصل إلى سقف بيت الدجاج وقفز إلى الأرض خارجاً، ومن هناك صار يمشي الهوينى بوقار إلى البيت. لقد تعلّم القانون. وفي الرواق، أمام الأسرة المبتهجة، وقف القاضي سكوت وجهاً لوجهمع وايت فانغ، وقال ببطء وبجلال، ستة عشر مرة:

« وايت فانغ ، أنت أذكى مما كنت أعتقد » .

لكن تعدد القوانين هو الذي كان يربك وايت فانغ وغالباً ما كان يلحق به الخزي. كان عليه أن يتعلم ألا يلمس الصيصان التي تعود ملكيتها لآلهة آخرين. ثم كان ثمة قطط وأرانب ودجاج رومي، وكل هؤلاء يجب تركهم وشأنهم. في الحقيقة، عندما لم يكن قد تعلم القانون إلا جزئياً، فقد تولد لديه انطباع بأن عليه أن يترك كل الكائنات الحية وشأنها. ففي الخارج، في المرج الخلفي، كان بمقدور طائر السمان أن يرفرف تحت أنفه دون أن يصاب بأذى. بكل توتر وارتعاش من التوق والرغبة سيطر على غريزته وظل هادئاً. كان يمتثل لمشيئة الآلهة .

ثم، ذات يوم، ومرة أخرى في المرعى الخلفي، رأى (ديك) يجفل أرنباً أميركياً ويطارده .وكان السيد نفسه يتفرج ولم يتدخل.

ليس هذا فحسب، بل إنه قد شجع وايت فانغ على الاشتراك في المطاردة . وهكذا تعلّم أنه لا توجد محظورات على الأرانب الأميركية . فبينه وبين كل الحيوانات الداجنة يجب ألا تكون هناك أية عداوات . إذا لم تكن هناك صداقة فيجب على الأقل ، أن يسود الحياد . لكن الحيوانات الأخرى – كالسناجب والسمان وقطنيات الذيل (*) – هي مخلوقات البرية لم تقدم الولاء للإنسان أبداً . إنها الطريدة الشرعية لأي كلب . لم تكن الآلهة تحمي سوى الداجن منها ، وبين الحيوانات الداجنة لم يكن الصراع المميت مسموحاً . كانت الآلهة تمسك بسلطة الحياة والموت على رعاياها ، والآلهة غيورة على سلطتها .

كانت الحياة معقدة في وادي سانتا كلارا بعد بساطة بلاد الشمال . والشيء الأساسي الذي كانت تتطلبه تعقيدات هذه المدنية هو الضبط والحصر – وهو توازن للنفس مرهف ودقيق كرفرفة جناحي لعاب الشمس (**) وفي الوقت نفسه قاسٍ كالفولاذ . كان للحياة ألف وجه، ووجد وايت فانغ أن عليه أن يواجهها جميعاً – لذلك ، عندما ذهب إلى المدينة ، إلى سان خوسيه جارياً وراء المركبة أو متسكعاً في الشوارع عندما تتوقف ، كانت الحياة تمر أمامه عميقة ، عريضة ومتنوعة ، ترتطم بشكل مستمر بحواسه ، طالبة منه تكيفات وانسجامات آنية لا نهاية لها ، ومرغمة إياه ، بشكل شبه دائم ، على كبح نزواته الطبيعية .

---

* قطنيات الذيل : نوع من الأرنب الأميركي أبيض الذنب أزغبه . (المترجم)

** لعاب الشمس أو مخاط الشيطان : غشاء كنسيج العنكبوت يطفو في الهواء حين يصفو الجو . (المترجم)

كان ثمة دكاكين جزارين يعلق فيها اللحم فوق متناول اليد . هذا اللحم يجب عليه ألا يلمسه . كان ثمة قطط في البيوت التي كان يزورها السيد ويجب عليه أن يتركها وشأنها . وكان ثمة كلاب في كل مكان تزجر به ويجب عليه ألا يهاجمها . وثم ، على الأرصفة المزدحمة كان ثمة أشخاص لا حصر لهم ممن كان يلفت انتباههم . فكانوا يتوقفون وينظرون إليه ويشيرون إليه لبعضهم بعضاً ، يتفحصونه ، يتحدثون إليه ، وفي أسوأ الأحوال يربتون عليه . وهذه الاحتكاكات المحفوفة بالمخاطر من كل هذه الأيدي الغريبة يجب عليه أن يتحملها . مع ذلك ، فقد حقق هذا التحمل . والأهم من ذلك أنه قد تجاوز كونه أخرق وواعياً لذاته . بطريقة متغطرسة كان يتلقى الاهتمام من الأعداد الكبيرة للآلهة الغريبة . وبتلطفٍ كان يتلقى تلطفهم . ومن ناحية أخرى ، كان ثمة شيء ما حوله يحول دون الإلفة الكبيرة . فقد كانوا يمسدون على رأسه ويمضون وهم مقتنعون ومسرورون بشجاعتهم .

لكن ذلك لم يكن كله سهلاً بالنسبة لوايت فانغ . فبينما كان يجري خلف المركبة في ضواحي سان خوسيه ، صادف بعض الصبية الصغار الذين كانوا يمارسون عادة رمي الحجارة عليه . مع أنه كان يعرف أنه ليس مسموحاً له أن يطاردهم وأن يمسك بهم . هنا كان مجبراً على انتهاك غريزة حفظ الذات (غريزة البقاء) وقد انتهكها لأنه كان يصير داجناً ويكيف نفسه من أجل المدينة .

لا حاجة للقول أن وايت فانغ لم يكن مقتنعاً تماماً بهذا الإجراء . لم تكن لديه أية أفكار مجردة عن العدل والإنصاف . ولكن كان ثمة احساس بالمساواة يكمن في الحياة . لكن هذا الإحساس لديه هو

الذي كان يمتعض من لا عدالة كونه غير مسموح له أن يدافع عن نفسه ضد قاذفي الحجارة . لقد نسي أنهم في الميثاق المبرم بينه وبين الآلهة كانوا ملزمين برعايته والدفاع عنه . ولكن ، في يوم من الأيام ، قفز السيد من المركبة والسوط في يده وجلد قاذفي الحجارة . بعد ذلك لم يقذفوا الحجارة ، وفهم وايت فانغ وكان راضياً .

حصلت له تجربة ذات طبيعة مماثلة . ففي الطريق إلى المدينة وبينما كان يتحلق حول الصالون الواقع عند مفترّق الطرق كان هناك ثلاثة كلاب أغارت عليه عندما مر بها . إن السيد الذي كان يعرف اسلوب القاتل في المعاركة لم يكن قد توقف أبداً عن تلقين وايت فانغ القانون الذي يقضي بأن عليه ألا يقاتل . نتيجة لذلك ، ولكونه قد تعلم الدرس جيداً، فإن وايت فانغ كان يجد نفسه في وضع حرج كلما مر بصالون مفترّق الطرق .

وفي كل مرة ، بعد الهجمة الأولى ، كانت زمجرته تبقي الكلاب بعيدة عنه ، ولكنهم كانوا يلحقون به وهم يعوون ويتدافعون ويقومون بإهانته . وقد تحمل ذلك لبعض الوقت . حتّى أن الرجال الذين في الصالون كانوا يحضون الكلاب على مهاجمة وايت فانغ . ذات يوم قاموا بتهويش الكلاب عليه بشكل صريح . أوقف السيد المركبة .

قال لوايت فانغ « اذهب إليه » .

لكن وايت فانغ لم يستطع أن يصدق ذلك.نظر إلى السيد ونظر إلى الكلاب . ثم نظر إلى الوراء بتلهف وتساؤل نحو السيد .

هز السيد رأسه دلالة الموافقة : «اذهب إليهم ، يارفيقي العجوز ، كلهم»

لم يعد وايت فانغ متردداً . التفت ووثب بصمت بين أعدائه . واجهه الثلاثة معاً . كان ثمة زمجرة هائلة وجأر واصطدام أسنان واضطراب أجسام . ارتفع غبار الطريق في سحابة وانسدل على المعركة . ولكن في آخر عدة دقائق كان ثمة كلبان يصارعان في القذارة ، وكان الثالث يهرب ، وثب من فوق خندق ، اجتاز سياجاً من القضبان ، وفر عبر أحد الحقول . لحق به وايت فانغ وهو ينسل فوق الأرض بطريقة ذئبية وبسرعة ذئبية ، بسرعة ودون ضجيج ، وفي وسط الحقل بطح الكلب أرضاً وذبحه .

بهذا القتل الثلاثي انتهت مشاكله الكبرى مع الكلاب . شاع الخبر في كل الوادي ، ورأى الناس أن كلابهم لم تعد تتحرش بالذئب المقاتل .

* * *

الفصل الرابع والعشرون

نـــداء النوع

جاءت الأشهر ومضت . كان ثمة وفرة في الطعام وقلة في العمل في بلاد الجنوب، فعاش وايت فانغ سميناً ومزدهراً وسعيداً . لم يكن لوحده في بلاد الجنوب الجغرافية لأنه كان ثمة حياة في بلاد الجنوب . كان اللطف مثل شمس تشع عليه وتفتح مثل زهرة مغروسة في تربة خصبة .

مع ذلك فقد ظل مختلفاً بشكل ما عن الكلاب الأخرى . كان يعرف القانون حتى أفضل مما كانت تعرفه الكلاب التي لم تعرف حياة أخرى ، وكان يراعي القانون بدقة أكثر ، ولكن كان لا يزال حوله ما يوحي بوجود شراسة متربصة ، كما لو أن البرية لا تزال متلبسة فيه والذئب في داخله نائم ليس إلا .

لم يصادق كلاباً أخرى . كان قد عاش وحيداً ، طالما كان نوعه معنياً بالأمر ، ووحيداً سوف يستمر في العيش . في جرويته ، وفي ظل اضطهاد ليب ــ ليب وقطيع الجراء له ، وفي أيام عراكه مع بيوتي سميث كان قد اكتسب كرهاً شديداً للكلاب .

كان المسار الطبيعي لحياته قد انحرف ، وبارتداده عن نوعه ، كان قد تعلق بالإنسان . بالإضافة إلى ذلك فقد كانت كل كلاب الجنوب تنظر إليه بارتياب . لقد أثار فيها خوفها الغريزي من البرية فكانت تلاقيه دائماً بالزمجرة والجأر والكراهية المشاكسة . ومن ناحية أخرى ، فقد تعلم أن ليس من الضروري أن يستعمل أسنانه معهم . فأنيابه المكشرة وشفتاه المفترتان كانت فعالة بشكل مطرد ، ونادراً ما كان يفشل في رد كلب مغير جائر على أعقابه .

كان ثمة محاكمة واحدة في حياة وايت فانغ – إنها كولي . فهي لم تكن تهادنه لحظة واحدة . لم تمنحه السلام لحظة واحدة . فهي لم تكن مذعانة للقانون مثله. لقد تحدت كل جهود السيد لجعلها تتصادق مع وايت فانغ. كانت زمجرتها الحادة والعصبية تطن في أذنيه دائماً . لم تغفر له أبداً حكاية قتل الصيصان وظلت بشكل ثابت متمسكة باعتقادها أن نواياه كانت سيئة . فهي وجدته متلبساً بالجرم وعاملته وفقاً لذلك . أصبحت شيئاً مزعجاً له ، مثل شرطي يلاحقه حول الاسطبل والأراضي وفي كثير من الأحيان إذا لوحظ أنه ينظر بفضول إلى حمامة أو دجاجة كانت تنفجر في صرخة سخط وغضب . كانت طريقته المفضلة في تجاهلها هي أن يستلقي أرضاً ورأسه على مخلبيه الأماميين ويتظاهر بالنوم . فكان ذلك يصفعها ويخرسها دائماً .

باستثناء كولي، كان كل شيء يسير بشكل جيد مع وايت فانغ . فقد تعلم الضبط والاتزان وصار يعرف القانون . لقد حقق الرصانة والهدوء والتسامح برباطة جأش فلم يعد يعيش في بيئة معادية . لم

يعد الخطر والألم والموت تتربص به في كل مكان من حوله . في ذاك الوقت ، كان المجهول كشيء مثير للخوف والتهديد الوشيك الحدوث دائماً قد تلاشى . كانت الحياة لطيفة وسهلة . كانت تسير بسلاسة فلم يعد الخوف ولا العدو يكمن قرب الطريق .

كان يفتقد الثلج دون أن يعي ذلك .

« صيف طويل بشكل مفرط » هكذا سيكون رأيه فيما لو فكر فيه ، كما هو الحال . فقد كان يفتقد الثلج فقط بطريقة مبهمة فيما دون الوعي . وعلى المنوال نفسه ، وخصوصاً في حر الصيف عندما كان يعاني من الشمس ، فقد كان يمر بنوبات من الشوق إلى بلاد الشمال . وكان تأثيرها الوحيد عليه ، مع ذلك ، هو أنها تجعله متضايقاً ومنزعجاً دون أن يعرف ما هي المشكلة .

لم يكن وايت فانغ أبداً صريحاً في الكشف عن عواطفه . فوراء تمسحه وإطلاقه للنغمة المدندنة في جأر الحب لم يكن يمتلك سبيلاً للتعبير عن حبه . مع أنه كان متاحاً له أن يكتشف سبيلاً ثالثاً . فقد كان بشكل دائم عرضة لسخرية الآلهة . كان الضحك يصيبه بالجنون ، يجعله مسعوراً من الغضب . لكنه لم يكن يدر في خلده أن يغضب سيد الحب ، وعندما كان ذاك الإله يختار الضحك عليه بطريقة ممازحة ودية كان يصيبه الارتباك . كان يستشعر وخز ولسع الغضب القديم وهو يصارع للظهور فيه ، لكنه كان يصارع ضد الحب . لم يكن بوسعه أن يغضب مع أنه كان عليه أن يفعل شيئاً ما . في البداية كان وقوراً وكان السيد يضحك بشكل أقوى . ثم حاول أن يكون أكثر

وقاراً ، فصار السيد يضحك عليه بسبب وقاره . انفصل فكاه قليلاً ، وافترت شفتاه وظهر على عينيه تعبير غريب كان فيه من الحب أكثر مما فيه من الفكاهة . لقد تعلم أن يضحك .

بالشكل نفسه تعلم أن يمرح مع السيد ، أن ينقلب ويتدحرج وأن يكون ضحية لحيل خشنة لا حصر لها . فكان بدوره يتظاهر بالغضب وينتصب شعره ويجأر بضراوة . فيطبق أسنانه على بعضها في عضات تتخذ كل مظاهر النية القاتلة . لكنه لم ينسَ اسمه أبداً . فقد كانت تلك العضات تطلق في الفراغ . في نهاية هذا الفرح عندما تصبح الضربة والصفعة والعضة والزمجرة سريعة وغاضبة كانا يتوقفان فجأة ويقفان على بعد عدة أقدام عن بعضهما البعض، وكل واحد منهما يحدق في الآخر . ثم وبالقدر نفسه من المفاجأة ، ومثل الشمس التي تشرق على بحر عاصف يبدءان الضحك . وكان هذا الضحك يتوَّج دائماً بتطويق ذراعي السيد لعنق وكتفي وايت فانغ بينما كان هذا الأخير يدندن ويجأر بأغنية حبه . لكن أحداً آخر لم يمرح مع وايت فانغ أبداً . فهو لم يسمح بذلك . كان يحافظ على وقاره ، وعندما كانوا يمتحونه فقد كانت زمجرته المنذرة وعرفه المنتصب أي شيء إلا أن يكونا لعوبين . إن سماحه للسيد بهذه الحريات لم يكن مبرراً لأن يصبح كلباً مشاعاً ، يحب هنا ويحب هناك ، وملكاً للجميع من أجل المرح والتسلية . لقد أحب بقلب واحد ورفض أن يرخص نفسه أو حبه .

كان السيد يخرج على صهوة الحصان كثيراً ، وكانت مرافقته إحدى واجبات وايت فانغ الأساسية في الحياة . في بلاد الشمال كان قد برهن على ولائه عن طريق الكدح في السخرة ، أما في بلاد الجنوب

فلم تكن توجد مزلجات . ولا كانت الكلاب تحمل الأثقال على ظهورها. لذلك فقد قدم الولاء بطريقة جديدة ، بالجري مع حصان السيد . إن أطول نهار لم يرهق وايت فانغ . كانت مشيته مشية الذئب السلسة التي لا تعرف التعب ولا الكلل ، المشية الهينة ، بحيث أنه بعد خمسين ميلاً سوف يسبق الحصان بشكل أنيق .

فيما يتعلق بالركوب فقد حقق وايت فانغ نمطاً آخر من التعبير — نمطاً متميزاً في أنه لم ينجزه سوى مرتين طوال حياته كلها . المرة الأولى حدثت عندما كان السيد يحاول تعليم حصان أصيل مفعم بالحيوية طريقة فتح وإغلاق البوابات بدون أن يترجل الفارس عنه . أوصل الحصان إلى البوابة المرة تلو الأخرى سعياً لإغلاقه ، وفي كل مرة كان الحصان يخاف ويتراجع ويجفل مبتعداً . في كل لحظة كان يصبح أكثر عصبية وإثارة . عندما شب الحصان قام السيد نفسه بنخسه وجعله يسقط قائمتيه الأماميتين إلى الأرض ، في حين صار يرفس بساقيه الخلفيتين . كان وايت فانغ يراقب العملية بقلق متزايد إلى أن لم يعد بمقدوره أن يضبط نفسه عندما وثب أمام الحصان وعوى بقوة وبشكل محذّر .

بالرغم من أنه غالباً حاول أن ينبح بعد ذلك ، وكان السيد يشجعه ، فإنه لم ينجح سوى مرة واحدة ، ومن ثم لم يكن ذلك بحضور السيد . كان ثمة فرار عبر المرج ، فظهر أرنب أميركي فجأة تحت حوافر الحصان ، فحدث انحراف شديد في اتجاهه وتعثر وسقط على الأرض وانكسرت ساق السيد بسبب ذلك . فانقض وايت فانغ في فورة غضب على بلعوم الحصان المذنب لكنه رُدع بصوت السيد .

« إلى البيت ! اذهب إلى البيت ! » أمر السيد عندما تحقق من إصابته .

كان وايت فانغ غير راغب في تركه.فكر السيد في كتابة مذكرة . لكنه عبثاً فتش جيوبه بحثاً عن قلم رصاص وورقة . مرة أخرى أمر وايت فانغ بالذهاب إلى البيت .

نظر إليه هذا الأخير بلهفة وانطلق ثم عاد وصار يعوي بصوت رقيق . تحدث السيد إليه بصوت رقيق .

تحدث السيد إليه بلطف ولكن بجدية ، أما هو فقد دك أذنيه وأصغى بانكباب أليم .

« حسناً ، يا صديقي القديم،إجرِ إلى البيت فحسب » بدأ الحديث :

« اذهب إلى البيت واخبرهم بما حدث لي . إليك بالبيت ، أيها الذئب اذهب إلى البيت مباشرة ! »

كان وايت فانغ يعرف معنى « البيت » ومع أنه لم يفهم بقية كلام السيد فقد عرف أنه مشيئته تقضي بأن عليه الذهاب إلى البيت . استدار وخب مبتعداً على مضض ، ثم توقف متردداً وتطلع إلى الوراء من فوق كتفه .

« اذهب إلى البيت ! » جاء الأمر الحاد ، وامتثل هذه المرة .

كانت الأسرة في الرواق تأخذ قيلولة ما بعد الظهر عندما وصل وايت فانغ . دخل بينهم يلهث والغبار يغطيه .

« لقد عاد ويدون » أعلنت والدة ويدون .

رحب الأطفال بوايت فانغ بصيحات الفرح وركضوا لملاقاته . تحاشاهم ومر أسفل الرواق لكنهم حشروه مقابل كرسي حجري والدرابزين . جأر وحاول أن يشق طريقه بينهم . نظرت أمهم بترقب في اتجاههم .

« اعترف ، إنه يجعلني قلقة بشأن الأطفال » قالت :

« أخشى أن يهجم عليهم بشكل غير متوقع ذات يوم »

قفز وايت فانغ الذي كان يجأر بضراوة خارج الركن مؤدياً إلى انقلاب الصبي والبنت .

نادتهما أمهما إليها وهدأتهما مخبرة إياهما ألايضايقا وايت فانغ .

« الذئب هو الذئب » علق القاضي سكوت « لا يوجد ذئب يُوثق به »

« لكنه ليس ذئباً كله » تدخلت ممثلة أخاها في غيابه .

« أنت فقط من رأي ويدون فيما يتعلق بذلك » رد القاضي :

« إنه يظن فحسب أنه ثمة صفة موروثة من الكلاب لدى وايت فانغ ، ولكن كما سيخبرهم هو بنفسه فإنه لا يعرف شيئاً عنها . فيما يتعلق بمظهره .... »

لم يكمل الجملة . وقف وايت فانغ أمامه وهو يجأر بشراسة .

« ابتعد ! نم يا سيد ! » أمر القاضي سكوت .

التفت وايت فانغ إلى زوجة سيد الحب. زعقت من الخوف عندما أمسك فستانها بأسنانه وسحبه إلى أن تمزق القماش الضعيف . في

هذا الوقت أصبح مركز الاهتمام . توقف عن الجأر ووقف مرفوع الرأس إلى الأعلى وهو يتطلع إلى وجوههم . كانت حنجرته تعمل بشكل تشنجي ، لكنها لم تطلق أي صوت ، في حين كان يصارع بكل جسده ، وصار ينتفض بكل قوته ليخلص نفسه من الشيء الذي لا يمكن إيصاله والذي كان يجاهد من أجل النطق به .

« آمل ألا يكون قد جُنّ » قالت والدة ويدون .

« لقد أخبرت ويدون أنني أخشى ألا يكون المناخ الحار مؤاتياً للحيوان القطبي »

« إنه يحاول الكلام ، اعتقد » أعلنت بيث .

في هذه اللحظة جاء الكلام إلى وايت فانغ ، مندفعاً في نوبة نباح كبيرة .

« إن شيئاً ما قد حدث لويدون » قالت زوجته بشكل جازم .

والآن وقفوا جميعاً على أقدامهم وجرى وايت فانغ إلى أسفل السلم وهو يتطلع إليهم لكي يتبعوه . للمرة الثانية والأخيرة في حياته ينبح ويعبر عن نفسه بشكل مفهوم .

بعد هذا الحدث وجد مكاناً أكثر دفئاً في قلوب شعب السييرافيستا ، وحتى السائس الذي كسر ذراعه اعترف بأنه كلب حكيم حتى ولو كان ذئباً . ظل القاضي سكوت متمسكاً بالرأي نفسه وبرهن عليه أمام استياء الجميع بقياسات وأوصاف مأخوذة من الموسوعة والمؤلفات المختلفة التي تدور حول التاريخ الطبيعي .

جاءت الأيام ومضت ، وهي تسكب أشعة الشمس المتواصلة فوق وادي سانتا كلارا . ولكن عندما بدأت النهارات تقصر وأقبل شتاء وايت فانغ الثاني في بلاد الجنوب قام باكتشاف غريب. إن أسنان كولي لم تعد حادة . كان في عضاتها مرح وميل إلى اللعب وكان ثمة لطف يمنعها من إيلامه فعلاً . لقد نسي أنها هي التي جعلت الحياة عبئاً عليه ، وعندما صارت تلهو حوله استجاب لها بوقار ، جاهداً لأن يكون لعوباً وألا يصبح أكثر من مجرد مثير للسخرية .

ذات يوم استدرجته في مطاردة طويلة عبر المرج الخلفي إلى داخل الغابة . في فترة بعد الظهر كان السيد بصدد أن يمتطي حصانه . وكان وايت فانغ يعرف ذلك. كان الحصان يقف مُسَرَّجاً وهو ينتظر عند الباب . تردد وايث فانغ. ولكن كان فيه ما هو أقوى من كل القانون الذي تعلمه ، وأقوى من العادات والتقاليد التي قولبته ، ومن حبه للسيد ، ومن إرادة الحياة لديه نفسه ، وعندما عضته كولي ، في لحظة تردده ، وفرّت مبتعدة ، استدار ولحق بها . ركب السيد حصانه وحيداً في ذاك النهار؛ وفي الغابة جرى وايت فانغ مع كولي، جنباً إلى جنب ، كما كانت أمه كيتشي والأعور قد جريا قبل سنين طويلة في غابة بلاد الشمال الصامتة .

* * *

الفصل الخامس والعشرون

الذئب النائـــم

في هذا الوقت كانت الصحف مليئة بأخبار الفرار الجريء لأحد المحكومين من سجن سان كونتين . كان رجلاً شرساً . كان شريراً بطبيعته . فهو لم يولد ولادة صحيحة ولم يتلق أية مساعدة بواسطة القولبة التي مارسها عليه المجتمع . إن يدي المجتمع خشنتان وهذا الرجل مثال صارخ على صنيعه . كان وحشاً ، وحشاً بشرياً ، صحيح ، لكن لا داعي للقول أنه كان رهيباً للغاية لدرجة أنه يمكن وصفه في أحسن الأحوال بأنه لاحم .

في سجن سان كونتين كان قد برهن على أنه لا سبيل إلى إصلاحه . لقد فشل العقاب في تحطيم روحه . كان بمقدوره أن يموت بجنون صامت وأن يقاتل حتى النهاية، لكنه لم يكن بمقدوره أن يعيش ويُهزم. كلما قاتل بشراسة عامله المجتمع بقسوة أكثر ، وكان التأثير الوحيد للقسوة هو أنها كانت تجعله أكثر شراسة . كانت سترات المساجين (*)

* سترة المساجين أو المجانين : سترة من خيش أو غيره يقصد بها تقييد جسم المجنون أو السجين الخطر وذراعيه لكي لا يؤذي نفسه أو غيره . (المترجم)

والتجويع والضرب بالقبضات والعصي هي المعالجة الخاطئة بالنسبة لجيم هول ،ولكنها كانت هي المعالجة التي تلقاها . وكانت هي المعاملة التي تلقاها منذ أن كان صبياً غضاً صغيراً في حي الفقراء بسان فرانسيسكو منذ أن كان صلصالاً رخواً في يدي المجتمع وجاهزاً لأن يتم تشكيله إلى شيء ما .

خلال فترة حكم جيم هول الثالثة في السجن تعرف صدفة على حارس كان وحشاً كبيراً مثله تقريباً . كان الحارس يعامله بشكل ظالم ، وكان يفتري عليه لرئيس السجن وأفقده سمعه ، واضطهده . كان الفرق بينهما هو أن الحارس كان يحمل حزمة مفاتيح ومسدساً . أما جيم هول فلم يكن يمتلك سوى يديه العاريتين وأسنانه . ولكنه، في يوم من الأيام ، هجم على الحارس مستعملاً أسنانه ، وأنشب أسنانه في عنق الآخر مثل أي حيوان من حيوانات الغاب .

بعد ذلك ، ذهب جيم هول للإقامة في زنزانة الميؤوس من إصلاحهم حيث مكث هناك مدة ثلاث سنوات . كانت الزنزانة مصنوعة من الحديد ، وكذلك الأرضية والجدران والسقف . لم يبرح زنزانته أبداً . لم ير السماء ولا ضوء الشمس أبداً . كان النهار شفقاً والليل صمتاً أسود . كان في قبر من الحديد ، مدفوناً وهو على قيد الحياة . لم يرَ وجهاً بشرياً ، لم يتكلم إلى أي كائن بشري . كان يكره كل الكائنات . ظل أياماً وليال يجأر بغضبه على الكون . ولأسابيع وأشهر لم يصدر صوتاً ، وفي الصمت الأسود كان يأكل روحه ....

ثم ، ذات ليلة ، هرب . قال رئيس السجن أن ذلك مستحيل ،

ولكن لا داعي للقول أن الزنزانة كانت خالية ، وكان ثمة جثة حارس ميت ممددة من طرفها إلى طرفها . وإن حارسين ، ميتين آخرين ، انتبها لهروبه عبر السجن إلى الجدران الخارجية كان قد قتلهما بيديه تجنباً للضجيج .

كان مسلحاً بأسلحة الحراس المذبوحين – إنه عبارة عن ترسانة حية تفر عبر التلال تطاردها قوة منظمة من المجتمع . لقد تم رصد مبلغ كبير من الذهب ثمناً لرأسه . اصطاده المزارعون الطامعون بالمال ببنادق الصيد . إذ أن ثمن دمه يمكن أن يفك عقاراً مرهوناً أو يرسل إبناً إلى الجامعة . امتشق المواطنون المتحمسون للمصلحة العامة بواريدهم وخرجوا في أثره . كان قطيع من الكلاب الدمومة (*) تتبع أثر قدميه النازفتين . وكانت الشرطة السرية للقانون ، حيوانات المجتمع المقاتلة المأجورة بالهاتف والتلغراف وقطار خاص تلاحقه ليل نهار . في بعض الأحيان كانوا يصادفونه ، وكان الرجال يواجهونه كالأبطال أو يفرون مذعورين عبر السياجات والأسلاك الشائكة أمام فرحة جماعة تراجع الحسابات على مائدة الفطور . بعد هذه المواجهات كان الموتى والجرحى ينقلون إلى المدن وتُملأ أماكنهم برجال متلهفين لصيد الرجال .

ثم اختفى جيم هول . عبثاً بحثت الكلاب الدمومة عن الأثر الضائع كان أصحاب الماشية المسالمين في الوديان البعيدة يُلقى القبض عليهم من قبل رجال مسلحين ويجبرون على التعريف بأنفسهم ، في حين

* الكلب الدموم : كلب ضخم يستخدم لتعقب المجرمين والفارين من وجه العدالة.

(المترجم)

كانت تُكتشف فضلات جيم هول على عدة سفوح جبلية من قبل المطالبين المتشعين بالفدية .

في هذه الأثناء كانت الصحف تقرأ في سييرافيستا باهتمام بالغ ، لكنه لم يكن اهتماماً بقدر ما كان قلقاً . كانت النساء خائفات . كان القاضي سكوت يسخر ويضحك ولكن ليس بدون سبب ، لأنه في أيامه الأخيرة على قوس المحكمة وقف جيم هول أمامه وتلقى الحكم عليه . وفي قاعة المحكمة المفتوحة وأمام جميع الرجال كان جيم هول قد توعّد بأنه سيأتي اليوم الذي سينتقم فيه من القاضي الذي حكمه .

لمرة واحدة ، كان جيم هول على حق . فقد كان بريئاً من الجريمة التي حكم من أجلها . كانت ، بلغة اللصوص والشرطة ، قضية « حكم متسرع بالسجن على شخص بريء » . فقد حكم على جيم هول بالسجن بدون أدلة على الجريمة التي لم يرتكبها .

بسبب التجريمين السابقين ضده فقد فرض عليه القاضي سكوت حكماً بالسجن مدة خمسين عاماً .

لم يكن القاضي سكوت يعرف كل الحيثيات ، ولم يكن يعرف أنه طرف في مؤامرة الشرطة ، بحيث أن الأدلة قد لفقت وأُقسم عليها اليمين الكاذب .

لقد كان جيم هول بريئاً من الجريمة التي اتُهم بها . وجيم هول ، من ناحية أخرى ، لم يكن يعرف أن القاضي سكوت كان جاهلاً بالأمر ليس إلا . اعتقد جيم هول أن القاضي يعرف كل شيء عن

القضية وأنه متواطىء مع الشرطة في ارتكاب الظلم الفظيع . وهكذا كان الأمر . فعندما نطق بالحكم عليه بخمسين سنة من الموت حياً من قبل القاضي سكوت ، ما كان من جيم هول ، الذي كان يكره كل الكائنات في المجتمع الذي أساء إليه ، إلا أن انتفض واهتاج في قاعة المحكمة إلى أن قام نصف دزينة من أعدائه ذوي المعاطف الزرقاء بجره . بالنسبة له ، كان القاضي سكوت هو حجر الزاوية في قوس الظلم ، وأفرغ كل سموم غضبه وحقده على القاضي سكوت وأطلق التهديدات بأن الانتقام منه آتٍ لا ريب فيه . ثم مضى جيم هول إلى حتفه الحي ... وهرب . عن كل هذا لم يكن يعرف وايت فانغ شيئاً . ولكن بينه وبين آليس ، زوجة السيد ، كان ثمة سر . في كل ليلة ، وبعد أن تكون سيرافيستا قد خلدت إلى النوم ، كانت تنهض وتدع وايت فانغ ينام في القاعة الكبرى .

إن وايت فانغ الآن ليس كلب المنزل، وليس مسموحاً له أن ينام في البيت: لذلك، كانت تنسل في كل صباح ، باكراً ، إلى الأسفل وتخرجه قبل أن تستيقظ الأسرة .

ذات ليلة من هذه الليالي ، وبينما كان المنزل كله يغط في النوم ، استيقظ وايت فانغ واضطجع بهدوء شديد. وبهدوء شديد شم رائحة الهواء وقرأ الرسالة التي كان يحملها عن وجود إله غريب . ووردت إلى أذنيه أصوات حركات الإله الغريب. لم ينفجر وايت فانغ بصيحة غاضبة . لم تكن هذه عادته . كان الإله الغريب يمشي بخفة ؛ لكن وايت فانغ كان يمشي بخفة أكثر لأنه لم يكن يرتدي ثياباً تحتك بلحم

جسمه . تبعه بصمت . في البرية سبق له أن اصطاد اللحم الحي الذي كان جباناً بشكل لا محدود ، وكان يعرف ميزة المباغتة .

توقف الإله الغريب عند قاعدة السلم وأصغى ،وكان وايت فانغ مثل الميت . وهكذا صار يراقب وينتظر دون أن يأتي بحركة . في أعلى السلم كان الطريق يؤدي إلى سيد الحب وإلى أعز أملاك سيد الحب. انتصب شعر وايت فانغ لكنه انتظر. ارتفعت قدم الإله الغريب . كان قد بدأ الصعود. ثم كان أن ضرب وايت فانغ ضربته . لم يعطِ إنذاراً ، ودون زمجرة تسبق فعله . فرفع جسمه في الهواء بقفزة حطته على ظهر الإله الغريب . أنشب وايت فانغ مخالبه الأمامية في كتفي الرجل ، وفي الوقت نفسه كان يغرز أنيابه في قفا عنقه . تعلّق به للحظة ، كانت طويلة بما يكفي لبطح الرجل على ظهره . فانهارا سوية على الأرض . وثب وايث فانغ محرراً نفسه،وبينما كان الرجل يصارع للنهوض ، وقع مرة أخرى تحت الأنياب الجارحة .

استيقظت سيرافيستا مذعورة . فقد كانت الجلبة الصادرة عن الطابق السفلي كأنها صخب عشرين عفريتاً يتعاركون. كان ثمة طلقات مسدس . صرخ صوت رجل برعب وألم مبرح . كان ثمة زمجرة وجأر هائلين، وفوق كل ذلك كان هناك صوت تحطم وتهشم الأثاث والزجاج .

لكن الاهتياج خمد بالسرعة نفسها التي صعد بها أيضاً . لم يدم العراك أكثر من ثلاث دقائق . تجمع أهل البيت المذعورين في أعلى السلم . ومن الأسفل ، كما لو كان خارجاً من هاوية الظلام ، صعد

صوت مقرقر ، كما لو كان صوت هواء يبقبق عبر الماء . في بعض الأحيان كانت هذه القرقرة تصبح صافرة ، أشبه بصفارة . لكن هذا ، أيضاً ، سرعان ما خمد وتوقف . ثم لم يصدر أي شيء عن السواد سوى لهاث ثقيل لمخلوق ما يجاهد بشكل مؤلم من أجل الهواء .

كبس ويدون سكوت زراً ففاض السلم والطابق السفلي بالنور . ثم هبط والقاضي سكوت باحتراس ، كلٌ يحمل مسدساً في يده . لم يكن ثمة حاجة لهذا الاحتراس.فقد قام وايت فانغ بعمله وسط حطام الأثاث المقلوب والمحطم ، وكان يتمدد رجل بشكل جزئي على جنبه ووجهه محجوب بذراعه . انحنى ويدون سكوت فوقه ، أزاح الذراع وأدار وجه الرجل إلى الأعلى . فكانت الحنجرة المفتوحة كافية لتفسير طريقة وفاته .

« جيم هول » ، قال القاضي سكوت ، ونظر الأب والإبن بشكل ذي مغزى ، كلٌ إلى الآخر . كانت عيناه مغمضتين ، لكن الجفنين ارتفعا قليلاً في محاولة للنظر إليهما بينما كانا ينحنيان فوقه ، وكان الذيل مثاراً في محاولة عبثية للاهتزاز .

قام ويدون سكوت بمداعبته ، فأطلقت حنجرته جأرة امتنان . لكنها كانت جأرة ضعيفة في أحسن الأحوال وسرعان ما انقطعت هذه الجأرة . انسدل جفناه وانغلقا ، وبدا أن جسمه كله يرتخي وينبسط على الأرضية .

« لقد انتهى هذا الشيطان البائس » تمتم السيد .

« سنتأكد من ذلك » أكد القاضي ، بينما توجه نحو الهاتف .

« بصراحة ، لديه واحد على ألف من الأمل » أعلن الجراح بعد أن اشتغل لمدة ساعة ونصف على وايت فانغ .

كان الفجر ينبلج من خلال النوافذ ويطغى على الأنوار الكهربائية .

تجمعت الأسرة كلها ، باستثناء الأطفال ، حول الجراح لسماع حكمه .

تابع بقوله : « إن ساقه الخلفية مكسورة ، ثلاثة أضلاع مكسورة واحد منها على الأقل اخترق الرئتين . فقد كل دمه تقريباً . ثمة احتمال كبير لحدوث إصابات باطنية . لابد أنه قد تعرض للوثوب عليه — هذا ناهيك عن ثقوب الرصاصات الثلاثة التي اخترقته . إن فرصة واحد إلى ألف هي في الواقع فرصة متفائلة . ليس لديه فرصة واحد بالعشرة آلاف » .

« ولكن يجب ألا يضيع أية فرصة قد تكون منقذة له » هتف القاضي سكوت « لا تهتم بالكلفة . ضعه تحت الأشعة السينية — أو أي شيء . يا ويدون ، ابعث برقية في الحال إلى سان فرانسيسكو للدكتور نيكولز . هذا ليس تشكيكاً بك يا دكتور ، أنت تفهم ذلك ، ولكن يجب أن يستفاد من كل فرصة ممكنة » .

ابتسم الجراح بتسامح : « بالطبع ، أنا فاهم ، إنه يستحق كل ما يمكن فعله لأجله . يجب معالجته كما يُعالج الكائن البشري أو الطفل المريض . ولا تنس ما أخبرته به حول درجة الحرارة . سأعود في العاشرة مرة أخرى »

تلقى وايت فانغ العلاج . إن اقتراح القاضي سكوت بجلب ممرضة متمرنة قد لاقى تذمراً ساخطاً من قبل الفتيات اللواتي تعهدن القيام بهذه المهمة بأنفسهن.ونجا وايت فانغ اعتماداً على فرصة الواحد بالعشرة آلاف التي أنكرها عليه الجراح .

إن هذا الأخير لم يكن ليُلام على حكمه الخاطىء . فطوال حياته كان يشرف ، ويجري العمليات الجراحية على بشر المدنية الغضين الذين يعيشون حياة محمية والذين هم سليلو أجيال محمية من البشر . بالمقارنة مع وايت فانغ، كانوا هشين ومترهلين ، ويتمسكون بالحياة بدون أية قوة في قبضتهم .كان وايت فانغ قد جاء من البرية مباشرة، حيث يفنى الضعفاء باكراً ، ولا يمنح الملجأ لأحد . لم يكن يعرف الضعف لا في أبيه ولا في أمه ، ولا في الأجيال التي سبقته . كان إرث وايت فانغ عبارة عن تكوين من الحديد وحيوية البرية، وكان يتشبث بالحياة ، بكليته وبكل جزء منه ، روحاً ولحماً ، بعناد قديم ينتمي إلى كل المخلوقات .

إن وايت فانغ الذي أمضى الأسابيع محبوساً ، محروماً حتى من الحركة بفعل التجبيرات اللاصقة والضمادات ، كان ينام ساعات طويلة ويحلم كثيراً ، ومن خلال عقله كان يمر موكب لا ينتهي من مشاهد بلاد الشمال . لقد ظهرت كل أشباح الماضي وكانت معه . مرة أخرى ، عاش في العرين مع كيتشي ، زحف مرتجفاً إلى ركبتي غراي بيفر ليقدم الولاء له ، جرى من أجل حياته أمام ليب ـ ليب وكل الهرج والمرج العوائي لقطيع الجراء .

ركض مرة أخرى عبر الصمت ، صائداً طعامه الحي خلال شهور المجاعة ، ومرة أخرى ركض على رأس الفريق والسياط المصرانية لميت — ساه وغراي بيفر تفرقع خلفه وأصواتهما تصرخ : « راء ، راء ! » عندما دخلوا في ممر ضيق والتز فريق الكلاب إلى بعضه مثل المروحة لكي يمروا .

لقد عاش مرة أخرى كل أيامه مع بيوتي سميث والمعاركات التي خاضها .في مثل هذه الأوقات كان يئن ويزمجر في نومه ، والذين كانوا ينظرون إليه قالوا أن أحلامه سيئة .

ولكن كان ثمة كابوس واحد خاص عاني منه بشكل خاص — إنه الحيوانات الغريبة الأشكال (الهولات) المصلصلة الرنانة للسيارات الكهربائية التي كانت ، بالنسبة له ، وشقات زاعقة هائلة الحجم . فكان يتمدد في ستارة من الأغصان ، ينتظر سنجاباً لكي يغامر بالابتعاد بشكل كافٍ عن ملجأه البشري . ثم ، وعندما ينقض عليه ، كان يتحول إلى سيارة كهربائية مهددة بالخطر ، ومخيفة ، تتكوم فوقه مثل جبل ، وهي تزعق وتطلق رنيناً وتبصق ناراً عليه . وحصل الأمر نفسه عندما تحدى الصقر بأن يهبط من السماء . فانقض عليه من السماء ، وعندما كان يسقط عليه كان يتحول إلى سيارة كهربائية كلية الوجود . أو ، مرة أخرى ، يجد نفسه في حظيرة بيوتي سميث . خارج الحظيرة ، كان الناس يتجمعون ، فكان يعرف أن عراكاً سيحصل . كان يراقب الباب لكي يدخل خصمه . ينفتح الباب فيدفع إليه بسيارة كهربائية مرعبة . ألف مرة حدث هذا ، وفي كل مرة كان الرعب الذي تسببه حياً وكبيراً كما كان من ذي قبل .

– ثم جاء اليوم الذي – نزعت فيه آخر ضمادة وآخر جبيرة لاصقة . كان يوم مهرجان احتفالي . لقد تجمعت كل سييرافيستا حوله . فرك السيد أذنيه فأطلق جارته الحبية . كانت زوجة السيد تسميه « الذئب المبارك » وهو الإسم الذي أطلق عليه مع التصفيق ، وصارت كل النساء يسمينه الذئب المبارك .

حاول النهوض على أقدامه ، وبعد عدة محاولات سقط أرضاً بسبب الضعف . فقد سبق له أن اضطجع طويلاً جداً بحيث أن عضلاته فقدت مهارتها ، وخرجت منها كل القوة . شعر بالعار قليلاً بسبب ضعفه كما لو كان بالفعل يخذل الآلهة في الخدمة التي كان يدين لها بها . وبسبب ذلك ، قام بمحاولات بطولية لكي ينهض وأخيراً وقف على أرجله الأربعة ، وهو يترنح ويتمايل إلى الأمام وإلى الوراء .

« الذئب المبارك ! » صاحت النساء بصوت واحد .

مسحهن القاضي سكوت بنظرة ظافرة .

« أخرجنها من أفواهكن ! » قال :

« تماماً مثلما أكدت لكنّ دائماً . إن مجرد كلب لا يمكنه أن يفعل ما فعله . إنه ذئب » .

« ذئب مبارك » صلحته له زوجة القاضي .

« نعم ، ذئب مبارك » وافق القاضي « ومن الآن فصاعداً ستكون تسميتي له »

« سيكون عليه أن يتعلم السير مرة أخرى » قال الجراح « لذلك ، يمكن أن يبدأ تماماً بشكل صحيح من الآن . إن ذلك لن يؤذيه . خذوه إلى الخارج » وإلى الخارج ذهب ، مثل ملك ، وكل السييرافيستا تحيط به وتقوم على رعايته . كان ضعيفاً جداً ، وعندما وصل إلى المرج استلقى واستراح لبرهة من الزمن .

ثم بدأ التقدم ، فصارت الدفقات المفاجئة القليلة من القوة تدخل إلى عضلات وايت فانغ وكان يستخدمها وبدأ الدم يمور فيه. وصل إلى الإسطبلات ، وهناك في الباب كانت تتمدد كولي ، ونصف دزينة من الجراء المربوعة تلعب حولها في الشمس .

نظر وايت فانغ بنظرة مستفسرة، زمجرت كولي به منذرة، وكان حريصاً على الحفاظ على ابتعاده . قام السيد بالاستعانة بإصبع قدمه بمساعدة أحد الجراء الحابية على التوجه نحوه . فانتصب شعره مرتاباً ، لكن السيد حذّره أن كل شيء على ما يرام . إن كولي ، التي كانت محضونة بين ذراعي إحدى النساء صارت تراقبه بغيرة وحذرته بزجرة أن ليس كل شيء على ما يرام .

زحف الجرو أمامه . دك أذنيه وصار يراقبه بفضول . ثم تلامس أنفاهما وشعر باللسان الصغير الدافيء للجرو على خده . خرج لسان وايت فانغ لم يعرف لماذا ، ولحس وجه الجرو .

قوبل هذا المشهد بالتصفيق وصيحات الفرح من الآلهة . فوجيء ونظر إليهم بطريقة ملغوزة . ثم كشف ضعفه عن نفسه ، فسقط أرضاً ، وأذناه مشرئبتان ورأسه على جنبه ، بينما كان يراقب الجرو .

جاءت الجراء الأخرى تزحف نحوه ، أمام اشمئزاز كولي الكبير ، وسمح لهم بوقار بأن يتسلقوه ويتشقلبوا عليه . في البداية ووسط تصفيق الآلهة ، كشف عن قدر ضئيل من وعيه القديم واعتداده بذاته وارتباكه . وقد تلاشى ذلك عندما استمرت تصرفات الجراء الغريبة ومخاشناتها ، واستلقى بعينين صابرتين نصف مغمضتين وهو يغفو في ضوء الشمس .

* * *

خاتمة

توصف رواية / الناب الأبيض / غالباً بأنها قصة كلب ، وهي كذلك . لكن هذه السمة من الصعب أن تشمل الصورة الكاملة . لأنه في حين أن / الناب الأبيض / تدور فعلاً وإلى حد بعيد حول كلب – هو في الواقع ذئب – كلب ، فإنها في الجوهر قصة من قصص الإثارة والتشويق جرى تصويرها على خلفية عالم غريب قاسٍ ووحشي . ذاك العالم هو القفار القطبية الشمالية لكندا في أيام فورة ذهب الكلوندايك في تسعينات القرن التاسع عشر ، ونهر يوكون البكر والأراضي الشمالية الغربية والبشر والحيوانات الذين كانوا يعيشون هناك .

تكمن عبقرية جاك لندن في إنه استطاع ترجمة الإطار الفيزيائي – الجسدي إلى انفعال ، إلى شعور ، وقد فعل ذلك ببراعة . لذلك فإنه يبدأ رواية / الناب الأبيض / برسم البيئة التي تحدث فيها القصة بأسلوب فذ ، بإسلوب يستعصي على النسيان تقريباً .

رجلان يرتحلان على مزلجة عبر الطقس البارد المشل وراء فريق من الكلاب التي تجر المزلجة . إن المهمة التي يزمعان القيام بها هي أن

يسلما إلى محطة تجارية تابوتاً يحتوي على جثمان زائر ميت جاء إلى حقول الذهب ، وذلك لشحنه بالباخرة إلى انكلترا لكي يدفن هناك .

إنها مهمة رهيبة ، بالطبع ، ومما يزيد من رهبتها هي مصاعب الشتاء القطبي الشمالي القاسية ومخاطر الرحلة ذاتها . وعلاوة على ذلك ، فقد كان زمن جوع . فالطرائد نادرة ، ولا يمتلك الرجلان وكلابهما الستة سوى القليل من الطعام وثلاث خرطوشات ، وهناك قطيع من الذئاب الرمادية الجائعة تحاصرهم .

هذا هو الوضع الذي يفتتح به جاك لندن رواية (الناب الأبيض) . إنها ليست بالافتتاحية العادية والمألوفة . إن الشخصية الرئيسية فيها ، الذئب ـ الكلب ، لا يرد ذكره . بل نتعلم،بدلاً من ذلك ، وبشكل مثير ، ماذا يعني أن تكون محاصراً في البراري القطبية في وضع يضع حياتك في خطر .

إن التشويق في النثر هو توتر يسببه الخوف من حدوث أو عدم حدوث شيء ما . في / الناب الأبيض / تطرح المقدمة على الفور سؤالاً مشوقاً .هل سينجو الرجلان من الأخطار التي تواجههما ويكملان مهمتهما؟

تتراكم الإثارة مع اقتناص الذئاب لثلاثة من كلاب المزلجة التابعين للرحالين واحداً بعد الآخر . أما الطعم فهو ذئبة ، نصف كلبة ، ذات فراء مائل للحمرة كانت تعيش مع الهنود .تبرهن الذئبة على دهائها عن طريق التسلل إلى الكلاب المتبقية في موعد الإطعام لتسرق سمكة لا يمكن للرحالين أن يتحملا فقدانها إلا بصعوبة ثم تكمن لكلب رابع ، وحيد الأذن ، إلى أن تقضي عليه .

ويموت أحد الرجلين مع الكلب . فيعيش الآخر كابوساً من الألم والإعياء والخطر يصارع الذئاب بالنار ولا ينجو من الموت إلا بفضل رحالة آخرين يأتون لنجدته . ينتهي الفصل وقد أتم غرضه . أي أن لندن قد استحضر لنا خطر الحياة البرية القطبية الشمالية التي تسير وفق قانون : كُل أو تؤكل ، وذلك بأن جعلنا نعيش الساعات المرعبة المقشعرة التي يحوم فيها الموت مثل الظل فوق الإنسان والحيوان على حد سواء . وفي الوقت نفسه فقد أدخلنا إلى عالم الذئاب . ولأننا نراهم فعلاً – نرى ذكاءهم ، وحشيتهم ، مكرهم – لا يمكننا أن نتجنب الاهتمام بهم .

وهكذا ، بشكل لا إرادي ، تقريباً ، نجد أنفسنا مشدودين إلى القصة بروابط الفضول والتشويق . ففي حين يزيح جاك لندن جانباً الاهتمام بالبشر يعرفنا بشكل أكثر كمالاً وحميمية على عالم الذئاب ونمط الحياة فيه . على مدى فصلين من فصول الرواية نجول مع القطيع الذي يعيش أولاً في جوع – في شبه مجاعة تصل إلى حد الموت جوعاً ، ثم في وفرة يؤمنها وجود حيوان الموظ الذي يبلغ وزنه ثمانمائة باوندا (بمعدل مئتي باوندا كاملاً من اللحم لكل فم من القطيع البالغ أربعين ذئباً) يقع تحت قبضة القطيع . إن كيتشي ، الذئبة – الكلبة ذات الفراء المائل إلى الحمرة تتزاوج مع ذئب رمادي الأعور العجوز . عندما تلد جراءها ، نلتقي أخيراً ببطلنا وايت فانغ . إنه فريد من نوعه كما ينبغي أن يكون البطل : رمادي اللون كلياً : « من الناحية الجسدية ، فقد ولد حقاً من سلالة الأعور العجوز » .

أما أخوته وأخواته فكانوا يمتلكون لون أمهم ، الأحمر .

ثم ، نتشارك التنشئة الجروية لوايت فانغ فصلاً فصلاً . فهو يستكشف العرين ، حيث ولدته أمه كيتشي ، مضطرباً في مشيته ، مرتبكاً ، متعثراً . وبينما عيناه لا تزالان مغمضتين « شعر وتذوق وشم » هذا العالم المحصور وهو يمرح مع إخوته وأخواته .

ثم يصبح مدركاً للضوء . تنفتح عيناه عندما يغامر ، في خضم شوقه لرؤية المزيد ، بالاقتراب أكثر مما ينبغي من مدخل العرين ، فتقوم أمه بتأديبه .

تتطور وجبته من حليب الأم إلى اللحم . يتعلم الاحتراس وما الذي يعنيه الألم . في النهاية يسمح له باستكشاف العالم في الخارج ، فصارت تتدفق عليه الخبرات الجديدة ، الدروس التي تشمل الصقور وابن عرس والوشق .

يكتشف الماء وكيف يكون الشعور بالسقوط . يتعلم كيف يقتنص ويقتل ويختبيء . مرة أخرى تأتي المجاعة . تموت الجراء الأخرى جوعاً . لكن وايت فانغ ينجو لأنه قوي وذكي .

كيف اكتسب جاك لندن مثل هذه البصيرة إلى الذئاب والكلاب التي يكتب عنها — وكيف ينقل إلينا هذا التبصر — إلى قرائه ؟

لقد لعبت الملاحظة دوراً كبيراً ، بالطبع ، وكذلك المنطق . مع أن مئات من الباحثين الآخرين عن الذهب في الكلونديك قد سنحت لهم فرصة مكافئة لدراسة الحيوانات التي تعاملوا معها ، ومع

ذلك لم يستفيدوا شيئاً من ذلك : لماذا ، لأنهم كانوا يفتقرون إلى مكون آخر أكثر حيوية من مكونات الشخصية : هذا المكون هو المخيلة . لأنه ، من الواضح ، أن المخيلة هي التي منحت لندن البصيرة . فبينما كان يراقب كلاب المخيم والذئاب لم يكتف بمجرد السؤال :

« لماذا يتصرف هذا المخلوق بهذه الطريقة ؟ » بل سأل ، بالأحرى : « لماذا كنت سأتصرف أنا بهذه الطريقة فيما لو كنت كلباً أو ذئباً ؟ »

بعبارة أخرى ، لقد وضع لندن نفسه في مكان الحيوان ، حاول أن يجرب ويفكر ويشعر مثلما يمكن أن يفعل الكلب أو الذئب وأن يسبر المنطق السري للكلب – الذئب – على الأقل ، رؤيته لمنطق الكلب – الذئب .

ثم يصف تلك الخبرات ، الأفكار ، والمشاعر ، ذاك المنطق الحيواني في فصول مثيرة ، وبلغة يمكن أن يفهمها البشر . لقد أصبحت مخيلته هي مخيلتهم أيضاً . إن مثل هذا الفهم ، هذا التداخل للدوافع وأنماط التفكير مع تلك الحيوانات ، إنما يستهجنه الكثيرون . يصطلحون على تسميته باسم « التفكير شبه البشري » ولكن كما قدمه لنا لندن فقد وجده القراء الذين لا حصر لهم آسراً بشكل لا يصدق . والأهم من ذلك ، في حين أن معظم الكتاب يميلون إلى الايجاز فإن لندن قد جعل قصة وايت فانغ حية ومثيرة عن طريق تقديمها،إلى حد كبير ، بمثابة معايشة لحظة بلحظة لخبرات وأحداث وحوادث كما حدثت .

وهكذا ، فإن وايت فانغ عندما يقع بين صيصان الترمجان يضع مخلبه على واحد منهم ويشمه ثم يلتقطه بفمه.

« كان يصارع ويمط لسانه ... أطبق مخلبيه على بعضهما البعض . كان ثمة قرقشة العظام الهشة، وسال الدم الحار في فمه . كان طعماً شهياً . »

إن هذه التفاصيل هي التي تأسر القراء . إن لندن ، بكتابته هذه ، بنى قصصاً جعلته غنياً ومشهوراً . غنياً لحين من الزمن . وكان لندن يمتلك موهبة صرف النقود بأسرع مما يكسبها ، لذلك ، بالرغم من أنه جمع أكثر من مليون دولار في حياته القصيرة نسبياً ، فقد ظل مديوناً بشكل شبه دائم .

ولكن كان ثمة ما هو أكثر من ذلك في عمل جاك لندن . فمثل أي كاتب جيد ، إن لندن قد علّم بقدر ما أمتع . بقراءة / الناب الأبيض / نتعلم كيف يدافع الشيهم عن نفسه وكيف يسلب الذئب فخ الأرانب . وكيف تسير مزلجة ماكنزي الهندية المصنوعة من لحاء البتولا فوق الثلج مثل زورق فوق الماء . إذ يُربط كل كلب على حدة إلى المزلجة بخط واحد . كل خط يكون له طول مختلف لكي لا تتعارك الكلاب . ثم تتفرع الخيوط عن بعضها في قوس أمام المزلجة .

أما مزلجة الكلوندايك الخاصة بالباحثين عن الذهب ، بالمقابل ، فتكون مجهزة بزحافات ، وتربط الكلاب في رتل وحيد ، الواحد أمام الآخر .

إن وايت فانغ الذي يكبر متجاوزاً مرحلة الطفولة الجروية يتعرف إلى البشر عندما يلتقي هو وأمه صدفة بالهنود . يتعرف الهنود على

كيتشي الذئبة ـ الكلبة التي صارت تعيش معهم . يفرح صاحبها السابق غراي ـ بيفر بعودتها ويمنح جروها اسم وايت فانغ (الناب الأبيض) .

مع وايت فانغ نتعلم الأساليب والقوانين الهندية التي تحكم الكلاب التي تعيش معهم . ومعه نتوصل إلى فهم الخوف من اليدين والتراجع أمام قوة النار ، وباعتباره متوحداً ومنبوذاً من الحيوانات الأخرى نتعرف إلى العراك بوحشية ماكرة لا رحمة فيها .

إن الصورة التي يرسمها لندن للحيوانات هي صورة حية بشكل لا يصدق . ولكن في حين أن تبصراته في الحيوانات عميقة وسابرة ، فإن شخصيات / الناب الأبيض / البشرية تميل لأن تكون مرسومة بضربات فرشاة عريضة . فالتفاصيل محدودة. إن وايت فانغ ينظر إلى البشر ببساطة على أنهم آلهة . إن سيده الإسمي ، غراي بيفر ، هو سيد بدائي بدون أية صبغة رومانسية. فيكون الكلب بالنسبة له شيئاً من الأملاك ويباع مقابل زجاجة ويسكي إذا كان ذلك لصالح مالكه . والبشر البيض الذين يصادفون في قلعة يوكون من الواضح أنهم يمتلكون قوى تتفوق على ما لدى الهنود ، لذلك فهم ، في نظر وايت فانغ ، يقفون بمثابة آلهة عليا .

يوصف بيوتي سميث ، الشرير الأبيض ، كإله مجنون . ولأن الشرير في أية حكاية يكون هاماً فإن جاك لندن يظهره بتفصيل أكثر قليلاً وببصيرة أعمق إلى حد ما مما يفعل بالنسبة للشخصيات البشرية الأخرى في الكتاب .

لأن وايت فانغ مقاتل ممتاز ، يشتريه بيوتي من غراي بيفر لمصارعة الكلاب الأخرى في معاركات ضارية ووحشية حتى الموت .

إن بيوتي ، مثل غراي بيفر ، بدائي — لكنه بدائي بالوراثة مثلما هو بدائي بالشرط الاجتماعي . إنه ، تحديداً ، فلتة ، « رأس دبوس » — صغير ، ضعيف ، جبان ، سادي . إن اللمسة الساخرة في تسمية « بيوتي » (جمال) إنما تكثف الصورة .

أما ويدون سكوت ، بطل الرواية الإنساني والشخصية التي ستصبح على حد تعبير لندن : « سيد الحب » لوايت فانغ ، هو النقيض لبيوتي سميث . هو رجل الشجاعة بالنسبة له شيء غريزي والقسوة شيء غريب . فعندما يشاهد الذئب — الكلب مطروحاً من قبل ثور لاعب الفرعونية يقوم بضرب بيوتي وإنقاذ وايت فانغ ، ثم يستمر في المراهنة على قناعته بأن اللطف والتفاهم يمكن أن يروّضا حتى الذئب وأن وايت فانغ يستحق الترويض والتدجين .

بنجاحه في مهمته ينتشل وايت فانغ من بلاد الشمال وينقله إلى كاليفورنيا ليعيش حياة أكثر سعادة .

ثمة الكثير مما يقال لصالح القصة ولكن هل يمكننا أن نستبعد جاك لندن ببساطة باعتباره مجرد راوية للقصص ، كاتب مغامر ولا شيء أكثر من ذلك ؟ لا ، بكل المعايير والمقاييس ، إن لندن يجب النظر إليه كفيلسوف بقدر ما هو كاتب ، فهو يتميز بمعتقدات قوية — تكون متناقضة في بعض الأحيان — يقوم بحشرها في نثره . في / الناب الأبيض / على سبيل المثال ، من الواضح أن لندن يجادل بأن الحب هو قوة حضارية كبرى — إن لم تكن الأكبر — في عالم مغاير تحكمه العصا والناب والوحشية والدم . فعندما يسند إلى الذئب

ـ الكلب العظيم دور حامي الأسرة وينقله من وحش ضارٍ إلى « ذئب مبارك » يعترف بسكوت على أنه السيد المحبوب ، نرى لندن يعلن عن قناعته بأن المحبة يمكن أن تعيد تشكيل الحياة رغماً عن الوراثة .
إن لندن ، ولكي يمسرح ذلك ، يركز على رفيقة وايت فانغ في بلاد الجنوب ، كولي ، وجراثها . فعندما يتقبلهم وايت فانغ أخيراً إنما يمثل هذا التقبل نهاية دافئة وجميلة ويرسم وجهة نظر جاك لندن بشكل أكثر حيوية ، وبشكل ذي مغزى مما يمكن لأية وجهة نظر تبشيرية أو أخلاقية أن تفعله .

* * *

الفهرس

الطباعة وفرز الألوان مطابع وزارة الثقافة
دمشق ١٩٩٨

سعر النسخة داخل القطر
١٧٥ ل.س

في الأقطار العربية ما يعادل
٣٥٠ ل.س